تواليب

روايـــة

الطبعة الأولـــى
2020م- 1442هـ

ديـــوان العـــرب
للنشر و التوزيـــع

ملحوظـــــــــة: حقوق الطبع جميعها محفوظة للمؤلف

عنـــوان الكتاب: توليب

اســـم المـؤلف: سلام المجالي

التصنيف الأدبي: رواية

رقم الإيـــــداع: 19407 / 2020

الترقيـم الدولي: 0 - 66 - 6830 - 977 – 978

تـصميـم الغلاف: د. محمد وجيه

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: د. محمد وجيه

رقـــم الطبـعـة: الطبعة الأولى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

تواليب

رواية

سلام المجالي

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى أمي .. إلى أبي ..

دائماً وأبداً

شكر خاص إلى خالي الأستاذ إبراهيم الصيادي

سلام المجالي

****

الفصل الأول

يا طير .. يا طاير على طراف الدني

لوفيك تحكي للحبايب شو بيني

يا طير .. يا طير

في مقهى صغير مطل على جسر البوسفور في مدينة إسطنبول التركية، وبينما كانت الأغنية الفيروزية الصباحية تصدح عالياً من مشغل الأغاني، جلست ليلى ذات الثانية والعشرين ربيعاً على إحدى الطاولات في زاوية المقهى، كان المطر يهطل بغزارة، وحبات البرد تطرق زجاج النوافذ بشدة، فالشتاء لم يرحل بعد، كانت ليلى قد اعتادت على الجلوس في هذا الركن من المقهى وعلى الطاولة نفسها دوماً، نظراً لما لها من موقع مميز، فقد كانت بجانب إحدى النوافذ التي تتيح رؤية ممتازة للبحر والسماء، اتحاد أزرقين لا مثيل لجمالهما، لك أن تتخيل كمية الصفاء والسكينة سواءً للنظر أو القلب والروح معاً، فلطالما كانت ليلى من محبي اقتناص المواقع المتميزة، خصوصاً عندما ترغب بالاسترخاء أو التفكير بعمق، أو ربما لاسترجاع بعضٍ من ذكريات الماضي العزيز، وعلى الرغم من قسوة الشتاء وبرودته إلا أنه الفصل المفضل لدى ليلى، فهي دائماً ما كانت تشعر بوجود صلة وثيقة تربطها بالثلج والمطر، بالتالي لا عجب أن كانت هوايتها المفضلة الرقص تحت زخاته وهي حافية القدمين، بثوبها الأسود القصير ووشاحها الصوفي المطرز بالورود الحمراء الصغيرة، كانت تمسك بنعليها وتبدأ بالرقص والتمايل كما لو أنها راقصة باليه محترفة، وعلى الرغم من استهجان المارة لتصرفها الغريب هذا فقد كانت تقهقه في سرها مطلقةً العنان لكل حواسها وجوارحها للاستمتاع بكل لحظة، وكان شعرها الكستنائي الطويل يوافقها بهذا الجموح والتهور، ليتمايل مع كل حركة من حركاتها فيتناثر الماء الذي

علق بخصلاته في الاتجاهات الأربعة وكأنه مرش للماء، فيضيف بذلك لمسةً أخرى من الجنون والجمال، وفيما هي على هذه الحال كانت تنظر الى المارة وتفكر بينها وبين نفسها يا لهؤلاء المساكين لا يدرون كم يفوتون على أنفسهم من متعة ولذة، وتشفق عليهم لأنهم كانوا بنظرها روبوتات متحركة بوجوه عابسة طوال فترات النهار، هؤلاء الذين فقدوا لذة الاستمتاع بالحياة وغرقوا في المشاكل والهموم، أمسوا لا يعرفون من الدنيا سوى العمل وجمع النقود، كانوا بنظرها أجساداً بلا أرواح ،هذه الأجساد التي نسيت أن تعيش، وماذا يعني أن يكون المرء على قيد الحياة، فكوننا بشر لم نخلق فقط لأن نتنفس ونمشي ونأكل فحسب، بل أن نشعر و نستمتع، نغني ونرقص، كان هذا المعنى الحقيقي للحياة التي كانت ليلى تؤمن به وتتخذه منهجاً للسير في طرق الحياة الوعرة.

كان المقهى يحمل طابع الدفء والهدوء، شعور لذيذ يبعث في نفس الزائر لدى دخوله لهذا المكان، بلوحاته الزيتية الصغيرة التي توحي بقدمها، وبعضاً من الصور الفوتوغرافية بالأبيض والأسود المحاطة بإطارات خشبية جميلة، فالبعض منها تعود لصاحب المقهى المتوفى منذ زمن بعيد، عندما كان في ريعان شبابه حينما كان في بلده الأم سوريا، وصور أخرى للشخصيات المتميزة التي كانت قد ارتادت المقهى في الماضي، إلى جانب أثاثه العربي البسيط، بوسائده المطرزة بالخطوط العربية المذهبة، وبعضاً من الأضواء الخافتة التي كانت تضيف رونقاً وسحراً خاصاً للمكان، بالإضافة إلى الأبخرة

المتصاعدة من أباريق الشاي وأكواب القهوة، وصوت الموسيقى الجميل الذي ينساب بعذوبة، ما بين أغاني فيروز في الصباح إلى القدود الحلبية في المساء، كانت ليلى سارحةً في أفكارها حينما قاطعها صوت النادل:

-آنستي تفضلي فنجان قهوتك

أفاقت ليلى من شرودها ونظرت إلى فنجان قهوتها وكأنها تنظر إلى صديق قديم فالقهوة صديقة عمرها، رافقتها منذ أن كانت في الثانية عشرة من عمرها، لاتزال تلك الأيام الخوالي من طفولتها الذهبية حاضرةً في ذاكرتها، تلك الأيام التي كانت تستيقظ فيها على صوت والدها يدعوها لاحتساء قهوة الصباح برفقته وبرفقة والدتها، صحيح أن القهوة ليست بالمشروب الملائم لطفل بعمر الثانية عشر، لكن يمكن في بعض الحالات أن يغض الأهل الطرف قليلاً.

كانت تهب مسرعةً لتلبي نداء والدها اليومي فتركض بخفيها الصغيرين إلى حديقة المنزل الأمامية، كانت حديقةً متواضعة ولكنها بنظر والدة ليلى جنة الفردوس، نظراً لما بذلته من جهد كبير في زراعتها وتجميلها، كانت الحديقة مزروعة بشتى أصناف الورد الجوري، فمنه الأحمر ومنه المخملي والأبيض بالإضافة إلى بضع خضروات مكونة من البندورة المحلية وبعضاً من الباذنجان الأسود والفليفلة الرومية، كانت الحديقة محاطة بسياج من شجيرات السرو والصنوبر، والتي كانت تملأ المكان بعبق رائحة عطرية نفّاذة، خصوصاً في الأيام الندية ذات النسيم المنعش، إلى جانب شجرة لبلاب

كثيفة كانت تمتد لتغطي واجهة المنزل الأمامية، إلى جانب بضع شجيرات زيزفون صغيرة ،كان هذا الجزء من اليوم هو الوقت المفضل لدى ليلى، فبينما كانت والدتها تحضر القهوة كان والدها يداعب خصلات شعرها المبعثرة تارةً، وتارةً أخرى يداعب وجنتيها الورديتين وكانت ليلى بدورها تمسك بأصابع والدها فتقبلها بحنان طفولي بريء، وحتى في عطلات نهاية الأسبوع والإجازات الصيفية ما كانت ليلى لتفوت على نفسها تلك الجلسة الصباحية العذبة، حيث كانت تستمع للأحاديث التي تدور على لسان والديها وعلى الرغم من أنها لم تكن تفقه الكثير من تلك الأحاديث، إلا أنها كانت تنصت باهتمام وفضول كبيرين لكل كلمة من كلمات والديها، كانت طفلة تختلف عن باقي الأطفال في مثل سنها، ولم يكن يخفى هذا الأمر عن والديها فقد لاحظوا ذلك من خلال تلك الجلسات الصباحية، فالتلاميذ عادةً كانوا ينتظرون تلك العطلات والإجازات بفارغ الصبر للحصول على قسط وافر من النوم والراحة، ويسعدون لتخلصهم من عادة الاستيقاظ باكراً للذهاب الى المدرسة، أما ليلى الصغيرة فقد كانت تثور ثائرتها فيما لو فوتت على نفسها قهوة الصباح مع والديها، ففي كثير من الأحيان كانوا يؤثرون ألا يوقظوها عندما تكون مستغرقة في نومها وذلك حرصاً على راحتها ورأفةً بها فضلاً على أنها لاتزال صغيرة في السن.

كانت عائلة ليلى عائلة بسيطة متواضعة، من الطبقة المتوسطة تسكن في قرية دفلة[1] الواقعة في ريف محافظة حماة في سوريا، فوالدها كان يملك أرضاً صغيرة يزرعها بمحاصيل متنوعة تبعاً للفصول الأربعة، كالقطن والبطاطا والفستق العبيد وقد كان يجني منها المال الكافي لتعيش أسرته حياة كريمة، كان والد ليلى والذي يدعى السيد وليد شخصيةً مرحة دمثة الخلق والمعشر، طويل القامة صاحب عينين خضراوين حاذقتين، كان رجلاً في أوائل الأربعينيات وعلى الرغم من سنه الصغير إلا أن الشيب قد بدأ يغزو شعره، وقسمات وجهه تحكي قصة معاناة وشقاء، فالتجاعيد قد غدت ظاهرةً على محياه، فكل خط من هذه التجاعيد تحكي قصصَ سنوات من العمل المتواصل الشاق، بحيث يخيل للناظر بأنه رجل في الخمسين من عمره.

كان الابن الأكبر في عائلة مكونة من شقيقين وثلاثة شقيقات، اضطر إلى أن يترك الثانوية لإعالة والدته وأشقائه الخمسة بعدما توفي والده بمرض السرطان، وقد كانت مدخرات العائلة قد أنفقت في سبيل علاج والده، الأمر الذي أوقع الأسرة في عوز الحاجة، فما كان من والد ليلى إلا أن يضحي بدراسته في سبيل إنقاذ عائلته من الجوع، وقد حزّ في نفسه كثيراً تركه مقاعد الدراسة، حيث بقي يعمل أجيراً في حقول المزارعين إلى أن تمكن أخيراً من تعلم أصول الزراعة، فبات يعمل في الحقل الخاص بعائلته، قضى سنوات وسنوات من العمل الدؤوب المتواصل، إلى أن كبر إخوته وغدا كل

[1] دفلة : اسم قرية متخيلة

واحد منهم مسؤولاً عن نفسه وعن حياته، وبعدما تزوجت أخواته الثلاث، كان العمر قد تقدم بالسيد وليد، وقد حان الوقت لأن يتزوج ويؤسس عائلة، وهنا تولت السيدة خديجة والدة وليد أمر تزويجه، الشيء الذي كانت تتوق إليه منذ زمن بعيد، فلم تدخر جهداً بهذا الأمر وقامت بالعديد من الزيارات وجولات البحث في بيوت القرية، وفي نهاية الأمر حسم القرار واختارت له توليب والدة ليلى زوجةً لابنها.

تنحدر توليب من عائلة سورية تركية، فوالدتها من مدينة أورفة التركية، بينما والدها من مدينة حلب، إلا أنهم انتقلوا للعيش في بلدة دفلة قبل أن تولد توليب، وقد كانت توليب تملك بشرة بيضاء، مع ذرات من النمش التي تزين وجهها وذات عينين زرقاوين بلون البحر تماماً كعينيّ والدتها، وشعر كستنائي جذاب، لذلك كانت ليلى تتقن اللغة التركية وتتكلمها بطلاقة وذلك بفضل والدتها وجدتها.

عندما تمت خطبة توليب كان عُمر السيد وليد خمساً وثلاثين عاماً، بينما هي كانت لاتزال في السابعة عشر، كان فارق العمر شاسعاً إلا أنه كان أمراً طبيعياً في البلدة، هناك حيث نجد مفارقات عمرية عجيبة، كتزويج فتاة في الخامسة عشر برجل في الأربعين مع الأسف كانت هذه الظاهرة جد طبيعية ومنتشرة انتشاراً واسعاً آنذاك، والسبب في ذلك هو البساطة التي يتمتع بها أهل البلدة، بالإضافة إلى افتقارهم إلى العلم والمعرفة، فقد كان الجهل هو السيد وهو المسيطر على عقول هؤلاء المحليين. وطبعاً كان زواجاً

تقليدياً بناءً على العادات والتقاليد المتبعة في البلدة، فلا وجود لقصص العشق والعاشقين، فقد كانت تلك القصص من المحرمات وأقرب الى الكبائر من وجهة نظر سكان البلدة.

في تلك البيئة الاجتماعية ولدت ليلى وترعرعت ولكن لحسن الحظ لم يملك والديها يوماً تلك العقلية المتخلفة، بل على العكس، على الرغم من عدم إتمامهما الدراسة فالسيدة توليب كانت من المتفوقين في مدرستها، لكنها أجبرت على ترك المدرسة عندما كانت في السادسة عشر تحت ضغط من أبيها، بحجة أنها تعلمت بما فيه الكفاية وقد أصبحت في عمر الزواج، وأن الفتاة في نهاية المطاف ليس لها إلا بيت زوجها، والعديد العديد من تلك الترهات الكارثية المتخلفة المعششة في الأدمغة وقد أصبحت جزءاً لا يتجزأ من النسيج الفكري و الثقافي للبلدة،كانت ليلى محظوظةً لامتلاكها تلك العائلة المنفتحة التفكير والمتحضرة اجتماعياً.

فوالد أنا السيد وليد وعلى الرغم من انقطاعه عن العلم والدراسة إلا أن شغفه بقراءة الكتب المتنوعة والروايات لم ينقطع، فقد كان يواظب على شراء كتب علم النفس والفلسفة والتاريخ، بالإضافة إلى العديد من الروايات العائدة إلى شكسبير وأجاثا كريستي وفيكتور هيجو وأنطون تشيخوف وديستوفيسكي وغيرهم الكثير، ولهذا الغرض قام بإنشاء مكتبته الخاصة، بتخصيصه زاوية من زوايا إحدى غرف المنزل كانت مكتبة كبيرة ذو مظهر بهي بلونها البني الجذاب، إذا كانت مصنوعة من خشب الجوز

المعشق بالصدف الأبيض على مبدأ الموزاييك التي تشتهر بها العاصمة دمشق، وبداخلها وضعت مجموعة من الرفوف التي كانت تزخر بالكتب بمختلف الأشكال والأحجام، المرصوفة بعناية إلى جانب بعضها البعض بغاية الدقة وقد ورثت ليلى عن والدها شغفها بمطالعة الكتب، إذ كانت تطلب دائماً من أبيها أن يشتري لها قصص الأطفال المصورة، وقد كان السيد وليد يسر كثيراً لطلبات ابنته بهذا الخصوص، فلم يكن يتوانى عن تلبية رغباتها، فكان يشتري الكثير من القصص ومجلات الأطفال، ولإثراء ثقافتها العلمية كان يشتري لها الكتب العلمية التي تقدم شرحاً مبسطاً بطريقة سلسة ومرنة كي يستوعبها الطفل بسهولة، وقد كانت ليلى طفلة متقدة في الذكاء وذات خيال خصب وذاكرة قوية، لكنها كانت وحيدة لوالديها لا تملك إخوة أو أخوات، ويعود السبب في ذلك إلى والدها السيد وليد، الذي كان بنظره إنجاب طفل واحد وتأمين حياة رغيدة له مع تلبية كافة احتياجاته ومتطلباته، خير من أن ينجب خمسة أطفال ولا يستطيع تأمين لقمة عيش لهم أو يعجز عن تلبية رغباتهم، وقد حاولت السيدة توليب بشتى الطرق أن تقنع زوجها بضرورة إنجاب طفل آخر فهي لا تريد أن تبقى ليلى طفلة وحيدة مثلها فهي أيضاً وحيدة لوالديها.

الفصل الثاني

كان صباحاً نيسانياً دافئاً، تتخلله بعضاً من النسمات الباردة اللطيفة، وشأنه شأن جميع الصباحات الاعتيادية، كانت عائلة السيد وليد مجتمعةً لاحتساء قهوة الصباح لكن بالنسبة إلى ليلى لم يكن نهاراً عادياً، إذ كان لديها ما تخبره لعائلتها

-أبي ... أمي لدي قرار مهم أود إخباركما به.

وهنا اكتسى وجه ليلى بحمرة الخجل، تماماً كلون الوردة الجورية في الأصيص الفخاري الموضوع على الطاولة أمامها

- قررت بأنني سأصبح كاتبة عندما أكبر.

تطلع والديها إليها باستغراب ودهشة، فأجابها والدها:

-ما الذي حملك على قرارك هذا ليلى؟

-أبي كما تعلم فهوايتي المفضلة هي المطالعة، ومعلم اللغة العربية دائماً يثني عليّ لأنني أجيد كتابة واجب التعبير بشكل جيد، وقد أخبرني بأنه يتوقع لي مستقبلاً زاهراً في مجال اللغة والأدب

فردت عليها والدتها التي لم يفاجئها كلام المعلم، فهي تعلم مقدار الموهبة التي تتمتع بها ابنتها، إذ كانت موهبة ليلى جليةً حينما كانت تساعدها في فروضها المدرسية

-حسناً عزيزتي إذا ما كانت هذه رغبتك فلم لا، سنغدو فخورين بك عندئذ.

أما والدها ولأنه حرم من التعليم كما ذكرنا سابقاً، ولأنه كابنته شغوف بالقراءة والكتب فقد سر سروراً بالغاً لسماعه طموح ابنته.

-بنيتي أسعدتني بكلامك، وأنا فخور بك لأنك عزمت على قرارك هذا، وفخور بالأكثر لأن الله رزقني بابنة لديها طموح وعزيمة بحجم السماء، أريدك أن تبقي هكذا دائماً، قوية وجريئة بقدر قراراتك، اعلمي جيداً بأننا نحن أنا ووالدتك لن نقف في طريق مستقبلك، بل على العكس سنساعدك قدر ما نستطيع لتبلغين هدفك وسنكون دائماً إلى جانبك.

كانت فرحة ليلى لا توصف عند سماعها لكلام والديها، وبما أنها قد تلقت التشجيع المناسب، قطعت عهداً على نفسها أن تعمل جاهدةً لتحقيق حلمها حتى ولو اضطرت أن تعمل المستحيل في سبيل ذلك وبأن تجعل والديها فخورين بها.

الذي يميز قرية ليلى حقاً هو نهر العاصي الذي يحيط بالقرية من ثلاث جهات، ذاك النهر المتمرد الذي يخالف بقية أنهار المنطقة من جهة جريانه، إذ كانت تنبع مياهه من الجنوب، ويتدفق ناحية الشمال خلافاً للأنهار الأخرى، ولهذا السبب كانت ليلى تعشق هذا النهر العاصي، ببساطة لأنه كان يشبهها بتمردها، وبمخالفتها للسائد في مجتمعها، فهي في قرارة نفسها لها أحلامها التي كانت لا تشبه أحلام أي أحد من أقرانها، وتدرك تماماً بأنها على موعد مع مجازفة كبيرة.

كانت ليلى تستغل أوقات فراغها فتأخذ إحدى قصصها المصورة، وتتسلل خلسةً من دون دراية والدتها، إذ كانت تعرف مسبقاً بأنها لن تسمح لها بالذهاب إلى النهر، فقد كانت العديد من الأمهات يمنعن أولادهن من الذهاب واللعب بالقرب من ضفافه، إذ كانت حوادث غرق الأطفال في نهر العاصي من الأمور الشائعة في البلدة الأمر الذي كان يودي بحياتهم، إلا أن ليلى كانت تذهب وتجلس في مكانها المفضل على صخرة كبيرة تغطيها الطحالب الجافة على مقربة من النهر، صحيح أن مياهه لم تعد بذاك الصفاء الذي كانت عليه من قبل، فليلى كانت تسمع على لسان جدتها وهي تتكلم عنه بنبرة أسف وحسرة، بأن عاصي اليوم لا يشبه العاصي القديم بشيء، فهذا الأخير قد فقد بريقه نتيجة للتقدم الصناعي والمخلفات الصناعية القادمة من المصانع القابعة على الطرف الآخر، على الأقل على مستوى القرية ، لكن على الرغم من ذلك كان المكان المفضل لدى ليلى، فعندما كانت تراقب كيف أن أشعة الشمس تدغدغ صفحة مياهه، فيضحك النهر ويتلألأ فرحاً ليرسل بعدها تموجات ذهبية تسلب اللب بفعل الريح التي بدورها أحبت أن ترسل تحيتها وتحي العاصي كفاً بكف، كان النهر صديقها العزيز الذي لا تمل منه، كانت تنظر باتجاهه سعيدة وحزينة بنفس الوقت للأوضاع المتردية التي وصل إليها، لكن إذا نظرنا إلى النصف الممتلئ من الكأس، فهو لايزال نابضاً بالحياة ليبرهن لنا بأنه نهر عنيد لا تقهره الظروف، متحدياً إياها ويخبرها بأنه مقصد الناس الأول في

نزهات الربيع، ومصدر رزق للعديد من صيادي السمك، أضف إلى ذلك بأنه لايزال ضاجاً بالجمال الخلاب.

كانت ليلى تحكي للنهر تفاصيل يومها، فتخبره بأسرارها وتطلعاتها وطموحاتها وقد زفت له قرارها الأخير بقولها:

- صديقي العزيز كيف حالك، أرى بأن منسوب المياه جيد هذه السنة، فالأمطار كانت وافرة على عكس السنة الماضية، أتعلم لم أستطع النوم جيداً ليلة البارحة، لا، لا تخف لم أكن مريضة، فحماسي كان ولا يزال مشتعلاً لماذا؟ إليك التالي: قررت في الأمس قراراً مهماً، قراراً سيغير مجرى حياتي، قررت بأن أصبح كاتبة، وستكون أنت منبع أسراري من الآن فصاعداً، لن أخبر أحداً بعد اليوم بما أفكر به وبما يجول في خاطري إلا أنت، حتى صديقاتي المقربات قررت ألا أبوح لهن أبداً بأفكاري، ألم أخبرك ما جرى ذلك اليوم؟ صحيح نسيت أن أخبرك، منذ يومين كنت أنا وصديقاتي جالسات في المدرسة نتجاذب أطراف الحديث أثناء الاستراحة بين الحصص الدراسية، كن يتكلمن عن حلمهن بالزواج، على العلم بأننا لانزال في السادسة عشر، وكن يتكلمن أيضاً عن فارس الأحلام الذي سيحقق لهن السعادة والراحة، وقتها يا نهري الجميل لم أستغرب كثيراً لقد كانت تلك ثرثرتهن المعتادة، فبحت لهن بسري الصغير عن حلمي في أن أغدو كاتبةً في المستقبل، لا تتخيل كم تعالت أصوات ضحكاتهن وسخريتهن وكأنني قد

ألقيت طرفةً على مسامعهن، فأجابت سعاد: ماذا !! كاتبة !!!! ومن يقرأ في هذه الأيام لابد أنك مجنونة.

فترد فاطمة بدورها: يا طفلتي الساذجة لنقل اتخذت قرارك هذا لكن السؤال الذي يطرح نفسه، هل لديك الموهبة لذلك، أو تظنين بأن كل من أراد أن يصبح كاتباً نجح في تحقيق مراده، فهناك كتّاب كثر عاشوا ودفنوا تحت التراب ولم يسمع باسمهم أحد، فأجبتها نعم أنا مؤمنة بحلمي وأدرك في قرارة نفسي بأن لدي تلك القدرة والموهبة الخاصة التي ستجعلني في يوم من الأيام كاتبة مشهورة، وما أدراك بأني لن أنجح هل قرأت ذلك على كفي أم اطلعت على الغيب.

وهنا تدخلت علا: حسناً وماذا عن الزواج؟ ألا تحلمين بالزواج من شاب وسيم ثري ينقذك من عبء الدراسة، وألا تتمنين بأن تصبحي أماً لأطفال يكونون سندك في الأيام وعونك عندما يتقدم بك السن.

هنا لم أحتمل الكلام السخيف أكثر، فانفجرت في وجوههن غاضبة، هل حقاً أقصى أحلامكن هي الزواج!! وماذا عن الطموح... ماذا عن تحقيق الذات ماذا عن المستقبل... هل سأكون من اليوم ربة منزل بهذه السن الصغيرة حتى آخر يوم في عمري، هل هذه هي الحياة الرغيدة بنظركن، إلى متى أحلامكن ستظل تافهة وسطحية ومحدودة الأفق، ألم يحن الوقت للخروج من قوقعة هذا المجتمع البغيض، أرجوكن ارتقين بأحلامكن قليلاً، يوجد الكثير في هذا العالم ما يستحق أن نعيشه وأن نشاهده ونجربه،

لماذا نبقي حالنا مقيدين بتلك الأغلال الاجتماعية، بينما خلقنا الله لنبدع ولنعمل ونستلذ بطعم الحياة. عندها نهضت مغادرة تاركةً صديقاتي مشدوهات من الكلام الذي تفوهت به.

عدت أدراجي إلى المنزل غاضبة وقد سألتني والدتي ماذا حدث فأخبرتها بما جرى، تنهدت أمي قائلةً وهي تربت على كتفي كي تخمد غضبي:

-عزيزتي ليلى لا تلقي باللوم على صديقاتك فهن وليدات هذا المجتمع، وأفكارهن نابعة من أفكار الأهل الذين هم بدورهم قد ورثوا هذا التفكير من أهلهم أيضاً. وهنا أجبتها: حسناً، إذا كان كذلك فلماذا إذاً تفكيري مختلف، مع إني وليدة هذا المجتمع أيضاً.

ابتسمت والدتي فعانقتني وهي تهمس في أذني:

لأنك مميزة يا عزيزتي وستبقين دائماً مختلفة، فأحياناً يكون التميز وحتى الاختلاف والسير على عكس التيار له ضريبته لذلك تحلى دائماً بالصبر والثبات، ألا تسمعين بأن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة، وأنت أساساً قد خطوت خطوتك الأولى وهي الجزء الأهم في الرحلة ألا وهي اتخاذ القرار.

الفصل الثالث

قاطع رنين الهاتف سيل الذكريات التي اجتاحت ذاكرة ليلى، أخرجت هاتفها المحمول، نظرت إلى اسم المتصل، فإذا هي صديقتها سيلين

-ألو

-ليلى... أيعقل هذا... أين أنت؟ إنها المرة الألف التي أحاول بها الاتصال بك

-عذراً سيلين لقد كان هاتفي مقفلاً ومنذ عدة دقائق فقط أزلت وضع القفل

-حسناً... لا بأس أين أنت الآن

-في مقهى ورد شان

-آه ... عجباً لك، إنك حقاً ستصيبينني بالجنون، لا أعرف ما الذي يعجبك بهذا المكان إلى هذه الدرجة، إذ أصبحت هذه عادة لديك، كلما أغلقت هاتفك أدرك على الفور بأنك في هذا المقهى

كانت سيلين صديقة ليلى وزميلتها في الشقة التي تقطن فيها، أما عن سبب استغراب سيلين بمحبة ليلى لذلك المقهى، فالذي لم تكن تعرفه سيلين بأن ليلى فتاة عربية، وبأنها كانت تتذكر رائحة بلادها كلما همت بالذهاب إليه، فليلى كانت قد كذبت على سيلين حينما أخبرتها بأنها فتاة تركية الجنسية من مدينة اسكندرون

-هيا سيلين هاتي ما عندك ما سبب اتصالك المتكرر لي

-هل نسيت أن اليوم هو عيد مولدك، وأنا مصرة على أن نحتفل بهذه المناسبة

-سيلين أرجوك لقد أخبرتك مراراً وتكراراً بأنني لا أحب هذا اليوم، ولا أطيق الاحتفال بعيد مولدي فلماذا هذا الإصرار كله

-هيا أرجوك هذه السنة فقط وأعدك في السنة القادمة لن نحتفل بهذا اليوم

-أعرف بأنك محتالة فكل عام تعدينني بذلك وما أن يأتي هذا اليوم حتى تثقبين رأسي بإلحاحك

-هههههه حسناً أعرف بأنني محتالة، هيا أطلنا الحديث كثيراً ما قولك إذاً أحتاج إلى الجواب

-يا لك من صديقة مشاكسة، حسناً سنحتفل مساءً لكن بشرط واحد

-ما هو ؟؟؟

-سنذهب الى البار، سنثمل ونرقص حتى ساعات الصباح الأولى

-هههههه حسناً يسعدني ذلك

-على الرغم من أن المال الذي بحوزتي كنت قد ادخرته لسداد أجرة الغرفة

-هيه دعك من هذه الأمور سندفع الحساب سويةً لا عليك

-حسناً ... اتفقنا إذاً

-نعم اتفقنا... أراك مساء

-إلى اللقاء عزيزتي

وهنا احتست ليلى ما تبقى من قهوتها ونهضت مسرعة مغادرة المقهى قاصدة منطقة الأسكودار.

كانت بحاجة ماسة لأن تمشي وتستنشق بعضاً من النسيم البحري المنعش، تلك كانت الوسيلة التي تتبعها ليلى لتهدئ من روع أعصابها وترتب ما تبعثر من أفكارها ولتقاوم موجات الحزن واليأس التي تجتاحها من حين لآخر.

كانت شمس الأصيل قد مالت للغروب خلف مسجد السلطان أحمد، وكان الرصيف البحري المحاذي للبحر لايزال غاصاً بالمارة والسياح، هنا تجد أصنافاً مختلفة من الناس، فتارةً ترى مجموعة سائحين برفقة دليلهم السياحي، وقد جلسوا على المقاعد الحجرية الممتدة بانتظام على طول الشريط الساحلي وهم يتناولون شطائر السمك التي تشتهر بها مدينة إسطنبول، أو قد نراهم جالسين في المقاهي المنتشرة في تلك المنطقة وهم يحتسون الشاي بالنعناع، بالإضافة إلى التقاطهم للصور التذكارية التي ستكون يوماً شاهداً على الأوقات الممتعة التي أمضوها، وتارةً أخرى ترى عاشقيَن بقمة العنفوان والشباب، وقد أمسك كل منهما بيد الآخر كعصفوري عشق متناغميَن فيتبادلان الحديث حيناً والقبل أحياناً أخرى، وقد تشاهد أيضاً امرأةً طاعنةً في السن قد وضع الزمن بصمته على وجهها المتهدل، تقوم بإطعام النوارس من فتات الخبز في يدها، فالنوارس جزءٌ لا يتجزأ من تلك اللوحة الفنية الرائعة لمنطقة الأسكودار، فما إن تطأ قدماك للمنطقة حتى تستقبلك أسراب النوارس المنتشرة في البحر والسماء وكأنها

ترحب بقدومك، وإذا كنت محظوظاً قد توفّق بمشاهدة نورس يلتقط سمكة من البحر فالنورس بطبيعته صياد بارع .

ضجيج المارة... أصوات ارتطام الأمواج بالصخور... بحر يبهر العين بزرقته وبامتداده على مد النظر... همسات العشاق.... أبواق السفن المحملة بالبضائع حيناً وبالناس أحياناً أخرى.

تلك كانت السيمفونية الموسيقية المفضلة لدى ليلى، فكل مكون من مكوناتها يعزف مقطوعته الخاصة، وفي تلك النغمات كانت تجد معنىً آخر للحياة.

مشت ليلى طويلاً ذلك اليوم، كانت تمشي وظلال الذكريات تسابق خطواتها ملقيةً عبئاً ثقيلاً على كاهلها، فيترجم ذلك العبء إلى صداع لا يحتمل، كانت بحاجة شديدة للذهاب إلى البار تريد أن تشرب لكي تنسى.

بعض الذكريات نحاول جاهدين ألا ننسى تفاصيلها الجميلة، ونحرص دوماً على تذكر تلك اللحظات، إما بسردها دائماً أمام أحبائنا أو بتوثيقها بالصور والفيديو أو الكتابة عنها في مذكراتنا، لكن شيئاً فشيئاً سننسى الكثير من تفاصيلها الصغيرة، أو حتى ننسى شعورنا الحقيقي يومها كأنها لم تكن، فبعض الذكريات مهما حاولنا تجاهلها لكن عبثاً لا نستطيع نسيانها، ويأبى عقلنا الباطن إلا أن يذكرنا بها، تلك الذكريات المطعمة بالألم والحزن والتي تقض مضاجعنا باستمرار، فننام معها ونستيقظ على أثرها، لتتغلغل في كياننا وتنهش من جسدنا ومن أيامنا، يقولون بأن الزمن

وحده كفيل بمداواة جراحنا ،لكن بالنسبة لليلى فهذا القول كان أسخف شيء سمعته في حياتها، فربما يكون الزمن هو البلسم والدواء لأوجاعنا، لكن لابد للجرح من أن يترك ندبةً، جراحنا التي لا نستطيع نسيانها بل نتناساها، ونحرص دوماً ألا تكون الندبة واضحة لمن حولنا، ينظرون إلينا فيقولون رائع كم نبدو مشرقين، لكنهم لا يعرفون بأننا قد استخدمنا كريم خافي للعيوب لتغطية تلك الندبة، تلك الندبة التي لابد وأن تظهر يوماً، حتى وإن كان بشكل غير واضح للعيان، لكن سيظهر أثرها في تصرفاتنا وانفعالاتنا ونظرات عيوننا الكسيرة، ومهما ضحكنا ومهما ابتسمنا لكن الندبة أبداً ظاهرة في لغة عيوننا تلك اللغة الأصدق من كل لغات العالم.

في تمام الساعة العاشرة مساءً، ذهبت كلاً من ليلى وسيلين إلى بار يناسب إمكانياتهما المادية المتواضعة، كان الجو خانقاً داخل البار، ورائحة النبيذ بأشكاله المتنوعة تغطي المكان، بالإضافة إلى روائح العطور المبالغ بها سواء أكانت عطور رجالية أو نسائية، وكان يغطي المكان سحابة دخان كثيفة مصدرها دخان السجائر الذي بحوزة المدخنين، وقد وقف خلف المشرب الذي تملؤه زجاجات النبيذ والتي كانت نصفها فارغة وإنما وضعت بغرض الزينة لا أكثر، شاب ذو قامة عالية، حليق الذقن، يرتدي أقراطاً في أذنيه، بتسريحة شعر غريبة، وقد كانت الوشوم تغطي معظم ذراعيه ورقبته .

كان باراً حقيراً إلى حد ما، تزينه المصابيح ذات الألوان الباهتة وكرة ديسكو دوارة متدلية من السقف من طراز السبعينات تبث ألواناً مختلفة وورق جدران لا يعرف اللون الأصلي له إذ كان قذراً إلى حد بعيد، وقد رتبت فيه الطاولات الصغيرة المدورة ذات الأرجل الطويلة بطريقة عشوائية مما كان يزيد من فوضوية المكان، ومع هذا كله كانت ليلى وسيلين ترتادانه كلما تيسر بعض المال بحوزتهما.

كان صوت الموسيقا الراقصة يصم الآذان، وحشود كبيرة من الشبان والشابات كانوا قد بدأوا بجولة رقص جنونية، طلبت ليلى وسيلين مشروبهما وهنا تكلمت سيلين:

-مسرورة جداً لقدومنا، ظننتك ستقلعين عن الشرب فاعتقدت بأنه لهذا السبب كنت رافضة القدوم إلى هنا والاحتفال بعيد ميلادك، صحيح على ذكر ميلادك عام سعيد يا عزيزتي، أتمنى أن تكون أوضاعك أفضل في العام القادم

-شكراً لك سيلين كنت بحاجة فعلاً للقدوم إلى هنا مع أنني كنت قد صممت على عدم الاحتفال بمولدي، أما عن إقلاعي عن الشرب فأنا لازلت عند قراري سأقلع عنه يوماً ما وسيكون قريباً جداً لذا لا تقلقي من هذه الناحية

-كم أنت مغرورة وغامضة ليلى ،أما آن الأوان لتخبريني بقصتك

-ليس غروراً عزيزتي، ولكنني كما أخبرتك تواً سأقلع عن الشرب قريباً جداً ،إضافة إلى أنه لايزال الوقت باكراً لأخبرك بقصتي أنا متأكدة بأنها ليست من النوع المفضل لديك

-ماذا ؟؟!! لازال الوقت باكراً !! نحن صديقتين منذ أكثر من سنتين أيعقل أنك لا تثقين بي إلى الآن ... حقاً مغرورة

-لا لا أنا أثق بك تماماً، لكن عندما يتحسن وضعي قليلاً سأخبرك بكل شيء وهذا وعد مني

-حسناً إذا ما دمت في النهاية ستخبرينني لا بأس هيا بنا نطلب كأساً آخر.

وبعد مضي قرابة الساعة كانت ليلى قد اقتحمت حلبة الرقص وهي ثملة تماماً مبعدةً من كانوا في طريقها بطريقة فظة، وأخذت ترقص بشكل هستيري مستغلةً كل عضلة من عضلات جسدها الممشوق، أما سيلين وقد أدركت من خلال نظرات صديقتها، بأنها كانت حزينة جداً في هذا اليوم، فلم تكن بمرحها المعهود بل كانت كئيبة منذ الصباح وحركتها خاملة على عكس النشاط التي اعتادته منها ،كانت ليلى تشرب الكأس تلو الآخر بيأس شديد، وبدت كالذي يحاول إنهاء حياته بالرقص المتواصل والكحول، وبفضل ملاحظة سيلين لحالة ليلى لم تشرب سوى كأسين حرصاً أن تبقى في وعيها، فقد علمت بأنها ستحتاج إلى مساعدتها لاحقاً ، وراحت تراقب الأخيرة التي كانت لا تزال تشرب وتمنع العبرات التي كانت تملأ عينيها من الانهمار.

وهنا تدخلت سيلين لإنقاذ صديقتها وتحدث نفسها ما بال ليلى اليوم

-ليلى... هيا لنذهب إلى المنزل... كفاك اليوم ستهلكين نفسك برقصك وشربك المتواصل

فضحكت ليلى ضحكة مرعبة

-إنهاء حياتي ؟؟!!! ومن قال لك بأنني على قيد الحياة، أنا جثة هامدة منذ سنوات يا عزيزتي، جثة قد نخرتها ديدان الانكسار والخيبة فغدت هيكلاً عظمياً متعفناً خال من نور الحياة

صعقت سيلين لسماعها لهذه الكلمات، لم تتصور يوماً بأن ليلى تلك الفتاة الرقيقة ذات الكلمات العذبة ، والتي كانت تغرس في نفوس الآخرين التفاؤل والأمل بالحياة وتحثهم على التشبث بالصبر والإيمان، أن تكون غارقةً في ظلمات اليأس والإحباط والحزن لكن سيلين لم تفهم لماذا، حيث أن ليلى كانت فتاةً انطوائيةً بعض الشيء، وكانت تتحاشى الكلام عن ماضيها كلما سألتها ما قصتها أو من أين أتت

-عزيزتي ليلى كفاك كلاماً أتعبت نفسك كثيراً هيا استندي على كتفي

أخرجت سيلين بشق الأنفس وبصعوبة بالغة ليلى التي كانت تترنح في مشيتها يميناً وشمالًا من أثر الكحول، وكلما كانت تميل بجسدها الثمل كانت سيلين تميل معها وأكثر من مرة كانتا على وشك السقوط في وسط الشارع، كانت ليلى لاتزال تضحك بصوت مرتفع وهنا أخذت تغني:

ماما ...ماما... يا أنغاما ... تملأ قلبي بندى الحب[2]

فقاطعتها سيلين مستفسرة:

ما هذه الأغنية أهي تراثية للأطفال لم أسمعها من قبل؟

وهنا عادت آنا إلى ضحكها المرعب، وفجأة أطلقت صرخة مدوية شقت سكون الليل كما يشق الرعد سماء يوم ربيعي جميل، فدفعت سيلين أرضاً وقالت لها:

-غبية لماذا تصرين على الاحتفال بيوم مولدي؟ لماذا تصرين على تذكيري بهذا اليوم المشؤوم؟ هذا اليوم الذي انقلبت فيه حياتي إلى جحيم، كان هذا اليوم هو اليوم الأخير لسعادتي وبعدها كتبت لسعادتي شهادة وفاة ودفنت سعادتي ودفنت أنا معها.

وبينما سيلين تنظر إلى ليلى نظرات ملؤها الخوف والحيرة، بدأت ليلى تصرخ بصوت مخنوق يائس أمي.... أبي .... مولدي هو يوم الفاجعة هل عرفت لماذا أكره هذا اليوم، أسمعت هو يوم الفاجعة أمي .... أبي ....

بدأت الدنيا تدور أمام عيني ليلى، وغدت أضواء الشارع تتراقص أمام عينها شعرت بأنها فقدت حواسها الخمس ولم تعد تعي الزمان والمكان فغابت عن الوعي وسقطت مغشياً عليها.

[2] ماما ماما يا أنغاما: أنشودة للأطفال لمؤلفها الشاعر سليمان العيسى كانت تدرس قديما" في المرحلة الابتدائية

الفصل الرابع

في الواحد من شباط من عام **2010** كان هذا اليوم هو عيد مولد ليلى الثامن عشر كانت قد غدت فتاة شابة حسناء تضج فتنة بقوامها الرشيق، وعيناها العسليتان اللتان تشعان ذكاء وفطنة، عادةً كانت ليلى في مثل هذا اليوم من كل سنة تحتفل بعيد ميلادها برفقة صديقاتها وعائلتها، إلا أن هذه السنة كان الأمر مختلف إذ لن تتمكن من الاحتفال بسبب اضطرار والديها للذهاب إلى مدينة إدلب.

نادت والدة ليلى لابنتها:

-عزيزتي ليلى نعتذر لعدم تمكننا من إقامة حفلة صغيرة لصديقاتك للاحتفال بعيد مولدك، فأنا ووالدك سنذهب إلى إدلب لزيارة أبا محمد فالرجل صديق أباك منذ أيام العسكرية، وهو الآن طريح الفراش نتيجة العملية الجراحية التي أجراها مؤخراً لظهره، ونحن يتعين علينا الذهاب للاطمئنان على صحته فالرجل وعائلته أناسٌ لطفاء وقد قاموا بزيارتنا عدة مرات، ألا تذكرين السنة الماضية عندما وقع والدك في مأزق مالي حرج لأن موسم القطن لم ينتج جيداً، حينها ساعدنا أبا محمد في تلك الضائقة المادية ولولاه كنا سنصبح بوضع لا نحسد عليه

-لا عليك يا أمي أنا لست حزينة طبعاً، فأنا لم أعد طفلة صغيرة، عائلة أبو محمد عائلة كريمة جداً وأنا أحبهم كثيراً وأرى أن زيارتهم أهم بكثير من عيد مولدي.

وهنا جاء والد ليلى:

-ليلى ابنتي هيا أغمضي عينيك يا حلوتي لدي مفاجأة صغيرة لك

-أحقاً يا أبي !! ماهي المفاجأة ؟؟، حسناً ،حسناً سأغمض عيني

أغمضت ليلى عينيها والفضول يكاد يقتلها، وما إن فتحتهما حتى أبصرت علبة مجوهرات مستقرةً في يدها، دهشت ليلى كثيراً لدى رؤيتها لتلك العلبة

-أبي ما هذه العلبة ؟؟

-هيا افتحيها لتري ما بداخلها

فتحت ليلى هديتها وإذ بها قلادة ذهبية على شكل زهرة بثلاث بتلات، وقد نقش عليها ثلاثة حروف، فالبتلة الأولى حفر عليها الحرف الأول من اسم ليلى، والبتلة الثانية الحرف الأول من اسم والدتها توليب، والبتلة الأخيرة تحمل الحرف الأول من اسم والدها وليد

اغرورقت عينا ليلى فرحاً بهديتها الثمينة

-أبي ... أمي ... لم يكن هناك داع لهذه الهدية أشكركما من صميم قلبي

فقامت ليلى بمعانقة والديها أحبكما كثيراً، دمتما لي سالمين وأتمنى أن تكونا فخورين بي في يوم من الأيام

كان مشهد عائلي رائع ينم عن حنان الأسرة المتماسكة المحبة لبعضها بعضاً، لكن من كان ليعلم بأن هذا العناق هو العناق الأخير لهذه العائلة الصغيرة ، وبأن المشهد سينقلب رأساً على عقب بعد ساعات قليلة فقط.

في تمام الساعة السابعة مساءً، قام والدي ليلى بإيصالها إلى بيت جدتها لتمضية الأمسية معها أثناء ذهابهم إلى إدلب، فقد رفضا اصطحابها معهم على الرغم من شدة الإلحاح والإصرار التي قابلتهم بها ليلى، إلا أنهما آثرا على بقائها بصحبة جدتها، فزيارتهما زيارة مريض ولن تدوم ساعتين على الأكثر، توجهت والدة ليلى إليها قائلةً:

-ابنتي أتمنى أن تكوني فتاة صالحة في غيابنا، لا تقلقي لن نتأخر بالعودة ، ففي تمام الساعة العاشرة سنكون هنا ،هيا عديني بذلك

فأجابتها ليلى متبرمة:

-كنت أود فعلًا مرافقتكما، لكن لا أعلم لم أنتما مصران بهذا الشكل على عدم ذهابي معكما ،حسناً على كل حال أعدك بذلك

-حسناً يا ابنتي هذا ماكنت أنتظر سماعه إنني فخورةٌ بك حقاً

ودعت ليلى والديها وكادت دمعتها أن تفضحها إلا أنها قاومت بشدة عدم البكاء لكونها لم تعد فتاة صغيرة لتبكي على فراق والديها، كما الأطفال لدى ذهابهم في اليوم الأول إلى الحضانة، لكنها لم تكن معتادة على الابتعاد عنهما ،وهنا نادتها جدتها للدخول فالجو كان شديد البرودة .

أمضت ليلى الأمسية برفقة جدتها وهي تستمع إلى أحاديثها التي لا تنتهي، عن ذكرياتها أيام الصبا والشباب، وبعض الحكايات التي حفظتها عن ظهر قلب فلا تزال تلك الحكايات نفسها تعاد منذ أن كانت ليلى طفلة صغيرة بعمر السنتين.

كانت ليلى حاضرةً بجسدها فقط لكن عقلها وقلبها بقيا مع والديها، فقد كانت شاردة الذهن تتصنع الاستماع والاهتمام لأحاديث جدتها، إلا أنها في الحقيقة لم تسمع كلمة واحدة، وتنظر بين الفينة والفينة إلى الساعة القديمة المثبتة على الجدار ومع كل دقة من دقات الساعة كان قلبها يدق شوقاً وقلقاً على أهلها، فقد مر أكثر من ساعتين ولم يصلوا بعد، بدأ القلق والرعب والأفكار السوداوية تجتاح مخيلتها ودفقات الأدرينالين كانت في تزايد مستمر، إلا أن النعاس أرخى بستائره على جفون ليلى على الرغم من المقاومة الشديدة التي أبدتها، لكنها كانت متعبة من الانتظار وخصوصاً أنهم كانوا في الشتاء بحيث كانت تمر أيامه رتيبة مملة، وأخيراً استسلمت لرقادها وأخذت تغط في نوم عميق، وهنا كان قطار الأحلام قد اصطحب ليلى في جولته .

رأت ليلى نفسها أمام جرف صخري شاهق مطل على بحر كبير، لم تعرف المكان إلا أنها كانت كئيبةً وحيدة، كانت تقف على أعلى الجرف وتوشك على السقوط وهنا امتدت يد خفية لم تتبين صاحبها نتيجة الضباب الذي كان يخيم على المكان، كانت هذه اليد قد سحبتها في اللحظات الأخيرة بكل قوة من ذراعها فتسببت لها بألم حاد.

استيقظت ليلى فجأةً من كابوسها الذي بدا مرعباً بالنسبة إليها، على صوت نحيب وعويل من الغرفة المجاورة، بدايةً لم تستوعب ماذا يحصل ظناً منها أنها لاتزال تحلم، ولكن الأصوات الممزوجة بالشهيق والبكاء أيقنتها بأنها

في الواقع وليس في المنام، في بادئ الأمر ظنت أن جدتها قد وقع لها مكروه، بالنظر إلى سنها المتقدم ومرض القلب الملازم لها، توقفت للحظات حائرة ماذا تفعل إذ أرعبتها الأصوات كثيراً، ترددت قبل الخروج من الغرفة لكنها استجمعت شجاعتها واتجهت إلى باب الغرفة، وما إن أمسكت بمقبض الباب لتديره حتى فاجأها إحساسٌ غريبٌ مخيف جعل أوصالها ترتعد وقلبها يخفق داخل صدرها المنقبض لدرجة شعرت معها بأن قلبها سيخرج من مكانه، وشرعت تفكر أيعقل أن يكون مكروه قد أصاب والديها، لا لا يعقل ذلك فتلك ليست المرة الأولى التي يذهبون فيها إلى إدلب ،لكن ماذا حقاً لو تعرضوا لمكروه، مرة أخرى شرعت تكذب تلك الأحاسيس بقولها لا يعقل وهذا أمر مستبعد، في مثل هذه اللحظات يسعى الإنسان إلى تكذيب مشاعره وأحاسيسه بكلمات تنم عن الرفض وعدم التصديق، ويحاول قدر الإمكان عدم الرضوخ للأفكار والمشاعر السيئة، بحيث يكون ما يخبرنا به حدسنا هو آخر الاحتمالات الممكن أن نتوقعها أو بالأحرى التي نرغم أنفسنا على عدم التنبؤ بها، ومع تكذيب تلك الأفكار والتخيلات أدارت ليلى مقبض الباب وخرجت من الغرفة، فإذ بالوجوه واجمةً صامتة، و بسرعة خاطفة انقطعت أصوات النشيج والبكاء، وكأن أحدهم قد ضغط على زر كتم الصوت في جهاز التحكم عن بعد، نظرت ليلى إلى تلك الوجوه بفزع، وجوهٌ شاحبة، مرهقة من أثر البكاء وعيون منتفخة حمراء، وشهقاتٌ مكبوتة بصعوبة بالغة، بعد التأمل الطويل في تلك الوجوه أخذت

تسترجع الاحتمالات التي دونتها منذ قليل في ذاكرتها، ولكن ما إن رأت جدتها وسط تلك الجمع من النساء حتى بادرت إلى استبعاد أولى احتمالاتها أو بالأحرى الاحتمال الذي كانت تأمل به، فقفز إلى ذهنها آخر احتمالاتها، ورأته جلياً أمامها، تجمدت في مكانها وحبات العرق بدأت تلتمع على جبينها، وهنا بادرت بالسؤال الى الحاضرين :

-ماذا هناك ؟؟ ماذا يجري !!

إلا أن أحداً لم يجبها ،كان الجواب الوحيد الذي تلقته هو الصمت، ولاحظت ليلى تغير سحنة الحاضرين لدى سماعهم لسؤالها، لكنها لم تأبه برغم ذلك، مستجمعةً شجاعتها وقوتها، طرحت السؤال الثاني مباشرة إلى جدتها:

-جدتي هل عاد والداي ؟؟

وكما السؤال الأول كان الجواب الحاضر هو الصمت، مع ملاحظة أن الوجوه قد غدت أكثر امتقاعاً، لم تحتمل ليلى ذلك الوضع وتمتمت في سرها:

-تباً لكم جميعاً.

كادت تنفجر من الغيظ والقلق، وكان صدرها يعلو ويهبط بسرعة بفعل خفقان قلبها الذي عاد إليها، وبأنفاس متقطعة وبأطراف مرتجفة مشت نحو عمتها وهزتها بعنف

-عمتي ؟! الآن ستخبرينني ماذا يحصل هنا

قالت ليلى تلك الكلمات بصوت مخنوق بالعبرات، والدموع تنهمر على خديها بغزارة

أرجوك يا عمتي أخبريني، قولي لي أن والديّ بخير، أخبريني أن والديّ لم يصبهما مكروه ، قولي لي بأنهما قادمان.

فبدأت عمتها بالبكاء والنحيب

-ليلى يا عزيزتي والداك توفيا، لقد تعرضا لحادث مرور مروع وهم في طريق العودة ، وفي الصباح سيتم تشييعهما

ومن هول الصدمة التي نزلت على ليلى كالصاعقة جثت على ركبتيها، خانتها قدماها فلم تعد تقوى على الوقوف، تمنت لو يغشى عليها، تمنت لو تغط في غيبوبة إلى الأبد، أو أن يوقظها أحدهم من نومها، باختصار تمنت أن تموت.

الجسد كما الحياة قد يخوننا إما في اللحظات الأشد حلكة أو في اللحظات الأشد سعادة ،فقد نجد طفلاً قد وعده والده بشراء دراجة هوائية فور بلوغه العاشرة وعند بلوغه العاشرة، وهو في أوج سعادته تأتي سيارة فتصدمه ليغدو عاجزاً عن المشي عندها لا يبقى للدراجة أدنى قيمة ،وقد نجد أباً ينهك جسده بالعمل المضني لشراء منزل لعائلته، وما إن يمتلك ذلك المنزل حتى يتم اكتشاف مرضه بمرض خبيث، فيقضي المرض بذلك على جسده وعلى حياة أسرته بنفس الوقت، وقد نجد شرطية كما في روايات غيوم ميسو، ما إن تمسك بخيوط الجريمة وتقف مباشرةَ أمام المجرم فتخونها قدماها وتسقط مغشياً عليها بفعل المرض في اللحظة الحاسمة، والذي حصل مع ليلى بأن كلاً من جسدها والحياة قد خاناها بنفس اللحظة،

وسددوا نحوها ضربةً قاصمة لظهرها، فالحياة قد تركتها بلا والدين وجسدها الآن يأبى إلا أن يبقيها بحالة وعي تام للأحداث التي تجري من حولها، رافضاً بذلك أمنية ليلى بفقدان الوعي.

بعد أن سمعت ليلى للكلمات التي انطلقت من فم عمتها، عادت فنهضت ثانيةً دون أن تنبس ببنت شفة، وانقطع صوت بكاؤها والدموع توقفت عن الجريان، مما أثار دهشة واستغراب الحاضرين، ثم توجهت نحو باب المنزل بانتظار المشيعين الذين يحملون جثامين والديها، و في أثناء طريقها سمعت همسات وتمتمات:

يا لليلى المسكينة .... طفلة سيئة الحظ ...قلبي مشفق على هذه الفتاة

لكنها لم تهتم لتلك الثرثرة البغيضة ،فآخر شيء كانت تتمناه كلمات الشفقة والمواساة السخيفة، جلست على عتبة الباب وماهي إلا ساعات قليلة، حتى وصل جمهور الرجال المشيعين وهم يحملون نعشين خشبيين وبداخلهما جثماني والديها، وما إن رأتهم ليلى حتى تراجعت لداخل المنزل مرتعدة الأوصال مرتجفة، دخل المشيعون، وبدخولهم انتشرت رائحة العود والبخور وغيرها من العطور التي يتم تعطير الميت بها قبل دفنه ،فانطلقت ولاويل النساء ونحيبهن، وبدأ الضرب على الوجه والجسد كدليل على المصاب الكبير، فعمة ليلى أغمي عليها لدى رؤيتها لهذا المشهد المهيب، وجدتها بدأت بالزحف على ركبتيها للوصول الى النعشين وبدأت بتقبيل جباه الميتين وهي تبكي وتندب، وعمتها الأخرى كانت قد جلست بجوار

والدتها كما فعلت بقية النساء للتخفيف من أثر المصيبة، أما ليلى فقد بقيت متجمدة في مكانها لا تستطيع الحراك والكلام، في تللك اللحظة قام بعض الرجال بإبعاد النساء ليفسحوا المجال لها لتقوم بتوديع والديها فسمعت عمها وجدها يحثانها على المجيء للوداع الأخير الأبدي، كانت ليلى محتارة ،تائهة ،ضائعة وسط تلك الجموع المنكوبة لا تعرف كيف تتصرف.

فتقدمت بضع خطوات باتجاه الجثمانين ثم تراجعت قليلاً من هول المشهد المهيب ومع الحث المتواصل استطاعت بشق الأنفس الوصول إلى النعشين، فرأت جثمان والدها المكفن بالكفن الأبيض كان الوجه شاحباً قليلاً، مع بعض الكدمات على أنحاء متفرقة من وجهه، وعلى الرغم من ذلك كانت ابتسامة صغيرة تعلو شفتيه التي تحول لونهما إلى اللون القرمزي الشاحب، فطبعت قبلةً على وجنتيه المتورمتين وهمست في أذنه: أعدك ستكون فخوراً بي سأشتاق إليك يا جرح قلبي ثم وبشجاعة كبيرة انتقلت إلى جثمان والدتها ،لم ترَ ليلى وجه أمها صافياً متورداً كما اليوم وكأنه هالة من نور، مع عصابة رأس بيضاء تغطي جبهتها، فقبلت وجنتي والدتها الباردتين وأيضاً همست لأمها :

أمي أعدك بأني لن أخذلك سأشتاق لكما كثيراً وليعينني الله على فراقكما

سادت جلبة بين المتحلقين حول ليلى وبدا التساؤل واضحاً على الوجوه:

ماذا تقول يا ترى ؟؟؟ ماذا همست لوالديها !!!

وهنا رفع المشيعون الجثامين باتجاه المقبرة، وما إن خرجوا من باب المنزل حتى دوت صيحة مرعبة مؤلمة موجعة أجفل لها الحاضرون والمشيعون

أبي .... أمي ....

ذاك كان صوت ليلى المفجوعة بوالديها، نهضت تريد أن تركض نحوهما

-أرجوكم دعوهم هنا... أتوسل إليكم لا تدفنوهما... والداي لم يموتا... والداي يستحيل أن يتركاني وحيدة... والداي وعداني بإقامة حفلة عيد ميلادي اليوم... وعدتهما سأصبح كاتبة... لماذا غادرا بهذه السرعة... لم يشاهداني بعد أحقق حلمي... علمت الآن لماذا لم يأخذاني معهما، لماذا يا إلهي؟ لماذا؟ لماذا؟

وما أن همت بالركض حتى أمسكن جدتيها وعماتها بها، حاولت ليلى بكل قوتها الإفلات من تلك الأيادي التي أعاقت حركتها

أرجوكم دعوني ... أريد اللحاق بوالداي ... أمي ... أبي ...

فاستسلمت وسقطت أرضاً، كان الجو بارداً ذلك اليوم، غزير المطر مع رياح قوية، وبسقوطها ابتلت من رأسها حتى أخمص قدميها بالمطر، وكان الطين قد غطى جسدها المرتجف، فقد كانت تعلم أنه ما من حيلة بيدها، فالأموات يغادروننا للأبد، ومهما صرخنا، ومهما بكينا ورفضنا القدر الذي كتب علينا إلا أننا نعلم تماماً أنهم لن يعودوا إلينا .

الفصل الخامس

-أبي ... أمي ...

بتلك الكلمات كانت ليلى لاتزال تهذي في نومها وتنادي لوالديها بعد أن قضت ليلة حافلة جداً ،ولكنها حزينة جداً

-ليلى... ليلى صديقتي هيا استيقظي ... ليلى ... أنا آسفة يا عزيزتي

كانت سيلين تحاول إيقاظها منذ فترة وجيزة، حيث أنها كانت تستعد للذهاب إلى عملها اليومي في مطعم محلي، كانت قد قررت ألا توقظها وستتكفل بأن تشرح لصاحب المطعم حالتها، وبأنها بحاجة الى الراحة اليوم ولن تتمكن من المجيء، لكن عندما سمعتها تتكلم في نومها قررت بأنه لابد أن يتم إيقاظها كي لا تبقى في نفس حالتها السابقة.

وبعد عدة محاولات منها، تنبهت ليلى إلى صوت سيلين بجانبها وإلى يدها التي تداعب جبهتها.

كانت ليلى تحاول فتح عينيها بصعوبة بالغة،كان المشروب قد أخذ مأخذه عندها وبلغت درجةً كبيرة من الثمالة، لحسن حظها بأن دوريات الشرطة كانت نادراً ما تتجول في تلك المنطقة لكانت قد وقعت في مشكلة كبيرة،كان حلقها جافاً كالأشواك والصداع يطرق صدغيها كما تطرق مطرقة الحداد على السندان، بعد عدة دقائق تمكنت ليلى من الاستيقاظ أخيراً، كان تفكيرها مشوشاً مضطرباً، تحاول أن تستعيد ما حدث البارحة فهي لا تعرف كيف وصلت إلى السرير ،لكنها لم تكن تتذكر أي شيء مطلقاً، فكل ما تتذكره أنها كانت ترقص كالمجانين، ولكن ماذا حصل بعد ذلك لم

تكن تعي شيئاً منه،كانت خائرة القوى وعضلات قدميها تؤلمها فقد استهلكت جل طاقتها بالرقص.

في هذه الأثناء كانت سيلين قد عادت من المطبخ، حاملةً معها صينية بلاستيكية بزاوية مكسورة، وقد أعدت ركوة قهوة كبيرة على الطريقة التركية التقليدية برغوة كثيفة لامعة تستلذ لها الأعين، فانتشر عبق رائحة القهوة الآسر في الغرفة، وعلى الرغم من أن الغرفة كانت بحال يرثى لها، بجدران متصدعة مزينة بخيوط العناكب وطلاء أبيض قد مال لونه للصفرة من فرط قدمه، بالإضافة إلى سقف مزخرف بخطوط العفن الخضراء بفعل الرطوبة، ذو زوايا عارية قد انقشر عنها الطلاء منذ أمد بعيد،كانت شقة متواضعة جداً تقبع في أحد الأحياء الفقيرة لمدينة إسطنبول، مكونة من غرفة واحدة ضيقة المساحة، تحوي سريرين صغيرين كئيبين يتوسطهما خزانة ملابس صغيرة وسجادة مهترئة قد بهتت ألوانها، إلى جانب مدفأة خشب قديمة هذا إن صح القول بأنها مدفأة، ذات هيكل حديدي صدئ فتبدو للوهلة الأولى بأن عمرها يقدر بخمسين سنة، وكانت تفتقد للشيء الجوهري الذي صنعت لأجله وهو التدفئة، فمهما وضعت ليلى وسيلين قطع الخشب الجافة والأغصان الصغيرة إلا أنها كانت تنشر حرارة على مسافة إصبع واحد ،الشيء الذي كان يضحكهما كثيراً، كما أنها كانت دائمة الأنين طوال فترة اشتعال الخشب بداخلها، فتبدو كامرأة عجوز تئن وتشكو من يد الزمن التي جردتها من قوتها وشبابها، ذاك الأنين كان مصدر إزعاج

لسيلين فلم تحبه يوماً، وتصفه بأنه مصم للآذان ويسبب الصداع، أما ليلى فكلما سمعت ذلك الأنين الحزين تذكرت الماضي وتذكرت طفولتها السعيدة، فكانت تشعر بأن المدفئة تشاطرها حزنها وتعاستها، فكلتاهما قد غدر الزمان بهما، إلا أن الفرق الوحيد هنا أن المدفأة قد أخذت نصيبها من هذه الحياة، ولم يعبث بها الزمن إلا بعد أن غدت عجوزاً متهالكة، أما بالنسبة لليلى فالوضع مختلف فغدر الزمان قد طالها وهي لم تزل في الثامنة عشرة من عمرها، بل وكانت تحسدها فكانت كلما رأت عمود الدخان الذي تبعثه المدفأة ويترك بصمته السوداء على الجدار كانت تقول لها

محظوظة، فأنت تعبرين عن رفضك لواقعك بعمود الدخان هذا، على الأقل يترك أثره على الحائط أما أنا فلا يسعني إلا البكاء بعيداً عن أعين الناس، وحتى بعيداً عن عين سيلين، فلا أحد يدرك معاناتي أو يسمع أنيني.

بالإضافة إلى تلك الغرفة كان هناك مطبخ مساحته أضيق من مساحة الغرفة بالكاد يتسع لليلى وسيلين سويةً عندما يعدان وجبات العشاء، وطبعاً يوجد حمام بباب شبه مخلوع تلعب به الرياح كما تشاء.

-صباح الخير يا عزيزتي، ها قد استيقظت أخيراً

-نعم، استيقظت بصعوبة والصداع لايزال يزعجني، لكن كيف وصلت إلى هنا، لا أذكر شيئاً مما حدث البارحة وكأن ذاكرتي قد مسحت، سيلين أخبريني كيف انتهى المطاف بي إلى السرير

فكرت سيلين لبرهة، كانت محتارة هل عليها أن تخبرها كيف كانت الليلة الماضية فهي لا تريد أن تعكر صفوها، لكنها مع ذلك قررت بأن تخبرها لعل ليلى تفتح لها قلبها وتخبرها عن حياتها قليلاً، فمن واجب الأصدقاء مساندة بعضهم في الشدائد والمحن، فابتدرت سيلين قائلة وهي تصب القهوة في الفناجين:

-ليلى... أنا آسفة جداً، أعتذر منك يا صديقتي لقد ضغطت عليك البارحة كثيراً بإصراري على الاحتفال بعيد مولدك، لم أكن أعلم أن لهذا اليوم ذكرى أليمة في قلبك، أرجوك سامحيني واقبلي اعتذاري، لكن لماذا لم تخبريني بهذا قبلاً لماذا لم تشاركيني أحزانك، فلولا حادثة البارحة ولولا ثملك الشديد الذي جعلك تفضي ما في قلبك لما علمت بذلك أبداً

نظرت إليها ليلى مشدوهة محاولة إخفاء علامات التعجب والصدمة من على وجهها

-سيلين عن ماذا تتكلمين، أنا لم أفهم ماذا تقصدين، عن أي ذكرى أليمة تتحدثين

على الرغم من أن ليلى فهمت كلام سيلين تماماً، لكنها حاولت المراوغة وتضليل الأمور قليلاً، فالوقت غير مناسب لتعلم سيلين بأسرارها الدفينة وبنفس الوقت لم تستغرب سيلين ردة فعل ليلى، فهي تعرفها جيداً عندما تراوغ، وتعلم جيداً بأنها متحفظة جداً بخصوص حياتها، وهذا ما شجعها

على متابعة الكلام فهي تريد أن تخرج صديقتها من عزلتها وانطوائيتها المفرطة

-أنا أقصد حادثة وفاة والديك بيوم مولدك، وأنك تعانين كثيراً بسبب تلك الحادثة

-حسناً إذاً، أعلن استسلامي، على ما يبدو كانت سهرة البارحة حافلة جداً، نعم أنت محقة لقد توفي والداي في عيد مولدي الثامنة عشرة، وبالرغم من مرور العديد من السنوات على وفاتهما إلا أنني إلى الآن لم أستطع التأقلم على حياتي الجديدة من دونهما، فأنا لم أنساهما للحظة واحدة

-لماذا لم تخبريني من قبل، أنا عاتبة عليك بهذا الخصوص فلم تفتحي لي قلبك يوماً

-أعلم بأني مخطئة عندما لم أخبرك بتلك التفاصيل، لكنني غير معتادة على الإفضاء بمكنونات صدري، ومع ذلك أنا أعتذر منك لأنني على ما يبدو قد سببت لك الكثير من المتاعب، وسأحاول من الآن فصاعداً أن أخبرك بكل شيء، هل اتفقنا

-حسنا جداً، اتفقنا وسيكون عقابك عسيراً إذا نكثت بوعدك، أما الآن فأنا مضطرة للذهاب إلى المطعم أكاد أن أتأخر، أخشى من أن السيد شكري قد يخصم من راتبي فيما لو تأخرت، وسأخبره بأنك مريضة وأنك في إجازة اليوم، حاولي أن تسترخي وتأخذي قسطاً من الراحة، عسى أن تستجمعي قوتك من جديد، لكن اسمعيني ليلى، أعلم بأن مصابك كبير وهذه الدنيا

ليست عادلة وقاسية علينا أحياناً، لكن على الأقل أنت تعرفين والديك ، وتعلمين ما هو حنان الأهل وماهي الحياة العائلية، ولديك ذكريات جميلة عن طفولتك وعن الأيام السعيدة التي قضيتها في كنف أسرتك، لكن انظري إلى حالتي مثلاً، لقد نشأت وقضيت طفولتي ومراهقتي بين جدران الميتم، لا أعرف أبي وأمي، لا أعرف هل هما متوفيان وتخلى عني أقربائي ، لا أعرف فيما إذا كنت فتاة غير شرعية وقام أبي بعدم الاعتراف بوجودي، أو أن أمي قد قررت التخلي عني، ربما لأنها كانت صغيرة في السن أو درءاً للفضيحة أو ببساطة لأنها لا تريد أن تكون أماً وتحمل مسؤوليتي على عاتقها، لذلك ففي مثل حالتك عليك أن تشكري الله لكونك قد عرفت نعمة الأهل، فالأمان، والحب، والعطف، كلها مجرد مصطلحات تعلمتها في المدرسة تبقى بالنسبة لي كلمات مجردة فارغة من معناها ،الكلمات تبقى كلمات يا ليلى فيما لو لم نشعر بها واختبرنا الشعور الكامن وراءها ومع الأسف لم أجرب تلك المشاعر يوماً، لكن أنت خبرتيها حتى ولو كان لفترة مؤقتة لكن المهم شعرت بها وأحسست بدفئها، أرجوك كوني قوية وتماسكي لتستطيعي المضي قدماً في هذه الحياة .

تأثرت ليلى للكلام الذي سمعته من سيلين ومست الكلمات شغاف قلبها، وهربت بعض الدموع من مقلتيها، فأمسكت بيد سيلين وقالت لها:

-سيلين صديقتي أشكرك من صميم قلبي لوقوفك إلى جانبي، سأتذكر كلماتك دوماً، أشكرك على كل شيء حقاً، فلطالما اعتبرتك بمثابة أختي الكبيرة

-يسعدني بأن تكون لي أختاً، هذا من واجبي، والآن على الأخت أن تطيع أوامر أختها الكبرى لذلك أرجو أن تنفذي الذي أخبرتك به.

-هههههه، يا لك من مشاكسة حسناً يا أختي سمعاً وطاعة، بالمناسبة أرسلي تحياتي واعتذاري إلى العم شكري

-سأبلغه سلامك لا تقلقي، وداعاً

في مطعم العم شكري القابع في منطقة السلطان أيوب، كانت كلاً من ليلى وسيلين تعملان نادلتين من الساعة التاسعة صباحاً حتى السادسة مساءً، يقضيان اليوم بطوله تلبيان طلبات الزبائن، وإحضار مختلف الأطباق إلى الموائد، كان مطعماً محلياً بسيطاً، يقدم المأكولات التركية التقليدية المشهورة، كالكفتة والكباب والسجق والأرز بالدجاج، كان دوام العمل طويلاً شاقاً، كانت ليلى وسيلين وعلى الرغم من التعب والإرهاق وألم الأقدام في نهاية اليوم كانتا سعيدتين بالعمل فهو السبيل الوحيد أمامهما لكسب المال، الأمر الذي يبعدهما عن الحاجة والديون، أما العم شكري فقد كان رجلاً عجوزاً في منتصف الستينات، رجل قصير القامة، سمين إلى حد ما، مقوس الظهر قليلاً، ودائم السعال، إلا أنه كان رشيق الحركة وفي نشاط دائم، وكان يساعده في العمل ابنه الوحيد بكر، الذي كان يكره العمل

كثيراً في المطعم ويتأفف دائماً من الروتين اليومي لجو العمل ، بالإضافة إلى أنه بليد الحركة و يبقى خاملاً على الدوام ، لم يكن في صفوف الدراسة فقد ترك المدرسة عندما كان في المرحلة الثانوية، وكما كان كسولاً في العمل كان كسولاً في المواد الدراسية أيضاً وقد رسب عدة مرات لذلك قرر ترك المدرسة أخيراً ، وكان قبل البدء في العمل إلى جانب والده قد تنقل في أكثر من مهنة، ولكنه كان في كل مرة يطرد لأسباب متنوعة فمنها الكسل والبلادة ،وكثيراً ما افتعل المشاكل إما مع الزبائن أو مع صاحب العمل ووصل به الأمر ذات مرة أن دخل السجن، بسبب ضرب صاحب الورشة الذي كان قد عمل بها لتصليح السيارات، بمفك معدني أدى إلى جرح كبير في رأس الرجل فدخل السجن على إثرها، مما اضطر والده المسكين أن يدفع كفالة مقابل خروج ابنه من السجن، فهو يبقى ابنه الوحيد في نهاية المطاف، ونتيجة لتلك الحادثة قرر العم شكري بأنه قد آن الأوان لأن يبقى ابنه تحت ناظريه، فأجبره على العمل معه في المطعم، ولم يلق بالاً لسخط ابنه وامتعاضه

وعندما لم تجدي محاولات بكر المتنوعة مع أبيه، كالصراخ وعدم الخنوع وأخيراً بالتوسل، كان لابد له من الاستسلام والنزول تحت رغبة أبيه،كان العم شكري أرملاً منذ وقت طويل فقد توفيت زوجته عندما كان بكر لا يزال في الخامسة عشرة، وقد تولى أمر رعاية ابنه بنفسه، والذي بسبب إشفاقه على ولده كونه أصبح يتيماً بعمر صغير قد تساهل كثيراً في تربيته، وقد كان حريصاً على تلبية جميع رغباته ولم يكن يرفض له طلباً ، الأمر

الذي جعل من بكر جشعاً، مستهتراً، قليل الاحترام ودائم الشجار مع والده، بالإضافة إلى انحرافه سلوكياً، فقد بدأ التدخين بعد وفاة والدته مباشرة، ولم تمض سنة حتى كان مدمناً على الكحول، وعندما تجاوز العشرين كانت له خليلات وعلاقات محرمة كثيرة، لم تخف تلك الأمور على والده الذي بدا حزيناً ومستاءً بنفس الوقت ، لكنه كان يعلم بأن الأوان قد فات ليصلح ما أفسدته يداه، كانت ليلى وسيلين تراقبان معاملة بكر للعم شكري، فيحتقرانه ويشتمانه في سرهما، فكيف يمكن لولد أن يعامل والده بهذه الطريقة، أما بكر فلم يكن يلقي بالاً للفتاتين، فهما في نظره مجرد عاملتين تحت إمرته، أليس المطعم ملك لأبيه، وقد كان في غياب والده لا يعمل شيئاً، فيجعل من نفسه رب العمل، ويبدأ بإلقاء الأوامر بشكل فظ عليهما وعلى بقية العاملين في المطعم، ولولا حاجة ليلى وسيلين للعمل والمال ولولا مكانة العم شكري في قلب ليلى بشكل خاص، كانت هي وسيلين قد تركتا العمل منذ زمن بعيد نظراً للإهانة والمعاملة السيئة من قبل بكر، وفي كل مرة تقرر سيلين ترك العمل كانت ليلى تحثها بأسلوب كلامها الجذاب العذب للعدول عن قرارها ، فتخبرها :

العم شكري إنسان لطيف، وطيب القلب، ويعاملنا بكل لطف واحترام وكأننا بناته، فنحن نعمل تحت إمرته وليس تحت إمرة بكر، وبكر هذا شخص تافه عديم الأخلاق من المؤسف أن يكون للعم شكري ولد عاق كهذا، لا عليك منه، اصبري فحسب.

-صباح الخير عمي شكري، آسفة لتأخري

-صباح النور عزيزتي سيلين، قلقت عليكما عندما تأخرتما، بالمناسبة أين هي ليلى

-أكرر اعتذاري سيدي، تأخرت بسبب ليلى، لقد تعرضت لوعكة صحية ليلة البارحة، واضطررت للبقاء إلى جانبها طوال الليل، وعندما أصبحت بحال أفضل وتأكدت بأنها بدأت تستعيد عافيتها قدمت إلى هنا، وهي بدورها ترسل إليك تحياتها واعتذارها لعدم تمكنها من المجيء اليوم، ستأتي غداً لا تقلق

-فليكن خيراً، أخفتني عليها

-لا تخف يا عمي، مجرد زكام وارتفاع في الحرارة لا أكثر

-أرجو أن تتماثل للشفاء، فتاة طيبة لا تستحق ما يحدث لها، أرسلي لها تمنياتي بالشفاء العاجل، ليلى غالية على قلبي وكما أنت طبعاً، ولكنها تبقى من رائحة الحب والماضي

تطلعت إليه سيلين دهشة، لكنها لم تشأ أن تستفسر من العم شكري فهي لا تريد أن تحرجه بسؤالها عما يقصد، وهو بدوره أطلق تنهيدة حزينة.

لذلك عزمت على أن تسأل ليلى في المساء، وبينما كانت تحدث نفسها، دخل بكر وبيده صينية تحوي أطباقاً من الطعام، فنظر إليها نظرة تعجرف واستنكار:

-هيه ... يا أنت لماذا كل هذا التأخير

-ليس من شأنك أيها الفتى المدلل

تجاهلت سيلين كلام بكر الفظ، ودخلت لترتدي ثياب العمل وتباشر عملها المعتاد.

نبضات قلب متسارعة ... ضيق في التنفس ... غثيان ودوار ...

كانت آنا قد حشرت نفسها في زاوية الغرفة وهي تتنفس بصعوبة، وحبات العرق الباردة بدأت تلتمع على جبينها ،فقد عادت الأعراض إليها مجدداً، بدأت آنا تفرك صدغيها يميناً وشمالاً طاردةً عنها الأفكار والتهيؤات وتقول لنفسها:

يا إلهي ليس مجدداً، اهدئي ليلى، كل شيء على ما يرام لن تموتي الآن ... لازلت صغيرة على الموت، فيجيبها صوت من داخل رأسها، لكن ليلى الموت لا يعرف الصغير أو الكبير برأيي كلامك ليس منطقياً، لا، أنا لا أحتضر، لست مريضة صحتي في أحسن حال، لا أحد يعرف متى يموت، أنا أتوهم كالعادة، لا يوجد شيء من هذا القبيل، تلك التخيلات لن أنجرف وراءها مجدداً، تباً ... وسواس لعين، وسواس لعين، فليذهب إلى الجحيم ظننت أنني انتهيت من هذه الآفة، آفة لعينة.

ذاك كان سرها الثاني لليلى، ذلك السر الذي لم يعلم به أحد، سر أبت أن تفصح عنه أو تعترف بوجوده، سر تخاف حتى أن تحدث نفسها به، وتتجاهل أعراضه باستمرار، فالذي لم يعرفه أحد ولا حتى سيلين، وعلى الرغم من أن ليلى عانت من أعراضه أمامها أكثر من مرة لكنها حاولت جاهدةً إخفاء

اضطرابها، وسيلين بدورها لا تعلم بوجود مرض يدعى وسواس الموت الذي هو أحد أنواع الوسواس القهري، كانت تظن دائماً بأن صديقتها متعبة فحسب، الحقيقة بدأ هذا المرض مع ليلى بعد وفاة والديها ، وكلما كانت تتذكر حادثة والديها تعود إليها تلك الأعراض، والذي حصل معها في البار أدى إلى عودته مجدداً، فقد ظنت ليلى أنها شفيت منه بسبب انشغالها بالعمل، وقد مر زمن طويل على آخر مرة هاجمتها تلك النوبات. فنهضت قاصدةً المطبخ، علها تجد بعضاً من البيرة في البراد، وبالفعل لحسن حظها كانت لاتزال عبوة واحدة فقط، وبدأت بالشرب، في الواقع هذه حكاية أخرى، حيث بدأت قصة ليلى مع الكحول بسبب مرضها ذاك، ففي إحدى المرات هاجمتها أعراض الخوف والرهاب في منتصف الليل، وكانت لاتزال حديثة العهد بالسكن مع سيلين، يومها بدأت بالبحث عن قهوة أو أي نوع من الأعشاب المهدئة كالبابونج أو اليانسون، لكنها لم تجد أياً منها، وكانت سيلين قد صبت بقايا بيرة في كأس زجاجي، فظننته ليلى عصيراً آنذاك فهي كانت تبحث عن أي شيء مهما يكن. على كل حال فهي لم تكن على دراية بتلك الأمور، فشربت الكأس دفعة واحدة، وكادت أن تتقيأ من الطعم اللاذع الذي بات في فمها، وبدأ رأسها يدور ويدور، لكنها مع ذلك شعرت بحال أفضل، ونسيت تماماً مشكلتها، وفي اليوم التالي سألت آنا سيلين عن اسم ونوع ذلك الشراب العجيب الذي ساعدها على نسيان

اضطراباتها لبعض الوقت، وعندما أخبرتها سيلين على أنه بيرة اتسعت حدقتا آنا وفغرت فاهها:

ماذا ؟؟؟!!! بيرة !!!!

كانت ليلى تعلم بأنها ارتكبت خطأً جسيماً وذنباً لا يغتفر، فالبيرة أو الكحول كما هي محرمة في مجتمعها، محرمة في دينها أيضاً، قاومت بشدة عدم الرجوع مرة أخرى إلى الشراب، وحاولت مرات ومرات الإقلاع عنه، ولكن عندما كانت تهاجمها تلك النوبات، بالشراسة التي كانت تعجز فيها من السيطرة عليها، فتسقط حصون ليلى المنيعة، ويسقط معها كل عهد وقسم أقسمته بعدم الرجوع إلى ذاك الحل الذي كان يدمرها ويدمر جسدها رويداً رويداً، فتعود وتشرب من جديد، وشيئاً فشيئاً أصبح عادة من عاداتها الأساسية.

في المساء ما كادت سيلين تنتهي من عملها حتى عادت بسرعة البرق إلى المنزل، تتحرق فضولاً لتسأل ليلى عن قصة العم شكري، وما الذي كان يقصده عندما ذكر بأن ليلى من رائحة الحب والماضي، أوليست ليلى في نهاية الأمر مجرد نادلة في مطعمه.

-ليلى ... عزيزتي أين أنت

-أنا هنا سيلين

-هيه ... أرى بأنك بحال جيدة، لكن لمَ كل هذا العدد من عبوات البيرة، إياك أن تخبريني بأنك أمضيت نهارك كله بالشرب، أوه يا ليلى هوّني عليك أرجوك

-هيه سيلين لا تبالغي، على كلٍ دعك من هذا الآن، أخبريني كيف كان العمل اليوم، وكيف حال عمي شكري، اشتقت له كثيراً

-العمل كما هو لا شيء جديد، زبائن وأطباق طعام طوال الوقت، بالإضافة إلى ثرثرة بكر المعهودة، وبالنسبة للعم شكري فقد قلق عليك كثيراً عندما أخبرته بأنك مريضة

-عمي شكري إنسان ندر من أمثاله هذه الأيام، أحبه كثيراً

-نعم أنت محقة، لكنني أتساءل أحياناً لماذا يهتم بك كثيراً، أحياناً أشك بأنه والدك، ولكنه اليوم قال جملةً أثارت فضولي، لقد أوصاني بكِ، وقال عنك بأنك من رائحة الحب والماضي، هلّا قلت لي ماذا كان يعني بكلامه هذا، لكن من الآن أخبرك لا أريد مراوغتك المعتادة

-هل قال هذا حقاً، قلب هذا الرجل قطعة من الذهب الخالص، لم أستغرب من كلامه، وبما أنني وعدتك ألا أخفي عنك شيئاً، سأخبرك ما القصة، ولكن بشرط واحد، هذا سر بيني وبينك، وإياك أن تقومي بأي تلميح أو تصرف أمام العم شكري كي لا يعرف بأني أخبرتك، فمثل هذه الأمور تبقى أموراً شخصية وعلينا احترام خصوصية الرجل.

-حسناً هذا وعد مني

وبالفعل بدأت ليلى بسرد قصتها مع العم شكري، وطبعاً مع إخفاء بعض التفاصيل المتعلقة بموطنها الأصلي.

الفصل السادس

كان قد مضى أسبوع على وفاة والدي ليلى، وكانت الناس لا تزال تتوافد على بيت جدتها للقيام بواجب العزاء، وكانوا يواسون ليلى بمختلف الكلام الذي يقال عادةً في مثل هذه المناسبات، فيما كانت هي تهز برأسها فقط شاكرة دون أن تتفوه بكلمة، فقد قررت أخيراً أن تتقبل فاجعتها بصمت وصبر، ولكنها مع ذلك غدت إنسانة مختلفة

إنسانة لا تشبه ليلى القديمة بشيء، فعيونها كانت معلقةً دائماً بالسماء والنجوم، شاردة الذهن، وكأن روحها كانت تطوف في عالم آخر، عالم خاص بها وحدها حيث لا حدود للزمان والمكان فيه، ويوماً عن يوم كانت تزداد نحولاً وشحوباً، فكما فقدت شهيتها للطعام كانت قد فقدت شهيتها للحياة، لكنها ومع ذلك قررت أن تقف على قدميها من جديد، ورأت أن تسال جدتها فيما إذا كانت تستطيع العودة إلى المدرسة:

-جدتي ... هل تسمحين لي بالذهاب إلى المدرسة، آن الأوان كي أعود إلى الدراسة فقد فاتني الكثير

فنظرت إليها جدتها نظرة غضب واستنكار، نظرة أخافت ليلى:

-ماذا ؟؟؟ عن أي مدرسة تتكلمين، يا لك من فتاة عديمة الإحساس، هلّا أخبرتني كم مضى على وفاة والديك

تفاجأت ليلى بالأسلوب الذي قابلته بها جدتها وكادت أن تبكي لحدة كلامها، فلم تعتد أن يكلمها أحد بهذا الأسلوب الجارح:

- مضى أسبوع يا جدتي

-هاا ... ما دمتي تعلمين بأنه أسبوع فكيف تجرؤين إذاً على طلب مثل هذا الطلب

لا يوجد مدرسة حتى تمضي أربعينية والديك، هل كلامي مفهوم

-ماذا ؟؟؟ أربعينية ؟؟؟ لكن يا جدتي ما الفائدة من انتظاري حتى ذلك الوقت، هل سيعود والداي إلى الحياة فيما إذا أنا انتظرت؟ لا فائدة من الحزن يا جدتي

وهنا قاطعتها جدتها بحدة أكبر:

-اسمعيني لقد بدأ صبري ينفذ، ماذا سيقول الناس عنّا إذا سمحت لك بالذهاب، سيقولون بأننا غير مكترثين لوفاة والديك وبأننا نسيناهم من الآن، لدينا سمعة أريد أن أحافظ عليها

-وما شأننا بأحاديث الناس، فكلام الناس لا ينتهي، أنا لا أهتم لهم أو لكلامهم فليتكلموا كيفما شاؤوا، هذا أمر يخصنا نحن ولا يحق لأي أحد التدخل في أمور حياتنا

-قلت لك لا تجادليني أكثر، انتهى النقاش، نفّذي فحسب

وهنا انصرفت السيدة خديجة تاركةً خلفها حفيدتها تنشج بالبكاء، في النهاية انصاعت ليلى لأوامر جدتها على مضض، فقد كانت مجبرة لإطاعة الأوامر، ولكنها حارت في موقف جدتها ، وكأنها تتعرف إليها للمرة الأولى، لا تدري هل هذه هي جدتها فعلاً، أم أنها تتصرف بهذه الطريقة كرد فعل إزاء موت فلذة كبدها ولا تزال تحت وقع الصدمة، وربما كانت هذه حقيقة

طباع جدتها وكانت هذه الحقيقة غائبة عنها، لاسيما بأن زياراتها إلى بيت جدتها كانت قليلة جداً، فلطالما كانت السيدة خديجة قاسية القلب قليلاً، قوية الشخصية، وتكره البنات كرهاً شديداً، وهي من أصحاب العقول المتحجرة القديمة الذين مبدأهم في الحياة هم البنات إلى الممات، ولا يؤمنون بتعليم الفتيات وتثقيفهن، متعللين بأن الفتاة مهما تعلمت ومهما علت رتبتها في المجتمع فمآلها إلى بيت زوجها، أم أن حقاً المواقف تكشف حقيقة الإنسان كما يقال، ولكن مع ذلك فقد توقعت ليلى معاملة خاصة لها، لاسيما وأنها غدت يتيمة بلا أب وأم، فهي تبقى ابنة ولدها المتوفى وجزء من روحه، ولكن مع الأسف أدركت بأنها مخطئة وخاب ظنها كثيراً من أقرب الناس بالنسبة لأبيها .

وهكذا توالت الأيام عصيبة على ليلى، وخاب ظنها بكل من حولها، وأدركت حقيقة من ادعوا وقطعوا وعوداً أيام العزاء بأنهم لن يتركوها وحيدة، وبأنهم سيعملون على راحتها وتأمين جميع مستلزماتها، وسيتكفلون بمصاريف تعليمها، وبأنها ستكون واحدة من أبنائهم، لكن كل تلك الوعود والكلام المنمق كانت مجرد أكاذيب وكلام في الهواء للتخفيف من ألمها، وكان من الأفضل بالنسبة لها لو أنهم لم يتكلموا أبداً ،فجميعهم كانوا يسألونها فيما إذا كان ينقصها شيء، لكن أياً منهم لم يفكر أن يحضر لها هدية صغيرة للتخفيف من وطأة ألمها، أو يهبوها بعضاً من النقود ،فهي أدرى بما تحتاجه، والكل كان يسألها هل الثياب التي لديها تكفيها ، لكن

لا أحد خطر بباله أن يجلب لها ولنقل مثلاً وشاحاً، والكل كان يسألها هل هناك طعام معين تشتهيه ، لكن أبداً لم يقم أي أحد بدعوتها لتناول طعام الغداء أو العشاء برفقة عائلته، لم يعلموا بأن والديها قد رباها على عزة النفس والكبرياء ، ذلك الكبرياء الذي يمنعها من طلب أي شيء ولو كانت بأمس الحاجة إليه ، فكرامتها من أسمى الأشياء بالنسبة لديها وهكذا فإن كل خيوط الأمل التي جعلوها تتمسك بها تبينت فيما بعد بأنها خيوط عنكبوت واهية والتي بنسمة هواء تتقطع وتسقط، الأمر الذي جعلها تتألم أكثر وأكثر، كانت لا تزال مبتدئة في الحياة ، هشة كهشاشة ندف الثلج في صبيحة الميلاد ، وكان الفقدان واليتم أولى دروسها ، كطفلة تعلمت لتوها أول حرف في الأبجدية، فكما الأبجدية سلسلة من الحروف لم تكن تعلم أن الحياة عبارة عن سلسلة من الصفعات الموجعة، وهكذا كانت قد غدت منسية من قبل الجميع، كدمية بات مكانها على الرف جانباً، فنسيها صاحبها ونسيها الزمن، وأصبحت تعلوها طبقة غبار سميكة، ففقدت بريقها وألوانها الزاهية، لتغدو فيما بعد شاحبة كئيبة بألوان باهتة، لقد حاولت جاهدة أن تعتاد على حياتها الجديدة ولكن الأيام لم تزدها إلا مزيداً من الخيبات، باتت تشتاق لكل تفاصيل حياتها القديمة ، حضن أبيها وحنانه، للقهوة والجلسات الصباحية، لدفء الثياب التي كانت تحرص والدتها على وضعها بجانب المدفأة أيام الشتاء الباردة كي ترتديها عند انتهائها من الاستحمام حرصاً على وقايتها من الإصابة بنزلات البرد، تلك التفاصيل

البسيطة كانت توجع ليلى في الصميم والآن أدركت قيمتها ، أدركت ما معنى أن يكون للإنسان كتف يتكئ عليه في محنه وحتى في أيامه العادية ، الآن أدركت أنه من بعد حب الوالدين لا يوجد حب ومن بعد دفء حضن الأم لا يوجد دفء، وأن العاطفة الأصدق هي العاطفة التي يغدقها الأب والأم على أبنائهم .

بالإضافة إلى كل ذلك هو وجود تلك الفجوة العميقة من ناحية الأفكار ووجهات النظر ، فعندما كانت تجتمع بعض النسوة في بيت جدتها وعندما كانت تدور الأحاديث المتنوعة كانت ليلى تحاول أن تنخرط معهن وتشاركهن في الكلام والنقاش، وبالطبع فإن أفكارها لم تكن تلاقي استحساناً سواء أكان من جدتها أومن قبل الأخرين، وفي كل مرة عندما تنفرد جدتها بها تؤنبها لما تفوهت به، وأمرتها إما أن تتكلم كلاماً معقولاً أو أن تلتزم بالصمت، ومن هنا أصبحت ليلى تخاف الكلام والتعبير عن وجهة نظرها، فلم تعد تعرف ما الكلام المناسب الواجب عليها قوله والإدلاء به وهل عليها أن تتكلم أم لا، فتزعزعت ثقتها بنفسها لدرجة كبيرة، فآثرت بعد ذلك أن تجلس بمفردها وعدم الجلوس مرة أخرى مع مثل هذا النوع من الأناس الثرثارة، وشيئاً فشيئاً راقت لها فكرة العزلة والوحدة، ورأت أنه من الأفضل لها أن تبقى منعزلة عن العالم المحيط بها، فبهذه الطريقة تحمي نفسها من التهكمات والكلام الذي يجرح مشاعرها والذي لطالما كان من حولها يتفوهون به جزافاً بدون أي احترام أو اعتبار لمشاعرها .

بانقضاء أربعينية والديها، استيقظت ليلى باكراً استعداداً للذهاب إلى المدرسة وفيما كانت ترتدي ملابسها، قدمت إليها جدتها:

-ليلى حفيدتي العزيزة أراك ترتدين ثياب المدرسة

-نعم يا جدتي، فالأربعينية انقضت وأنت أخبرتني باني أستطيع العودة إلى المدرسة بانقضاء تلك المدة

فسعلت جدتها سعلة مصطنعة، وأخذت تشكو:

-نعم أذكر ذلك ولا زلت عند كلامي لك، لكنني اليوم مريضة، إنني أسعل من الصباح، أخشى بأن البرد قد أثّر في جسدي العجوز، وأصبت بالزكام، أرجوك ابقي اليوم إلى جانبي لرعايتي، فأنا امرأة مسنة تحتاج للرعاية، وأنت حفيدتي أليس كذلك، ومن واجبك رعايتي اليوم

فزفرت ليلى زفرة مكبوتة لم تلحظ لها جدتها

-نعم جدتي أنا حفيدتك، لكن ماذا عن المدرسة

-أرجوك يا ابنتي، فلا يوجد في المنزل سواك، والمدرسة لا تقلقي غداً تذهبين إليها

راود ليلى شعور بأن جدتها تتمارض، فلا يبدو عليها أمارات المرض كما تدعي، لكن لم يكن أمامها إلا القبول برعايتها، فجدتها تبقى جدتها في النهاية

-حسناً جدتي سمعاً وطاعة

وبالفعل لقد صدق حدس ليلى، فبعد مضي بضع ساعات حرصت من خلالها على الاهتمام بجدتها، حتى عاد النشاط والحيوية إلى جدتها، واختفى سعالها، وبدت صحتها في أحسن حال، لم يعجب هذا الوضع ليلى ، فقد خافت من تكرار تلك الأعذار واختلاقها كل يوم، فهذا يؤدي بالتالي إلى المزيد من الغيابات المتكررة عن المدرسة، ولم تعرف كيف تتصرف مع جدتها ذات المراس الصعب.

وفي المساء حضر عم ليلى لزيارتهما ، ولكنه رغب في أن يتكلم مع جدتها على انفراد في غرفة أخرى ، وحرصاً على ألا تشعر ليلى بأي شيء مريب ، طلبت جدتها منها أن تغسل الأطباق في المطبخ وبعدها تحضر لهما الشاي ، لم تدرك ماذا يدور بين جدتها وعمها ، فهي على سذاجتها التي لازالت كسذاجة الأطفال ظنت بأن عمها يريد التكلم مع جدتها من أجل شؤون الأرض والزراعة ، لكنها عندما ذهبت إلى المطبخ وأرادت أن تحضر الشاي تذكرت بأن السكر قد نفذ من الصباح وأرادت أن تسأل جدتها إذا كان هنالك المزيد منه في المخزن الذي يحتفظون فيه عادة بالكميات الفائضة من المواد الغذائية والمنظفات ، وما إن اقتربت من الغرفة حتى سمعت جدتها وعمها يتكلمان بصوت منخفض جداً أقرب منه إلى الهمس ، استطاعت ليلى بصعوبة التقاط بعض الكلمات وفهم مغزى الحديث الدائر بينهما :

-نعم نعم ... اليوم أيضاً لم تذهب إلى المدرسة، لقد كذبت عليها وتظاهرت بأنني مريضة

-حسناً يا أمي، جيد جداً، لأن العريس المتقدم لخطبتها عاد اليوم إلى القرية لقد استطاع أخيراً أن يأخذ إجازة، فكما تعلمين لم ينه العسكرية بعد، وهو وعائلته مستعدون لأن يتقدموا لخطبتها رسمياً منا، وهم الآن رهن إشارتنا ينتظروننا لكي نحدد لهم موعداً للقدوم

-حسناً ... حسناً يا بني، لكنني خائفة من ردة فعل ليلى، أنا متأكدة بأنها ستجن عندما أخبرها وستتسبب لنا الكثير من المتاعب، إنها فتاة مدللة زيادة عن اللزوم، رحم الله ابني وغفر له، لا أدري لم كل هذا الدلال الزائد الذي عودها عليه، إضافة إلى ذلك أفكار هذه الفتاة لا تعجبني بتاتاً، لكن مع هذا دعهم ينتظرون يوماً آخر، أريد أن أمهد لها الموضوع

-لا عليك يا أمي، ستوافق لا تقلقي، وفي حال رفضت سنرغمها على القبول بالتالي بماذا ستنفعها دراستها تلك، هي الآن تشكل عبئاً علينا، آن الأوان لتزويجها فهي لم تعد صغيرة، افترضي يا أمي وطبعاً بعد عمر طويل أنك توفيت، من سيقوم برعايتها، وعند من ستبقى، لا يصح أن تعيش وحيدة، وبالمقابل زوجتي ترفض رفضاً قاطعاً أن تأتي ليلى وتعيش معنا، وبالطبع فإن أخواتي لا يمكنهن الاعتناء بها لأن أزواجهم سيرفضون الفكرة وهم غير مجبرين لتحمل هكذا مسؤولية

-نعم يا ولدي صدقت، معك حق فيما تقول، فليلى لم تعد صغيرة فصديقاتها أصبحن أمهات منذ زمن، وعائلة العريس عائلة معروفة في البلدة، أضف إلى ذلك بأنهم أغنياء للغاية، ولابد وأن تصبح بيننا وبينهم مصالح مشتركة، فهم يمتلكون المئات من فدادين الأراضي، ستزيد أموالنا بمصاهرتهم لنا سأجعل ليلى توافق حتى ولو اضطررت إلى ضربها

-حسنا إذاً إني أنتظرك، كي أبعث بطلبهم

ما إن سمعت ليلى الحديث حتى شعرت بأن الأرض تدور من حولها، كادت أن تفقد توازنها إلا أنها استندت على الجدار من خلفها، وضعت يديها على فمها كابحة شهقتها مخافة أن يسمعوا صوتها، فركضت باتجاه الغرفة التي تنام فيها، وارتمت على السرير باكية، يومها تظاهرت بأنها نائمة، فبعد مغادرة عمها جاءت جدتها تتفقدها، تريد أن تستفسر أين اختفت ، وأين الشاي التي أوصتها بإعداده، وعندما فتحت باب الغرفة وجدتها نائمة، ومتدثرة بلحافها وحتى وجهها بالكاد كان ظاهراً، وحدثت السيدة خديجة نفسها في سرها:

-غريبة هذه الفتاة لا أفهم تصرفاتها بتاتاً، حسناً مادامت نائمة فهذا أفضل، أريد أن أفكر بهدوء بالطريقة التي سأخبرها عن موضوع خطبتها وزواجها.

في تلك الليلة لم يعرف النوم سبيلاً إلى جفون ليلى ، فقد كان الليل طويلاً جداً بالنسبة إليها وكأن الفجر يأبى أن يبزغ ، ليل مرت فيه بتقلبات

مزاجية مختلفة ، فتارة تبكي وتارة تصمت وتارة أخرى تغرق في أفكارها ، وكلما أوغلت في التفكير أكثر كانت لحظاتها أشد وأقسى ، لحظات أدركت من خلالها كم تغيرت فيها حياتها بين يوم وليلة ، لحظات أدركت المنعطف الذي ستؤول إليها حياتها من الآن فصاعداً ،كانت وحيدة في الغرفة لم يكن يسمع أنينها إلا الجدران والضوء الخافت الذي يرسله المصباح المعلق بالسقف ، كانت تحدث نفسها بصوت خافت لألا تستيقظ جدتها :

هل هي حقاً غدت عبئاً على أقربائها ، هل هم يحبونها فعلاً ، وهل بالأساس كانوا يحبونها ، سواء هي أو والديها ، هل فعلاً سيزوجونها ، ماذا ستفعل حينها ، ماذا ستفعل ، هل تستسلم للأمر الواقع وترضخ لقرارات جدتها، هل سيؤول مصيرها كمصير أي فتاة في القرية ، انقطاع عن الدراسة وزواج مبكر ، لكن لا لن أسمح لهم بتحطيم أحلامي ومستقبلي ، لن أسمح لهم بتقرير حياتي ، لن أتخلى عن وعدي لوالداي ، سأحقق ما عاهدتهم به ، لا لن أستسلم ، لن أستسلم لهم ، أنا إنسانة حرة ولست نعجة جزارها يقرر فيما إذا كان الأوان المناسب لذبحها أم لا ، لا لست نعجة ولن أكون ، أين أنت يا أمي ، أين أنت يا أبي ، أين ذهبتما وتركتماني وسط هذه الغابة بين الوحوش الضارية ، أين أنتما ، أين أنت يا أبي لتر ماحل بي بغيابك اشتقت لأمان حضنك يا أبي ، أين أنت يا أمي لترين المعاملة التي أتلقاها ، يريدون تحطيم حلمي يا أمي ، لكنني لن أسمح لهم ، أعدكما بأنني لن أسمح

لهم، أعرف بأنكما في السماء الآن تسمعانني، كونوا معي دائماً، كونوا معي دائماً.

وفي الصباح استيقظت ليلى في ساعة متأخرة من اليوم، فلم تنم إلا عند ساعات الصباح الأولى، ولكنها استغربت كيف أن جدتها تركتها نائمة لهذه الساعة، ففي العادة كانت توقظها في السادسة صباحاً يومياً للقيام بأعمال المنزل، فدلفت إلى غرفة الجلوس تستطلع الأمر، وهناك رأت جدتها باسمة على غير العادة، كما أنها قامت بإعداد الفطور مسبقاً، وعندما رأتها السيدة خديجة نادتها لتناول الفطور:

-آاااه، ها أنت يا عزيزتي استيقظت أخيراً، كنت أنتظرك منذ زمن طويل، هيا تعالي وانضمي إلي، اليوم سنتناول الفطور معاً، ما بال عيونك منتفخة اليوم هل أنت بخير، تبدين متعبة

نظرت ليلى إلى جدتها طويلاً، كانت نظرة ارتياب باردة أقرب منها إلى الدهشة للكلام المعسول التي تسمعه من جدتها، فهي تعي تماماً ما سر ذاك التحول المفاجئ في معاملة جدتها لها، لكنها مع ذلك قررت مجاراتها ، لترى إلى أين سيؤول هذا اللطف الزائد، وفيما هي مشغولة بتحليلاتها جاءها صوت جدتها مرة أخرى:

هيه ... ليلى ما بالك شاردة، ولماذا تنظرين إلى بهذه الطريقة، على أية حال هيا تعالي فالشاي على وشك أن يبرد

-ماذا ... لست شاردة يا جدتي، وعن أي نظرة تتكلمين، ربما لأن عيوني لازالت تحت إثر النوم، قادمة إليك

انضمت ليلى إلى جدتها، فجلست على مائدة الإفطار، بدأتا بتناول طعامها بهدوء، ولم تنبس أياً منهما بأية كلمة، فذلك كان الهدوء الذي يسبق العاصفة ، باشرت السيدة خديجة الحرب الباردة بينها وبين حفيدتها، أما الأخيرة فقد كانت تعلم مسبقاً بوقوع الحرب ، لذلك قامت بتجهيز عدتها المتمثلة بأدوات متنوعة، كالهدوء والصمت والكلام اللطيف كمقدمة، وبعدها ستستخدم حسب خطورة الوضع أسلحة من عيار ثقيل كالعناد والصراخ والمواجهة ، وهنا ابتدرت السيدة خديجة قائلةً :

-ليلى كم تبلغين من العمر الآن

-الثامنة عشر

-آاااه، كيف أن العمر يمضي يا عزيزتي، فعندما كنت في مثل سنك كنت متزوجة، وكان عمر والدك حينها سنتان

-الزمن تغير يا جدتي، فزماننا غير زمانكم

-لا أبداً، لم يتغير بتاتاً، فالكثير الكثير من فتيات القرية اللاتي في مثل سنك متزوجات

-وليكن، ما شأننا بتلك الفتيات، من المؤسف حقاً يا جدتي، فعجلة التطور متحركة نحو الأمام في القرية، لكن مع الأسف عجلة التفكير متوقفة والعنكبوت قد اتخذها موطناً دائماً له على ما يبدو

-ما هذه الأفكار يا ليلى، تدهشينني دائماً بكلامك

وهنا شعرت السيدة خديجة بأنها محاصرة من قبل كلمات حفيدتها، فرأت أنه لابد من إجراء تغييرات في الخطة، أما ليلى فقد حافظت على برودة ملامحها، لتُشعر جدتها أن الأمر برمته لا يعنيها، ثم عادت السيدة خديجة إلى كلامها:

-ها تذكرت، سمعت بأن صديقتك سعاد قد تزوجت، فتاة محظوظة، فزوجها ثري جداً، وسمعت على لسان الجارات بأن زوجها لا يبخل عليها بشيء، ويحضر لها كل ما غلا ثمنه

-صحيح سمعت بذلك، ولكنني سمعت أيضاً بأنه لا يسمح لها بالخروج مطلقاً، وفي حال أرادت الخروج فعليها أن تصطحب إما والدتها أو حماتها، فهي بهذه الحالة وكأنها في السجن، أحزن لقول ذلك لكنها كعصافير الزينة، محكوم عليها بالقفص طوال عمرها

-نعم صحيح، لكن لا تنسي المال يا عزيزتي

وهنا احتدت ليلى

-وما نفع المال أمام سجنها هذا، ما هذه الحياة التي تعيشها، فهي غارقة في الروتين اليومي، زوجها هذا إنسان متخلف، عقله متحجر كرجل الكهف

وهنا لم تعد السيدة خديجة تستطيع أن تحتمل أكثر، فهي كانت تعرف مسبقا بأن الجدال عقيم مع ليلى، وبأن ليلى فتاة عنيدة كوالدها تماماً،

فقررت أن تدخل في صلب الموضوع مباشرة، لتوفر عليها مشادة كلامية أخرى

-ليلى سأخبرك بأمر هام للغاية ، كي لا يطول جدالنا هذا، يوجد من تقدم لخطبتك، ورأيت أنا وعمك بأنه قد آن الأوان لتزويجك، فقد أصبحت يتيمة ولا يوجد من يهتم بك في الزمن البعيد، أما عن دراستك فانسيها يا عزيزتي لأنها لن تخدمك بشيء صدقيني

هنا أطلقت ليلى ضحكة مصطنعة، وبدأت تتكلم وصوتها يشوبه غصة مريرة

-وهل تعتقدين بأنني لا أعرف خطتك أنت وعمي، هل تعتقدين بأني ساذجة للدرجة التي تجعلينني فيه أصدق لطفك الزائد لهذا اليوم، وهل تعتقدين بكل بساطة بأنني سأوافق وبكل سرور، وبأنني سأخضع لرغباتك مثل كل مرة، لا يا جدتي، لا، قطعاً لا، أخضع لك بكل شيء، حتى لو طلبت مني بأن أصبح خادمتك لا حفيدتك، لكن موضوع الزواج قبل الانتهاء من دراستي وقبل أن أف بعهدي الذي قطعته لوالداي لا ، مستحيل أن يتحقق هذا الشيء، فاعذريني

صعد الدم إلى رأس السيدة خديجة، فبدا وجهها بلون الدم من شدة الغضب

-اسمعيني أيتها الفتاة المدللة، أنا لم أخبرك بهذا الموضوع لآخذ رأيك، أو أن أسألك فيما إذا كنت ستوافقين أم لا، أنا فقط أخبرك، ركزي في كلامي، فقط أخبرك، أنا وعمك قد وافقنا مسبقاً على الشاب المتقدم لخطبتك، نحن

نعرف مصلحتك أكثر منك، وغداً مساءً سيتقدمون لخطبتك رسمياً ،وفي هذا المنزل بالضبط

-لا يحق لكما التحكم في حياتي وتقرير مصيري، بأي حق تريدون أن تحرموني من الدراسة، اسمعي جدتي على جثتي لن يحصل هذا الذي تخططون لأجله، أتسمعين، وبلغي عمي كلامي، وحتى إذا أردت أن أقول له هذا الكلام وجهاً لوجه، فلم يعد يعنيني شيء بعد الآن ما دمتم هكذا

فانفجرت السيدة خديجة شزرة وبدأت بالصراخ على ليلى

-يا لك من خثرة بليدة، تكادين تصيبينني بالسكتة القلبية، كم أنت فتاة عاقة مسكين يا ولدي، ماذا فعلت ليرزقك الله بمثل هذه الفتاة، وماذا فعلت أنا لأبتلى بفتاة غبية كهذه

وهنا وصل الحنق لدى آنا إلى أشده، وقررت أن تقابل كلام جدتها القاسي بالمثل:

-أتعلمين يا جدتي ما الخثرة الحقيقية، الخثرة في عقولكم، الخثرة في تفكيركم المسموم الذي يأبى أن يواكب التطور السريع، الخثرة في عاداتكن البالية التي أكل عليها الزمن وشرب ، الناس وصلت للقمر وأنتم هنا ليس على لسانكم إلا قصص الزواج، زواج، زواج، زواج، هذا جل تفكيركم، بالمحصلة الآن عرفت كم تحبين أبي وكم هي مكانته غالية في قلبك، لأنك لوكنت تحبينه بالفعل لما تصرفت هكذا مع ابنته الوحيدة، لو تحبينه بالفعل لما جلدت ابنته بكلامك القاسي الجارح كحد السيف، على كل شكراً لك

يا جدتي، وألف شكراً للخيبة المرة التي أسقيتني إياها، فبفضلك وبفضل تفكيرك وتفكير أهل هذه البلدة لم أعد أثق بأحد، ولم أعد أحب أحد ولا حتى نفسي، كم كنت أتمنى لو أن أبي و أمي معنا الآن ليسمعوا حديثنا، كم كانوا ليسعدوا برؤيتك وأنت تسحقين ابنتهم وحلمها ، شكراً يا جدتي، شكراً ....

فانصرفت ليلى من أمام جدتها، التي هي بدورها كان لايزال الشرر يتطاير من عينيها من تصرف حفيدتها الأرعن، أما ليلى فكان في دماغها شيئاً آخر، هذا الشيء الذي كانت قد أمضت جل الليلة السابقة بالتفكير والتخطيط له، ولدى خروجها من الغرفة سألتها السيدة خديجة:

-إلى أين أنت ذاهبة لم ننه ما بدأنا به

-الأمر محسوم بالنسبة لي، فمهما تجادلنا وتكلمنا فإن رأيي لا ولن يتغير، ذاهبة الآن إلى جدتي نظلي، فالجو أصبح خانقاً لا يطاق هنا

وبالفعل ذهبت ليلى إلى جدتها السيدة نظلي، فمخططها لن يتم دون مساعدتها

-جدتي نظلي، جدتي هذه أنا ليلى أين أنت

-أنا قادمة يا طفلتي

خرجت السيدة نظلي تستطلع الأمر بعد أن سمعت النداء، وما إن فتحت الباب حتى رأت ليلى واقفة وهي غارقة في دموعها، ولدى رؤية ليلى لجدتها

همت بمعانقتها وارتفع صوت بكائها الممزوج بشهقاتها، الشيء الذي أقلق السيدة نظلي

-ليلى يا حبيبتي ما بك، ماذا يحصل، لم تبكين، أخبريني يا حلوتي ما الخطب هيا ادخلي للداخل، ستتجمدين من البرد هنا، هيا بنا إلى جانب المدفأة

وبالفعل دخلتا إلى المنزل، وقامت السيدة نظلي بإحضار بطانية سميكة لليلى بالإضافة إلى كوب دافئ من الشاي، أما ليلى فتوقفت عن البكاء، وباتت فقط تنظر إلى الحطب المحترق داخل المدفأة، كان صوت احتراق عيدان الحطب من الأصوات المحببة إليها، فهو بنظرها صوت يبعث على الدفء والحنان.

-هيا عزيزتي أخبريني ما القصة، من الذي تجرأ وقام بإحزان جميلتي

فأجابتها ليلى بصوت مرتعش:

-إنها جدتي خديجة وعمي، يريدون أن يزوجوني، وسيجبرونني على الموافقة بالإضافة إلى أنهم سيحرمونني من المدرسة

-ماذا ؟؟؟ يريدون تزويجك

-نعم، لم أنم البارحة وأنا أفكر ماذا سأفعل

-وأنت لا تريدين الزواج صحيح

-جدتي أرجوك، أريد إكمال دراستي

-صحيح، صحيح، لطالما كانت أمك تحدثني عن أحلامك، لكن أخبريني كيف يمكنني مساعدتك، أنت تعلمين بأنه لا حيلة لدي، ومن غير الصحيح إخبار جدك لأن بدوره سيؤيدهم بقرارهم

-نعم أعلم ذلك، ولكنني أعلم كيف بإمكانك مساعدتي

-ماذا !!! تعلمين، أخبريني إذاً وأنا أفديك بروحي حفيدتي الغالية

-يمكنك مساعدتي من خلال السيد شكري

وهنا سقط كوب السيدة نظلي على الأرض، وتناثرت قطع الزجاج المكسور والممزوج بالشاي على سجادة الأرضية، لكنها حاولت إخفاء دهشتها أمام حفيدتها فقالت بصوت هادئ رزين:

-ماذا ؟؟ ومن هذا السيد شكري، من أين أتيت بهذا الاسم، لابد أن الأمور قد تداخلت مع بعضها لديك، أنا لا أعرف أحداً بهذا الاسم

-جدتي أتوسل إليك، لا تكذبي عليّ كما كذبوا هم ، أرجوك لا تكوني مثلهم

-عيب يا عزيزتي أنا جدتك ولا يجوز أن تتهميني بالكذب

-أنا آسفة، لكنك حقاً تراوغين، أنا أعرف بأن السيد شكري هو حبك الأول، كان فتاً من أورفه، مسقط رأسك، وقد تعاهدتما على الزواج، لكن الحياة ظلمتكما كما ظلمتني، هو أجبر على الانتقال إلى إسطنبول لأن عائلته كانت قد افتتحت مطعماً هناك، وأنت انتقلت إلى حلب ،وفي النهاية

والدك أجبرك على الزواج من جدي، أليس صحيحاً ما أقول، هيا جدتي ما بالك صامتة هكذا، أليس كلامي صحيحاً

-وكيف عرفت هذه المعلومات، لازلت صغيرة على مثل هذه الأمور

-لقد سمعتك يوماً وأنت تتكلمين مع أمي بهذا الخصوص، وقتها كان أستاذي متغيب عن المدرسة لأنه مريض، وعندما دخلت إلى المنزل سمعتكما تتهامسان ومشغولات بالحديث لدرجة أنكما لم تسمعا صوت الباب عندما أتيت

-لقد فاجأتني يا ليلى، لم أتوقع منك تصرفاً كهذا

-جدتي لا يوجد وقت لهذا الكلام أريد منك عنوان المطعم لابد وأنه أعطاك عنوانه الجديد، فهو انتقل قبلك

فتنهدت جدتها بحسرة

-صحيح يا عزيزتي، كلامك كله صحيح، شكري كان حبي الأول ولايزال، كم أتمنى عودة تلك الأيام، أيام كنا مرتاحي البال، لا يشغلنا من الحياة شيء، كنت أنا وشكري عاشقان بكل معنى الكلمة، هام كل منا بالآخر، هيام كنا معه مستعدين لأن نفدي بعضنا بأغلى ما نملك، كنا تسترق اللحظات لنلتقي تحت شجرة الخرنوب، والتي حفرنا عليها حبنا وأسمائنا عليها، لكن القدر لم يشأ أن نتزوج وأن نعيش سوية العمر كله، وقد كتب لنا الفراق والمعاناة من آلامه، لكن أخبريني لماذا تريدين عنوانه

وهنا تنحنحت ليلى قليلاً، وأخبرت جدتها بقرارها الخطير

-أريد أن أهرب إلى إسطنبول، كرهت البلدة وكرهت الناس بعد وفاة والديّ، لن أسمح لجدتي خديجة بتزويجي عنوة، سئمت الحياة هنا، سئمت الجهل، سئمت تفكير الناس ومنطقهم الأعوج، أريد أن أذهب باتجاه أحلامي، أريد أن أحقق طموحي، أريد أن أصبح كاتبة يا جدتي

-ماذا ؟؟!! تهربين إلى إسطنبول، لماذا إسطنبول، لماذا ليس إلى المدينة

-جدتي إسطنبول بعيدة جداً، في المدينة من الممكن أن يجدني عمي، لكن لن يخطر ببال أحد إسطنبول، أنسيت بأنني أتكلم التركية بطلاقة، والفضل يعود لك لأن جذورك تركية

-لكن أتظنين الحياة سهلة في اسطنبول، لازلت صغيرة جداً للإقدام على هذه المخاطرة، كيف ستتدبرين أمورك هناك، لا تستطيعين العيش لوحدك، الحياة قاسية يا عزيزتي، لا تعرفين منها شيئاً يا طفلتي

-لهذا السبب أريد عنوان السيد شكري، فهناك يمكنه مساعدتي ولن يتركني وحيدة، وعندما أخبره بأنك جدتي، صدقيني لن يتوانى عن مساعدتي، أما الحياة يا جدتي فكانت قاسية بما فيه الكفاية معي لأدرك كنهها، قسوتها معي جعلتني أكبر عشرات السنين، على الرغم مم أنني لم أبلغ العشرين بعد

نظرت السيدة نظلي إلى حفيدتها بحزن، وهي تفكر ما ذنب هذه الصغيرة لتنال هذا العذاب كله، فنهضت وناولتها قطعة ورق صغيرة مدون فيها عنوان السيد شكري:

-لقد أعطاني إياها قبل مغادرته مثلما قلت تماماً، لكن الشيء الذي لا تعرفينه، بأنه يومها طلب مني الهروب معه والذهاب إلى إسطنبول ، لكنني لم أمتلك شجاعتك يا عزيزتي، خشيت على سمعة أهلي، وخشيت من كلام الناس و من الفضيحة، أنا فخورة بك يا عزيزتي، ليتني امتلكت شجاعتك وقتها، أما الآن فأنا أموت من الحسرة والندم، ولو عاد بي الزمان إلى الوراء لم أكن لأفكر أصلاً، كنت قد هربت وعشت الحياة التي كنت أحلم بها معه، اذهبي يا عزيزتي ولا تخشي شيئاً، الإنسان يعيش حياته مرة واحدة، فليحيا الحياة التي يتمناها ويرغب بها، اذهبي يا عزيزتي، اذهبي وأخبري شكري أن نظلي لم ولن تنساك ،حبك باق في قلبها لتموت، لكن المهم يا عزيزتي أخبريني كيف ستصلين إلى هناك

-سأذهب إلى إسطنبول عن طريق مدينة إدلب، سأذهب إلى صديق والدي أبا محمد، وسأسأله إذا كان بإمكانه مساعدتي، لكنني لا زلت لا أعرف كيف سأصل إلى هناك

-فكرة سديدة، لا عليك، أنا سأساعدك

قالت السيدة نظلي ذلك والدموع تترقرق في محجريها، ثم نهضت وودعت حفيدتها وداعاً حاراً، فهي لا تدري فيما إذا كانت سترى ليلى مرة أخرى، فقبلتها عدة قبل على وجنتيها، وليلى بدورها بكت كثيراً فهي تكره لحظات الوداع، وبمغادرة ليلى لمنزل جدتها، شرعت السيدة نظلي تحدث نفسها:

-وداعاً يا طفلتي الشجاعة ... وداعاً، أسأل الله أن يحميك وأن يكون معك، وداعاً....

حثت ليلى بعدها خطاها عائدةً إلى بيت جدتها خديجة، وهي تفكر كيف يمكنها أن تتحايل وتخدع جدتها، كي لا تفطن إلى خطتها المتمثلة في الهروب، انتشت ليلى بنسيم الأمل، فلم تكن تتوقع بأن زيارتها ستكون مثمرة بهذا الشكل، وأنشأت تحدث نفسها:

-مسكينة جدتي، لقد فات الأوان منذ زمن بعيد، لم يتبق لديها أي أمل في أن تعيش حبها من جديد، أغلال المجتمع كانت أقوى منها، مع الأسف لم تحاول كسر تلك القيود، أو على الأقل اختلاق مفتاح لفتح الأقفال التي تحكم تلك الأغلال، لكن أنا لازال لدي الأمل، لم يتأخر الوقت بعد، لازالت لدي المئات من الفرص، وسأستغلها جميعاً، وسأظل أحاول، وأسعى حتى أصل إلى مبتغاي.

لدى وصول ليلى إلى منزل الجدة، رأت عمها ينتظرها عند عتبة الباب الخارجي، وما إن رأته حتى ساورها الخوف والقلق، هي تعلم بأن وقوف عمها بهذا الشكل لا يبشر بخير، وما إن اقتربت من عمها تريد مصافحته، حتى أمسكها بذراعها ضاغطاً عليها بكل قوته، وسحبها عنوةً إلى الداخل، وفجأة ارتفعت يده وقام بتوجيه صفعة إلى وجهها، كانت صفعة مؤلمة تركت أثرها على وجهها، لم يترك مجالاً لليلى التي عقد لسانها الدهشة لتستوعب الذي حدث، فبدأ بالكلام الذي كان أشبه بالصراخ والتعنيف:

-اسمعي أيتها الحقيرة، أخبرتني جدتك عن رأيك بعرض الزواج المعروض عليك، وبالطبع لم يعجبني ذلك، لا يوجد لدي فتاة تقول لي كلا، هل تسمعينني، بالتالي رأيك لا قيمة له عندي، اليوم التقيت بوالد العريس وغداً مساءً سيأتون لرؤيتك، أتمنى أن تكوني جاهزة، هل فهمت؟؟؟

اشتعلت نيران الحقد وانفجر بركان الغضب داخل ليلى، الآن ولأول مرة في حياتها يسدد أحدهم لها صفعةً بتلك الطريقة الوحشية، فوالديها لم يضرباها يوماً، أدركت الآن كمية القسوة المحيطة بها، أدركت كمية الظلام الذي يتسلق بمخالبه ليلف حياتها بأسرها.

بقيت ليلى جاثية على الأرض للحظات وذلك بعد أن طرحتها الصفعة أرضاً، فتذكرت فوراً خطتها للتحايل، فمسحت دمعتها التي سالت لاإرادياً منها، فنهضت واقفة وهي تضع يدها وجنتها للتخفيف من حدة الألم، وتوجهت نحو عمها وجدتها التي كانت تراقب المشهد منذ البداية لكنها لم تأتِ بأي حركة، فكان هذا ما قالته ليلى لهما:

-لا أبداً، لقد فكرت في الأمر ملياً، وأرى بأنكما على حق، جدتي لقد تمعنت فيما قلته لي، وأدركت بأنك محقة، فاليوم أجد من يرعاني غداً لن يتبقى لي أحد، أما عن دراستي فالفرص ضئيلة جداً في القرية بالتالي لن تكون دراستي ذات نفع لي ولن تكون علامة فارقة في حياتي، فالأولى أن أهتم بشريك حياتي وأطفالي مستقبلاً، عمي أنا جاهزة وموافقة على الشاب المتقدم لي، بإمكانك أن تخبرهم بأن يأتوا غداً، وسأكون بأتم جاهزيتي

قالت ليلى تلك الكلمات وهي تعض على شفتيها، حتى كادت أن تدميهما، قالتها لتحمي نفسها من صفعات أخرى سواء أكانت جسدية أم نفسية، ولتوفر على نفسها الجدال مع الجاهلين الواقفين أمامهما.

بهت كل من السيدة خديجة وعمها للكلام الذي تفوهت به ليلى لتوها، ودهشا للتطورات السريعة والمفاجئة في تصرفها وفي موقفها، مما جعل عمها يشعر بتأنيب الضمير لأنه أقدم على صفع ابنة أخيه ، وأدرك بأنه ربما أسرع وبالغ بردة فعله إزاءها، فهي لاتزال غضة ساذجة، جاهلة بمصلحتها، فخرج دون أن يلتفت إليها، ودون أن يدلي برأيه بقرارها، بل مضى صامتاً لم يتكلم بشيء، أما السيدة خديجة فلم يكن موقفها يختلف عن موقف ابنها ، فهي الأخرى لم تعلق على الذي جرى، و أيضاً مضت لمتابعة الأعمال المنزلية، فهي تريد أن يكون البيت مرتباً ونظيفاً لحين قدوم الضيوف غداً.

بعد انتهاء تلك التمثيلية التي قامت بها ليلى لإقناع جدتها وعمها بأنها قد غيرت من رأيها وبأنها موافقة تماماً على كل القرارات التي يتخذونها، كان لابد من إخبار جدتها السيدة نظلي عن موعد قدوم الضيوف كي تتمكن جدتها من إيجاد الشخص المناسب والذي سيقوم بتوصيلها إلى مدينة إدلب، وعلى الفور قامت ليلى بالاتصال بالسيدة نظلي، وقد تعمدت أن ترفع من نبرة صوتها كي تتمكن جدتها خديجة الاستماع لهما مما يضمن نجاح المسرحية بشكل أفضل:

-مرحباً جدتي هذه أنا ليلى، كيف حالك، اتصلت بك لأنقل لك خبراً سعيداً،غداً مساءً ستكون خطبتي، هناك أناس كريمي الأخلاق سيتقدمون لخطبتي رسمياً من جدتي وعمي، وأنا وافقت بكل سرور، أتمنى حضورك غداً، وبعد عدة أيام سنقيم حفلة الخطوبة

-نعم عزيزتي ليلى، لا تقلقي سيكون كل شيء على ما يرام ، والآن اسمعيني جيداً ، غداً صباحاً عليك الذهاب إلى منزل والديك، تذرعي بأنك تريدين ارتداء بعضاً من حلي والدتك، وبعدها عند الظهيرة سيكون بانتظارك الأستاذ سعد، أستاذ الرياضيات، فزوجته من إدلب أيضاً، وعلى الدوام يقوم باصطحاب زوجته لزيارة أهلها، وبالتالي ذهابه إلى هناك لن يكون محطاً للشبهات، فضلاً على أنه يمتلك تاكسي، لن يراك أحد فيما إذا اختبأت بشكل جيد، لكن احرصي على ألا يلمحك أحدهم، وقد تقصدت وقت الظهيرة فالناس عادة في مثل هذا الوقت في بيوتهم لتناول طعام الغداء، ولكن أنبهك بأن الأستاذ سعد لا يعلم ما القصة فقد أخبرته بأنك ذاهبة إلى صديق والدك لقضاء عدة أيام برفقة عائلته لتخرجي من جو الكآبة والحزن على والديك، وبأن جدتك خديجة لها علم بأنك ذاهبة معه، أمفهوم يا عزيزتي

وهنا رفعت ليلى صوتها أكثر:

-نعم نعم يا جدتي، شكراً لك على تهانيك الحارة لي، أتوقع قدومك غداً، أشكرك، أشكرك كثيراً

وبالفعل فقد وصل صوت ليلى إلى مسامع جدتها، الأمر الذي جعل السيدة خديجة تطمئن أكثر فأكثر، فالآن تأكدت بأن حفيدتها قد باتت راضية، حيث أنها توقعت بأن ليلى قد كذبت عليهما بموافقتها على موضوع زواجها، فانفرجت أساريرها غبطة، بالتالي الأمر الذي كانت ترغب به سيحدث غداً، وستتخلص من رعاية الفتاة

سارت الأمور كما خططت لها ليلى، وفي اليوم التالي كانت السيدة خديجة قد بدأت منذ الصباح بالتجهيزات اللازمة لاستقبال الضيوف، فقامت بتنظيف البيت جيداً، و قامت بفرش مفارش جديدة للطاولات خصيصاً لهذه المناسبة، بالإضافة إلى إعدادها أصنافاً متنوعة من الحلويات لتقديمها مع القهوة، وكانت قد ابتاعت فستاناً جديداً لليلى، ذو لون وردي براق بأكمام طويلة، بدا قبيحاً بالنسبة إلى ليلى، لكنها أبدت إعجابها واستحسانها له، فاستغلت فرصة الفستان الجديد وطلبت من جدتها الذهاب إلى منزل والديها:

-جدتي أريد الذهاب إلى منزلنا الآن

-ماذا ؟؟ منزلكم، ما الذي ذكرك بمنزلك الآن ألا ترين بأننا مشغولون جداً بالتحضيرات

-أعلم، أعلم يا جدتي، لكنني رأيت بأن فستاناً جميلاً كهذا لابد وأنه يحتاج إلى بعض المجوهرات، هكذا أظهر أمام الضيوف وأمام الشاب بأبهى حلة، ألا تريدين أن تتباهي بجمالي أمام والدة العريس

ولأن السيدة خديجة كانت حريصة على أن تنال ليلى إعجاب العريس وعائلته في سبيل أن تصبح فرداً من عائلتهم

-حسناً إنك محقة، لكن لا تتأخري، لايزال ينتظرنا الكثير من العمل، ولم يبق الكثير لحلول المساء

-لا تقلقي يا جدتي لن أتأخر سأعود في الوقت المناسب

وفيما عادت السيدة خديجة إلى أعمالها، كانت ليلى قامت بتجهيز حقيبة ثيابها في الليلة الماضية، خرجت من منزل جدتها على رؤوس أصابعها وبكل هدوء لألا تنتبه جدتها إلى حقيبتها، وذهبت مسرعة قاصدة منزلها، دون أن تلتفت وراءها، وتمتمت قائلة لدى مغادرتها: لماذا يا جدتي ؟؟ لماذا؟؟؟

لدى وصولها إلى منزل والديها، نظرت إليه نظرة حزن وأسى، وشعرت بغصة في حنجرتها كادت أن تخنقها، لقد أصبح منزلاً خاوياً خالياً من روح الحياة مهجوراً بعد أن غادر ساكنوه إلى الأبد، فقامت أولاً بفتح الباب الخارجي الذي يفضي إلى الحديقة الأمامية، فرأت الورد الجوري الخاص بأمها قد ذبل وكأنما شعر برحيل صاحبته التي تعتني به فقرر بدوره الرحيل واللحاق بها، وكانت أشجار الزيزفون متهدلة بأوراقها وأغصانها حتى تكاد تلامس الأرض، وقد بدت عليه علامات المرض وكأنما قرر هو أيضاً التضامن مع الورد الجوري يريد المغادرة أيضاً، أما عن الخضروات فقد كانت بمجملها متعفنة متآكلة بفعل الديدان والحشرات، وشجرة اللبلاب

متجمدة بسبب الصقيع الذي كان جاثماً على البلدة منذ أيام عديدة، فأضفت بذلك على المنزل المزيد من الوحشة و الكآبة، فغدا وكأنه بيت للأشباح كتلك البيوت المهجورة التي نشاهدها في أفلام الرعب، ثم شاهدت ليلى الطاولة والكراسي التي كانت تستخدم لأجل قهوة الصباح ، فخطت باتجاههما مخلفة وراءها صوت وقع أقدامها على العشب الرطب ،وعلى الرغم من درجة الحرارة المتدنية قامت بتمرير أصابعها على الطاولة التي كانت تكسوها طبقة من الغبار الممزوج بالجليد والتي بدأ الصدأ يهاجمها ، كانت تريد أن تتحسسها للمرة الأخيرة ، تريد أن تحتفظ بأكبر قدر من التفاصيل المتعلقة بحياتها الماضية، تريد أن تتذكر دائماً كيف كان ملمس كل قطعة أثاث وكل ما يخص والديها ومنزل طفولتها، وبعدها قامت بالدخول إلى الغرف واحدة تلو الأخرى، فلمست مكتبة والدها والكتب التي بداخلها وقامت بتقبيل خشب المكتبة وزخارفها وحتى كتبها، وفعلت الأمر نفسه مع خزانة والدتها وثيابها، فناجين القهوة التي اعتادوا على الشرب منها في كل صباح، مخلفة دمعتها في كل مكان لمسته وقبلته وكأنما تقول لتلك الأشياء لا تنسيني أنا أيضاً، فالذكريات كما أي شيء في الحياة ، لها نكهتها الخاصة، ولها ملمسها الذي يدغدغ ذاكرتنا من وقت لآخر، وبعد ذلك ذهبت إلى درج خاص في غرفة النوم، هذا الدرج كان مخصصاً للأشياء الثمينة الخاصة بوالديها، فأخرجت صندوق المجوهرات الخاص بوالدتها، فقد كان يحوي بعضاً من المصوغات الذهبية، رأت بأنه لابد بأن تحتاج للمال حتى

تتمكن من الوصول إلى إسطنبول، كانت مكانة تلك المجوهرات عزيزة على قلبها فهي تبقى من أثر والدتها وعبقها ، لكن مع الأسف ما من سبيل أمامها، ثم قامت بوضع القطع الذهبية في كيس مخملي اللون، ووضعته في حقيبة يدها الصغيرة، ثم عمدت إلى ألبوم الصور وتناولت بعضاً من صور والديها وصورها عندما كانت طفلة صغيرة وهي بحضن أبيها وأمها، بالإضافة إلى وشاح والدتها المطرز بالورود الحمراء، وبعد تجهيزها لكل ما قد يلزم لرحلتها وضعت الحقيبة الكبيرة جانباً، فقد كان عليها أن تودع والديها وصديق عزيز على قلبها، فذهبت أولاً إلى نهر العاصي ووقفت في أعلى الجرف المطل على النهر، نظرت إليه طويلاً وأنشأت كما تفعل في كل مرة، بدأت تتكلم مع نهرها العزيز :

-صديقي العزيز، ليلى التي تراها واقفة الآن هي ليست ليلى التي تعرفها واعتدت عليها، أنا الآن ليلى أخرى، ليلى مختلفة اختلافاً كلياً عما كانت عليه ، لكنك لازلت صديقها الوحيد ، أتيت اليوم كي أودعك، ربما تكون هذه زيارتي الأخيرة لك، ربما لن أراك ولن تراني بعد الآن، لا تعرف لربما كتب لنا القدر بأن نلتقي مجدداً ، قلبي مفطور لوداعك، لكن ما بيدي حيلة، لقد حطموني يا صديقي بظلمهم وأنانيتهم، لقد طعنوني في قلبي وروحي وحياتي، لم يعد لي مكان هنا، رحل والداي، وغدوت وحيدة، أحلامي المحطمة تناديني، وعلي تلبية النداء، فواجبي الأخير اتجاه والديّ الوفاء

بوعدي لهما، سامحني يا نهري، سامحني لأنني ذاهبة لا تعلم كم سأشتاق لك وكم سأفتقدك ، سامحني أرجوك ، الوداع ....

وهنا هبت ريح باردة أدت إلى تحريك مياه النهر على شكل موجات صغيرة، وكأن النهر يرفض وداع صديقته، ويرفض أن يتقبل فكرة رحيلها، فشاركته الأشجار المبعثرة على الضفة، فتحركت أوراقها وأغصانها نتيجة تلك الريح، التي بدورها أطلقت صفيراً حزيناً .

ومضت ليلى بخطوات متعثرة، تريد أن تودع والديها، أو بالأحرى تريد أن تودع قبرهما للمرة الأخيرة ، وهي تحدث نفسها:

-لن أبكي، لن أبكي، سأكون قوية، سأنجح، سأفعلها، أكره الوداع، أكرهه جداً

ومشت بين القبور الحجرية إلى أن وصلت إلى قبر والديها ،وقفت منكسة الرأس صامتة،كطائر جريح قد بتر جناحيه للتو، كانا قبرين متلاصقين تماماً، من المرمر الأبيض ، وقد دونت على شاهدتيهما اسمي والديها ،وكما في المنزل تقدمت باتجاه شاهدتي القبرين وقامت بلمس الشاهدين والأحرف التي حفرت عليهما، قرأت الاسمين، كان صعباً عليها حتى قراءة أحرفهما، كانت في حالة عدم تصديق وعدم استيعاب، هي تعلم بأنهما ماتا ، لكن في قرارة نفسها لاتزال ترفض الواقع، بدأت الدموع تنهمر كما ينهمر المطر في ذاك الشهر من السنة، بدأت تبكي وتبكي، وتخاطبهما أرجوكما انهضا، أرجوكما أنا خائفة جداً، أرجوكما، وكأن كل شجاعتها التي تظاهرت بها وكل

عزيمتها التي حاولت أن تقوي نفسها بها قد انهارا أمام شاهدتي القبرين، نحن البشر مهما اختلفنا إلا أننا نشترك في نقطة واحدة، وهي أننا نفقد قوتنا أمام من نحب، هكذا دائماً، أحبابنا هم نقطة ضعفنا على الدوام ، حتى الجبابرة منا يسقط جبروته أمام من يحب .

توقفت ليلى عن البكاء وأردفت تكلم القبرين:

-أنا آسفة، لم يتبق أمامي الكثير من الوقت، فساعة المغادرة قد اقتربت، أبي... أمي... لا أريد أن أخبركما ماذا حصل معي وماذا جرى منذ أن رحلتما، لأنني على يقين بأنكما تعرفان وتشاهدان كل ما يجري، لا تقلقا فابنتكما لاتزال قوية وستبقى هكذا دائماً ، سأفي بوعدي لكما مهما كلفني الأمر، وأتمنى في المرة القادمة التي سآتي بها إلى هنا ،ولا أعلم حقاً فيما إذا كنت سأعود إلى هذه البلاد مرة أخرى، لكنني أتمنى من كل قلبي أن يكتب لي المجيء مرة أخرى في المستقبل، وذلك لسبب واحد فقط، وهو زيارتكما أنتما ، أنتما ولا أحد غيركما، لكن اعلما أنني لن أعود قبل أن يتحقق حلمي، وسألقن الجميع درساً لا ينسى ، أبي ... أمي ... أحبكما كثيراً .

إلى اللقاء .....

غادرت ليلى المقبرة، لكنها لم تكن تبكي، بل على العكس، كان بريق القوة والعزيمة يلتمع في عينيها، ولدى وصولها إلى المنزل كان الأستاذ سعد بانتظارها عند الباب، راكناً سيارته جانباً، سعدت ليلى كثيراً لدى رؤيتها للأستاذ، فالخطة تسير بشكل جيد، وبالشكل الذي كانت تتمناه.

-مرحباً ليلى، من الجيد وصولك الآن كنت على وشك المغادرة لقد تأخرنا قليلاً وزوجتي سئمت الانتظار بداخل السيارة

-أعتذر منك أستاذ، أنا حقاً آسفة لم أنتبه للوقت، آسفة مرة أخرى لجعلك وزوجتك تنتظران، أنا جاهزة سأحضر حقائبي وآتي إليكما

-لا بأس لا بأس، من الجيد سماح جدتك لك بالذهاب معنا إلى إدلب، فأنا أعرفها جيداً، صعبة الإرضاء في أغلب الأحيان، الحقيقة تفاجأت قليلاً عندما علمت بأنها سمحت لك

-نعم معك حق، لكن جدتي نظلي تدبرت الأمر كله، فهي التي أقنعت جدتي بضرورة ذهابي، كانت ترى بأنه لابد لي الخروج من جو الحزن نتيجة الظرف الذي مر علينا

-رحم الله والداك، نعم جدتك محقة، في النهاية كلنا سنموت في يوم من الأيام فليلهمك الله الصبر والسلوان، حسناً إذاً أنا ذاهب إلى السيارة، هيا أسرعي وأحضري حقائبك

كانت ليلى ترغب بإنهاء الحديث سريعاُ، فهي لا تريد أن يطرح عليها الأستاذ سعد المزيد من الأسئلة، لاسيما وأن علامات الاستفسار والحيرة كانت لاتزال على معالم وجهه، فهي لا تريد للشكوك أن تحوم حولها، بالإضافة إلى أنها خشيت بأن جدتها خديجة تتنبه إلى الوقت الطويل التي استغرقته بذهابها إلى منزلها، فتقوم بالمجيء إلى هنا لتر لماذا تأخرت بهذا الشكل، وبالفعل قامت بإحضار حقيبتها بسرعة، وأغلقت الباب من

ورائها، فسقطت دمعتها رغماً عنها على يدها التي تمسك بمقبض الباب، ثم تراجعت بضع خطوات للخلف لتلق النظرة الأخيرة على منزلها، كانت تشعر بأنها تفارق روحها وليس منزلها

-سأشتاق إليك يا منزلي، سأشتاق إليك يا موطني.

أوليس المنزل هو الوطن الثاني للإنسان

انطلقت سيارة الأستاذ سعد، وهدير المحرك القديم للسيارة الذي يعود طرازها للسبعينات يقطع جو الصمت والسكون الذي كان سائداً بداخل السيارة، فزوجة الأستاذ لم تكن من النوع المرح الذي يحب الكلام والمزاح، لذلك فهي لم تكلم ليلى أبداً طيلة الرحلة، أما الأستاذ سعد فآثر السكوت أيضاً، فقد لاحظ الإحراج على وجه ليلى نتيجةً لأسئلته لذلك لم يشأ أن يزعجها أكثر، بدأت السيارة تعلو وتهبط نتيجة للمطبات التي تملأ شوارع البلدة ، عابرةً من خلال برك الوحل في الشوارع التي كان بعضها ليس معبّداً، كانت السماء ملبدة بالغيوم السوداء والرمادية منذرةً بمطر قادم، في هذه الأثناء كانت ليلى تنظر من خلال زجاج النافذة إلى أشجار الصفصاف والحور ، وأشجار اللوز التي بدأت براعم أوراقها بالظهور وكأنها كانت تودع البلدة بنظراتها، وأثناء خروجهم من البلدة مروا بجانب منزل جدتها نظلي، والتي قضت طيلة فترة الظهيرة تراقب من خلال العين الساحرة لباب بيتها وهي تنتظر سيارة الأستاذ سعد كي تطمئن بأن الأمور سارت على ما يرام

فمنزلها يقع في نهاية البلدة ، وعندما رأت سيارة وبان شخص ليلى بداخل السيارة حمدت الله كثيراً في قلبها ، داعيةً لحفيدتها بالتوفيق .

شيئاً فشيئاً بدأت ظلال منازل البلدة وأشجارها تختفي تدريجياً ، فها قد خرجت ليلى لتوها من البلدة ، ومرت الرحلة بسلاسة دون أية مشاكل أو مفاجآت منغصة ، وعندما لاحت أشجار الزيتون من بعيد ، علمت ليلى بأنها على تخوم مدينة إدلب ، فأخرجت رأسها من النافذة ، وأخذت نفساً عميقاً وهي تستنشق عبير أشجار الصنوبر التي تغطي الجبال منتشرة في المحافظة ، وبالفعل ماهي ساعة واحدة حتى كانت أمام منزل صديق والدها أبا محمد، وهنا ودعت الأستاذ سعد وزوجته وشكرته جزيل الشكر لخدمته وبأنها لن تنسى معروفه أبداً، وهو بدوره تمنى لها إجازة سعيدة آملاً بأن تستمتع بوقتها .

وقفت ليلى أمام باب منزل أبا محمد مربكةً خجلة، فطرقت الباب عدة طرقات، فجاء صوت أبا محمد من خلف الأبواب:

-أنا قادم، أنا قادم سأفتح الباب

فُتح الباب وظهر أبا محمد أمامها، نظر إليها متعجباً:

-ليلى ... ابنتي أهذه أنت، ما الذي جاء بك إلى هنا !!، ومن الذي أوصلك إلى إدلب !!؟؟، هل جئت وحدك ؟؟؟ ألا يوجد أحد معك ؟؟؟؟

فاحمرت وجنتا ليلى خجلاً

-مرحباً عمي أبا محمد، هل تسمح لي بالدخول، نعم جئت وحدي، إنها قصة طويلة، أريد مساعدتك

-طبعاً ،طبعاً، اعذريني لقد تفاجأت قليلاً، هيا تفضلي يا ابنتي، تفضلي بالدخول. أم محمد، أم محمد تعالي إلى هنا، لدينا ضيفة غالية اليوم

في هذه الأثناء كانت السيدة خديجة تقطع الغرفة جيئةً وذهاباً، وهي متوترة الأعصاب قلقة وغاضبة بنفس الوقت، فقد مضى وقت طويل على ذهاب ليلى، ولم تعد إلى الآن، فالشمس قد أوشكت على الغروب، ولم يتبقَّ سوى ساعات قليلة على مجيء الضيوف

-أين ذهبت تلك الفتاة، لمَ لم تعد إلى الآن ؟؟ ماذا تفعل إلى هذا الوقت في منزلها، سيصل الضيوف عما قريب، فتاة غبية، لمَ كل هذا التأخير، لابد وأن شيئاً قد حصل معها، آاااه يا لها من فتاة مثيرة للمتاعب

لم تتمالك السيدة خديجة نفسها، ولم تعد تستطيع الانتظار، فخرجت مسرعة تريد أن ترى لمَ ليلى ليست هنا إلى الآن، فبدأت تهرول باتجاه منزل ولدها أي منزل السيد وليد، ومحاولةً قدر الإمكان ألا تلفت انتباه المارة إلى سرعتها ومشيها المضطرب، وعندما وصلت إلى المنزل طرقت على الباب عدة طرقات عنيفة، إلا أن أحداً لم يجب ولحسن الحظ كان بحوزتها نسخة من مفاتيح المنزل، فقد أخذت نسخة من تلك المفاتيح عقب وفاة والدي ليلى وذلك لتطل على المنزل من فترة إلى أخرى لتنظيفه

ففتحت الباب بمفاتيحها وبدأت تنادي على حفيدتها:

ليلى ... ليلى، أين أنت، ألم تنتهِ بعد من إحضار المجوهرات، ليلى، سنتأخر هكذا

دخلت إلى المنزل وفتشت عن ليلى في كل الغرف إلا أنها لم تجدها، وعندما أرادت أن تهم بالمغادرة وجدت ورقة شبه مطوية موضوعة على طاولة صغيرة في غرفة المعيشة، كانت رسالة قد تركتها ليلى لجدتها تقول فيها:

إلى جدتي

كنت أعلم بأنك ستأتين إلى هنا للبحث عني، لماذا يا جدتي، لماذا ؟؟ لم يكن ذنبي أن فقدت والداي، لم يكن ذنبي أن أصبحت يتيمة الأب والأم، لم يكن ذنبي بأني أصبحت عبئاً عليكم ، الآن تذوقت مرارة اليتم يا جدتي، عندما غدوت وحيدة ومنبوذة من قبلكم ، توقعت منكم الرعاية والحنان لكنني مع الأسف لم أجد إلا القسوة والظلم عندكم، لو تعلمين الألم النفسي الذي سببتموه لي، مشاعري المعذبة لم تكن لها أية أهمية بالنسبة لكم، ومع هذا كله قلت لنفسي يجب أن أصبر فأنتم عائلتي بعد رحيل والداي، ولكن عندما حرمتموني من المدرسة ووقفتم في وجه أحلامي ودستم عليها كما يدوس أي مدخن على سيجارته بعد انتهائه منها، عندئذ قررت بأنه كفى ، كفى ... كفى ... كفى

أحلامي خط أحمر، وأنتم قد تجاوزتم هذا الخط، لا، لن أسمح لكم بتعذيبي أكثر، لن أسمح لكم بتحطيم مستقبلي، إنها أحلامي أنا، وصدقيني ستغدو حقيقة في يوم من الأيام ، وعندها أتمنى أن تراجعوا أنفسكم، وأن تعودوا إلى رشدكم، اعذريني على قسوة كلامي لكن أفعالكم معي هي من أجبرتني على ذلك ، وأجبرتني على الهروب، نعم ، ربما ستصدمين الآن، عندما ستقرئين هذه الرسالة سأكون قد أصبحت في مكان بعيد جداً، سأهرب إلى مكان يكون لي ملاذاً آمناً أستطيع فيه تحقيق أحلامي بعيداً عنكم وبعيداً عن مجتمعكم البغيض هذا، سأنتقم، سأنتقم لوالداي ولأحلامي، وكم سيكون انتقاماً لذيذاً، نعتيني يوماً

بالخثرة، فأبسط خثرة يا جدتي يمكنها أن تنهي حياة إنسان، سترون الخثرة ماذا ستفعل، والآن الوداع

"ملاحظة": ربما هروبي سيجلب لكم العار من وجهة نظركم، وأعرف كم تعني لك السمعة يا جدتي، لكن لا بأس ذوقوا ما صنعت أيديكم

الخثرة ليلى

بدأت الورقة تهتز بين يدي السيدة خديجة، إذ كانت ترتجف من شدة الحنق والغضب عندما كانت تقرأ كلمات ليلى، وبعد انتهائها من القراءة قامت برمي الرسالة على الأرض، وزمجرت من غيظها:

-سحقاً ليلى... سحقاً ليلى ... سحقاً ... فليلعنك الله ...

يا إلهي ماذا أفعل الآن، يا للفضيحة يا للعار، تباً لك ليلى، ماذا سأقول الآن للضيوف ماذا سيقولون عنا، والبلدة لابد وأن خبر هروبها سيكون على ألسن أهل البلدة وسنغدو علكة في أفواه الناس، يا للعار يا للعار، فتاة حمقاء، حمقاء

أما ليلى فقد كانت في هذه الأثناء في ضيافة أبا محمد، كانت معاملة أبا محمد وعائلته لطيفة جداً فقد طلبوا إليها أن تعتبر نفسها في بيتها منذ الوهلة الأولى التي وصلت فيها إليهم ، وفيما هم يتناولون طعام الغداء كان كل واحد منهم يصوب بنظره نحوها وفي رأسهم الكثير من الأسئلة المحيرة ، إلا

أنهم لم يوجهوا إليها أي سؤال، فهي تبقى ضيفتهم ، فيما كانت هي تحاول أن تتهرب من تلك النظرات المستفسرة كان الحياء يغمرها، فلطالما كانت علاقتها رسمية مع عائلة أبا محمد، وبعد انتهاء الغداء طلبت ليلى أن تتكلم مع أبي محمد لوحدهما، فأمر عائلته بالخروج وبقيا معاً، وللتخفيف من حرجها كان هو الذي بادر إلى الكلام :

-ليلى بنيتي أخبريني ما القصة، لم أسألك أمام عائلتي مخافة أن أسبب لك الإحراج والمضايقة، والآن قولي لي ما الذي حملك على المجيء هنا ولوحدك، أرجوك لا تفهمي كلامي بطريقة خاطئة، فالبيت بيتك، ولا زلت تحت وقع صدمة وفاة والديك فقد كان والدك صديقي المقرب وأخي العزيز، لا تخافي يا ابنتي وأخبريني فأنا بمثابة والدك وأنت بمثابة ابنتي.

-نعم يا عمي أنت محق في أن تستغرب من قدومي، لكنها قصة طويلة

وشرحت ليلى لأبا محمد سبب قدومها إلى إدلب، وبأنها تريد مساعدته في الذهاب إلى تركيا، وبأنها ستتحمل جميع تكاليف رحلتها، فهي فقط تريد منه أن يرشدها للطريقة التي ستذهب بها إلى تركيا، إذ كانت تعلم أنه بدون جواز السفر سيصبح من الصعب الذهاب إلى هناك.

بعد سماع أبو محمد لقصتها، لم يستطع أن يخفي أمارات الدهشة على وجهه، ولكنه بنفس الوقت حزن على الذي لاقته ليلى من عائلة والدها فتوجه إليها قائلاً:

-بنيتي يؤسفني سماع الذي حصل معك، وإني أتفهم الأوقات الصعبة التي مررت بها لكن هل أنت واثقة من رغبتك بالذهاب إلى إسطنبول، إنه ليس بالقرار السهل، نعم معك حق فبدون جواز السفر سيكون هناك صعوبة، ليس بالأمر المستحيل لكنه أيضاً ليس بالبساطة التي تتصورينها، ألا يمكنك العدول عن قرارك فلكل مشكلة لها حل، ربما إذا عدت إلى بيت جدك ربما سيغيرون من قرارهم وسيحسنون معاملتك، أو إذا ذهبت أنا وأقنعتهم بالعدول عن قرارهم بتزويجك، ويمكنني إقناعهم بضرورة متابعة دراستك، ما رأيك يا ابنتي

-صدقني يا سيدي لو كنت أعلم أن هناك نسبة واحد في المئة بأنهم سيتغيرون ماكنت قد اتخذت قراري بالهروب، لكنني واثقة بأن ما من شيء سيتغير فيما لوعدت الآن وتكلمت معهم، أدرك تماماً خطورة ما أنا مقدمة عليه، ولا تظن بأنه كان من السهل عليّ اتخاذ هذه الخطوة، لكنني مضطرة بل ومجبورة أيضاً

-حسناً مادام الأمر كذلك، فلم يعد لدي ما أقوله لك، سأساعدك لا تقلقي، سألتقي غداً بأحد المهربين، الذين يقودون الناس خلال الحدود، على كل حال يا ابنتي ستبقين في ضيافتنا إلى حين أن أجد المهرب المناسب وأتفق معه على كل التفاصيل

-أشكرك عمي، لن أنس معروفك ما حييت، وأرجو أن يأتي اليوم الذي سأرد فيه معروفك هذا

وهكذا ما كان على ليلى سوى الانتظار والترقب، وهي تتلهف بشوق لرحلتها المقبلة

الفصل السابع

-آنسة توليب ... آنسة توليب انتظري قليلاً

-نعم ممرضة زهرة ما الأمر

-الحمد لله بأنني وجدتك قبل أن تغادري، تفضلي هذه الرسالة لك تركها ساعي البريد منذ قليل

-ماذا ؟؟!! رسالة لي ؟؟ غريب ممن يا ترى، لم أتلقَ في حياتي رسالة واحدة

نظرت توليب إلى الظرف، كان ظرفاً أبيض اللون، عادياً لا يميزه شيء عن ظروف الرسائل المعتادة

-غريب ما من اسم للمرسل أو العنوان القادمة منه، ممرضة زهرة لمَ لم تخبريني عندما حضر ساعي البريد

-كنت عند السيدة أسيل، فقد كان موعدك معها لقراءة بعض الأشعار

-حسناً ،حسناً لا بأس، شكراً لك على أية حال

كانت توليب تعمل في دار لرعاية المسنين في مدينة إسطنبول، لم تكن توليب ممرضة أو طبيبة أو حتى عاملة نظافة، بل كانت وظيفتها تتمثل بالترفيه عن كبار السن لما له من أثر إيجابي في نفوسهم، فكانت تقوم بقراءة القصص والأشعار والروايات بالإضافة إلى الكتب المسلية والتي تعزز الطاقة الإيجابية لديهم، وظيفة غريبة ولكنها كانت وظيفتها بالفعل، فالدار التي تعمل بها تعد من أفضل دور الرعاية في إسطنبول، ولأن القائمين عليها كانوا حريصين كل الحرص على راحة العجزة ولاسيما أن العديد منهم كانوا من الشخصيات الثرية والمعروفة في المدينة، لذلك وضعوا إعلاناً في

صحف عديدة عن حاجتهم إلى آنسة لهذه الوظيفة ، للوهلة الأولى قد تبدو وظيفة سهلة، لكن كبار السن معروفون بمزاجهم المتقلب الصعب، ويحتاجون إلى معاملة ورعاية خاصة ، معاملة تتطلب الكثير والكثير من اللطف والصبر هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ليس من السهل على المتقدم في السن أن يفتح قلبه بسهولة لأي شخص كان ، لذلك فقد فشلت العديد من الشابات في هذه الوظيفة ، فكن يفقدن صبرهن منذ الشهر الأول، ولكن الوضع كان مختلفاً مع توليب، فبفضل مرونتها ومرحها وبالها الطويل، نجحت في هذه المهمة وأثارت إعجاب القائمين على الدار، أما كبار السن فقد أحبوا توليب كثيراً بفضل طيبة قلبها، والكثير منهم اعتاد على أن يفضفضوا إليها ويتحدثون معها عن الأشياء التي تسعدهم والتي تزعجهم والتي تحزنهم أيضاً، وتوليب بدورها كانت مستمعة جيدة، فهي تجيد فن الإصغاء بشكل ممتاز، بحيث تشعر المتكلم بأهميته وبأهمية الشيء الذي يتكلم عنه، فهذا يشجع المتكلم على المزيد من البوح ويشعره بالارتياح والطمأنينة، وكان من عادتها أنها كانت توزع زهرة توليب كل يوم ثلاثاء من كل أسبوع على المرضى منهم في تلك الدار، فهي تشعر بأن الورود تخفف من وطأة المرض على هؤلاء المساكين، ولأن اسمها توليب فقد اختارت أن تكون الأزهار التي تقوم بتوزيعها من نوع زهرة التوليب، فإسطنبول مشهورة بهذه الزهرة الخلابة، فلها مكانة خاصة لدى ساكنيها ومفضلة من قبل الجميع وما من أحد لا يحبها .

قامت توليب بفتح تلك الرسالة الغامضة، المجهولة المصدر فكان مدون فيها التالي وقد كان سطراً واحداً لا أكثر:

" ستكونين زهرة التوليب التي تلون حياتي بألوان الطيف السبعة "

غضبت توليب لمحتوى الرسالة، فتوجهت بالكلام إلى الممرضة زهرة التي كانت لاتزال واقفة ، تحاول أن تتلصص إلى ما كتب بداخل الرسالة :

-ألم يخبرك ساعي البريد أي شيء بخصوص هذه الرسالة

-لا أبداً، لم يقل أي شيء، فقط قام بتسليمي إياها

-حسناً، لا يهم، لست مكترثة بها

-ما كان المكتوب فيها

-لا شيء هراء لا أكثر، مجرد كلام تافه، لقد انتهى دوامي اليوم أراك غداً

-حسناً آنسة توليب، إلى اللقاء

لم تلق توليب بالاً للرسالة التي وصلتها، أو على الأقل هكذا ظنت في بداية الأمر، فعند عودتها إلى منزلها الذي بدا بارداً كئيباً بغرفتيه الصغيرتين، حيث كانت تعيش لوحدها هناك، بدايةً كانت تروق لها أجواء الوحدة والعزلة حيث الهدوء والسلام يعم المكان، لكن مع مرور الأيام بدأت تسأم واقعها الرتيب، وبأنها ما عادت تألف تلك الأجواء فقد أدركت بأنها وحيدة، ووحيدة جداً، لا يوجد من تتكلم معه أو يقاسمها همومها ، صحيح أنها خلال النهار تتحدث إلى الكثير والكثير من الناس، سواءً أكانوا العاملين في دار الرعاية أو أصدقائها من كبار السن ، وحتى أنها كانت تتكلم

إلى عائلاتهم حيث كانت تطلعهم على الوضع العام لذويهم ، لكن واقعها في منزلها يقول غير ذلك، ففي كل مساء لدى عودتها من العمل ما إن تدلف إلى داخل المنزل حتى تتذكر وضعها وحياتها المملة ، يومها أعدت توليب طعام العشاء وما أن رفعت معلقتها تريد أن تأكل حتى نهضت من على الطاولة ، وتركت الطعام كما هو دون أن تتذوق لقمة واحدة ، فعمدت إلى تحضير فنجان من القهوة وقامت بتشغيل الموسيقى من جهاز التشغيل القديم في غرفتها ، فقد كانت تحب الأنغام والألحان الحزينة ، فكانت تستمع إلى مقطوعات عزف منفرد على البيانو أو الكمان فتتخيل تلك النغمات وهي تتراقص في أجواء الغرفة، فتتحد تلك النغمات مع نغمات القهوة، نعم فتوليب كانت تعتبر أن رائحة القهوة هي بحد ذاتها سيمفونية نغمات، فينتج عن ذلك الاتحاد ثنائيات راقصة، فتارةً يرقصون السالسا وتارةً الفالس، الأمر الذي كان يؤنسها كثيراً، ثم جلست توليب على سريرها المحاذي للنافذة، وبدأت تفكر بالرسالة وتقول لنفسها:

-لمَ أفكر الآن بالرسالة ، لقد ظننت بأنني لا أبالي بها ، ولكن من المرسل يا ترى، ومن أين أتت، هل أتت من إسطنبول أم من مدينة أخرى ، أمر محير حقاً ، أيكون المرسل شخصاً يريد أن يتسلى أم أنه صادق بكلامه ، لكن الملفت في الموضوع هو أسلوب الكتابة ، أسلوب جميل جداً ومشوق أيضاً ، وبخاصة أنه أتى على ذكر زهرة التوليب ، فإذاً هو يعرفني جيداً ، لمَ أنا مشغولة هكذا بالتفكير بها إلى هذه الدرجة ، أيمكن أن يكون السبب

هو أيامي الروتينية المملة قد جعلتني هكذا ، أصبحت أتوق لأي حدث جديد ، فنادرة تلك الأيام التي يحصل فيها أمر غير عادي ، وإن حدث فيكون حدثاً عرضياً وفي دار الرعاية فقط ، لكن هذه المرة الحدث الجلل قد حصل معي أنا ، هل ستصلني رسائل أخرى ، أووه كفاني تفكيراً بها .

ثم استلقت على سريرها وأغمضت عينيها، وعادت لتستمع إلى الموسيقا التي كانت لاتزال تصدح من جهاز التسجيل.

في اليوم التالي ذهبت توليب إلى عملها كما كل يوم، وفور وصولها استقبلتها الممرضة زهرة مرة أخرى، لدى رؤية توليب للممرضة فكرت بأنه ربما تحمل رسالة أخرى لها، لكن كانت توقعاتها خاطئة

-أين أنت آنسة توليب لماذا تأخرت

-لقد علقت في الازدحام، ما الأمر أيوجد أمر طارئ

-لا ليس بالأمر المهم، السيدة أسيل تسألني عنك منذ الصباح، أخبرتني بأنك تأخرت عليها، تعرفينها كم تتوق للأشعار الرومانسية التي تقرئينها لها

-نعم نعم صحيح، لقد تأخرت قليلاً، لا بأس سأذهب لأراها الآن، أريد أن أسألك ممرضة زهرة، هل وصلتني رسالة اليوم

-لا لقد كنت هنا منذ الصباح ولم يصلك شيء

-حسناً شكراً لك

خاب أمل توليب عندما علمت أنه ما من رسالة اليوم، ومضت إلى السيدة أسيل وهي تحدث نفسها:

-لماذا أسأل عن الرسائل، تباً لي الظاهر أنني عدت إلى سيناريو الليلة الماضية

-صباح الخير سيدة أسيل، لا تؤاخذيني لقد تأخرت اليوم عن موعدنا، لكن تعرفين زحمة المرور في إسطنبول صباحاً، المهم كيف حالك اليوم

-هيه عزيزتي ها قد وصلت أخيراً، ظننتك لن تأتي أو أنك نسيتني

-وهل من الممكن أن أنساك سيدتي

فضحكت الاثنتان بمرح طفولي ، أما عن السيدة أسيل ، أو لنقل الفنانة أسيل كما تطلب من الجميع أن ينادونها دوماً ، فهي لا تريدهم أن ينسوا بأنها كانت من ألمع نجوم السينما في عصرها ، كانت سيدة في أواسط العقد السادس ، طويلة القامة ، تحاول أن تحافظ على رشاقتها قدر الإمكان ، صحيح أنها اكتسبت بعضاً من الوزن وهذا أمر طبيعي عند كبار السن، إلا أنها تمارس بعض التمارين الرياضية البسيطة والتي سمح لها الطبيب بالقيام بها، كي لا تجهد نفسها، فهي تعاني من مرض القلب، خضعت لعمليات فتح الشرايين المسدودة مؤخراً، بالإضافة إلى تلك التمارين البسيطة كانت تمارس اليوغا باستمرار، فما إن تشرق الشمس حتى تفرش سجادة اليوغا ذات اللون الأرجواني الفاقع ، وتشعل بعضاً من الشموع الصغيرة، وبعضاً من اعواد البخور ذات الرائحة القوية، وعلى الرغم من

تحذير الطبيب لها من تلك الرائحة التي تسببت لها بالتهاب حاد في الصدر ، على أنها لم تلق بالاً لتلك النصائح ، فهي كما كانت تقول دائماً بأنها عاشت حياتها كما تشاء ، لم تفوت شيء من حياتها ، وعاشتها لحظة بلحظة ، وبالتالي فإن التهاب بسيط كهذا لن يمنعها من ممارسة اليوغا بكل طقوسها ، ففي نظرها البخور من أساسيات طقس اليوغا لديها

والملفت في السيدة أسيل هو شعرها ، فهي كانت منذ خمس سنوات في تلك الدار ، وأياً من الممرضات لم يشاهدن شعرة بيضاء في رأسها ، فالسيدة أسيل تكره الشعر الأبيض كثيراً ، فهو لا يليق بفنانة كبيرة مثلها ، لذلك كانت تحرص دوماً على صبغه إما باللون البني أو الأشقر أو حتى الكرزي، أما بالنسبة لغرفتها فهذا شيء آخر، كانت غرفتها تختلف عن باقي غرف الدار، كانت مزينة بشتى أنواع الزينة التي اختارتها هي بنفسها ، من الريش الملون إلى الأزهار الجميلة ، والمقتنيات البراقة من تحف و إكسسوارات ، بالإضافة إلى أنها قد علقت على الجدار أجمل صورها في حفلات تسليم الجوائز ، مع أريكة مخملية اللون تتوسط الغرفة و طاولة خشبية مدورة قد وضعت فوقها مزهرية ، كانت تستخدمها السيدة أسيل لكتابة مذكراتها أحياناً ، أو لمطالعة المجلات الفنية أحياناً أخرى ، واستطاعت توليب أن تكسب محبة السيدة أسيل بفضل ذكائها ، فقد كانت توليب تطلع على الملف الشخصي لكبار السن التي ستكون مسؤولة عنهم ، وهذا ما حدث بالفعل

بالنسبة للسيدة أسيل ، فعندما قرأت توليب في ملف أسيل بأنها فنانة ، ولدى دخولها إلى غرفتها للمرة الأولى ، صاحت توليب مدعيةً انبهارها :

-عجباً لا أصدق ما تراه عينيّ، الفنانة أسيل !!! لا أصدق، لابد وأن اليوم هو يوم سعدي، انا من أشد معجبيك يا سيدتي، معجبة بك وبأعمالك، أحتفظ بكم كبير من المقالات التي كتبت عنك، يشرفني بأن أكون هنا لخدمتك

وبما أن السيدة أسيل تحب تلك المظاهر، وتحب أن تشعر بأنها لاتزال تحتفظ بشهرتها وتألقها كما في الماضي، فقد أحبت توليب كثيراً، وشيئاً فشيئاً أصبحتا صديقتين، مع العلم بأن توليب لم تسمع بأسيل يوماً، ولم تشاهد أي شيء من أعمالها، لكن تبقى مثل هذه الأمور من أسرار المهنة على حد قولها، طالما أنها تسعد كبار السن، لا مانع من التحايل قليلاً، فالجميع يحب الاهتمام، سواء أكان متقدم في السن أم كان لايزال في مرحلة الشباب، وهكذا انطلت الحيلة على السيدة أسيل ونجحت توليب في مهمتها.

جلست توليب على الكرسي بجانب سرير السيدة أسيل لتقرأ لها الشعر الذي تحبه

-هيا يا توليب أخبريني ماذا ستقرئين لي اليوم

-اليوم اخترت لك خاطرة هي أقرب للنثر ، كنت قد قرأتها في الصحيفة البارحة ، لكاتبة شابة مغمورة تدعى ليلى

-حسناً، جميل جداً هيا فلتباشري بالقراءة متحمسة جداً لسماعها

وباشرت توليب الأبيات بالقراءة :

كنا معاً ... تشابكت أيدينا كما قلبينا
وسط الشارع المزدحم تعانقنا
على الرصيف المقابل كانت بائعة ورد
وإليها مضينا
أهداني زنبقة صفراء ... نظرت إليها ونظرت إليه
لماذا صفراء ؟! هل احترق الحب .. أم نحن الذين احترقنا
لا أعلم ... لا أعلم ... لا أعلم

وهنا انتهت توليب من القراءة ، وسألت السيدة أسيل عن رأيها، فأجابتها الأخيرة:

-كلام جميل لكنه محبط قليلاً، أتعلمين أحياناً يسمى التوليب بالزنبق، والتوليب الأصفر يرمز إلى الحب بدون أمل، وهو بنظري من أقسى أنواع الحب، كأن تحب شخصاً وتعلم تماماً بأنه لن يكون لك، وأنه ما من فرصة لنجاح ذلك الحب، لكنك مع ذلك يبقى في قلبك شيئاً منه

وهنا قاطعتها توليب سائلة السيدة أسيل:

-وهل خبرت الحب يوماً يا سيدتي؟

فأجابتها السيدة أسيل ولمعة حزن خاطفة قد مرت في عينيها:

-نعم خبرته لمرة واحدة فقط في حياتي

-مرة واحدة !! أيعقل يا سيدتي، اعذريني فقد ظننت بما أنك فنانة ولك الكثير من المعجبين لابد وأنك قد قابلت الكثير من الأشخاص في حياتك، ووقعت في الحب لأكثر من مرة

-أنت قلت معجبين، طوال مسيرتي الحافلة لم يستطع إلا شخص واحد أن يفتح أبواب قلبي المقفلة، كان من عائلة مرموقة في إسطنبول، قضيت أوقاتاً رائعة معه، أوقات خبرت فيها الحياة من جديد، أغدقني بحبه وهيامه، وأنا أصبحت متيمة به، لكن تلك الأيام الوردية سرعان ما انتهت، فقد دعاني يومها إلى العشاء، وبالفعل ذهبت، رأيته هادئاً وبارداً على غير عادته، كان حزيناً جداً، سألته ما الخطب، فأخبرني بأن على قصتنا أن تنتهي، لازلت أذكر الموقف جيداً، عندها صرخت من الفزع والذهول لماذا؟ حتى رواد المطعم قد نظروا إلينا، فسألت عن السبب، فقال لي بأن عائلته ضغطت عليه ليتركني، فأنا بنظرهم فتاة دون المستوى، أظن بأنهم كانوا يحسبونني عاهرة، فقلت له وأنت ما رأيك، فأجابني بوقاحة سيحرمونني من الميراث إن بقيت معك، أرى أنه لابد لنا من الانفصال، فعائلتي لها مكانتها في هذه المدينة، أنت فتاة جميلة ومشهورة، ستجدين يوماً من يستحقك أكثر مني، عندما سمعت منه تلك الكلمات، أتدرين ماذا فعلت لتلك الإهانة؟ قمت بسكب النبيذ الموجود في الكأس على قميصه، هههههه على طريقة الأفلام التي أقدمها

-يا له من رجل وقح، لوكنت مكانك لفعلت أكثر من ذلك

-هههههه لا عليك من هذا، كانت مرحلة من حياتي وانتهت، والآن اعذريني توليب أريد أن أنام الآن

-حسناً سيدتي، وأنا أعتذر إذا تدخلت في خصوصياتك

كانت توليب تعلم بأن السيدة أسيل لن تنام الآن وإنما كانت حجة لتداري حزنها، كانت تعلم بأنها الآن ربما تكون جالسة تتذكر حبها، أو ربما يمكن أن تكون في نوبة بكاء حادة، فمن خلال عمل توليب في تلك الدار، ومع تعاملها مع أصناف مختلفة من الناس ، باتت تعرف لغة العيون، فهي تعلم إن كان الشخص سعيداً بالفعل، أم أنه يخفي حزنه وانكساره امام ابتسامته الزائفة التي تعلو وجهه ، والذي حصل اليوم مع السيدة أسيل أكد حدسها ، فهي كانت تؤمن بأن للإنسان حياتان ، حياة ظاهرية ، وحياة كاملة في قلبه، فالسيدة أسيل مثلاً لطالما كانت تبدو سعيدة وبكامل لياقتها، لكن في قلبها حياة يعمها الخراب والأسى .

لدى خروج توليب من غرفة السيدة أسيل، سمعت أصوات جلبة وصراخ من الغرفة المجاورة، فذهبت لتستطلع الأمر، فإذا برجل عجوز في السبعين من عمره، يصرخ على الممرضين الذين أدخلوه لتوه إلى الدار، ويحاول أن يبعد أيديهم عنه، فيما هم كانوا يحاولون تهدئته وإجلاسه على سريره ، كان وافداً جديداً إلى الدار ، ففكرت توليب ما خطب هذا الرجل، ومن الذي أحضره إلى هنا بما أنه يرفض فكرة البقاء والمكوث في هذا المكان ، ولكن على الرغم من غضبه وهيجانه إلا أنه بدا لتوليب بأنه رجل ذو وقار وهيبة، بقبعته

المصنوعة من الجوخ الأسود والمحاطة بجلد لماع ،بالإضافة إلى سترته الأنيقة وحذاءه النظيف ، وفيما كانت تنصت لصراخ الرجل ، استوقفت الموظف المسؤول عن الوافدين الجدد والذي كان بدوره أتى ليتفقد الساكن الجديد، فسألته توليب :

-هيه أستاذ مصطفى من هذا الرجل ؟؟ ولماذا يصرخ بهذه الطريقة، أشفق قلبي عليه يبدو أنه جاء إلى هنا رغماً عنه، هل تعرف شيئاً عن قصته؟

-هذا السيد ناظم، وقد جاء اليوم صباحاً إلى هنا، رجل وقور وله احترامه لدى الطبقة الراقية، أما عن سبب صراخه فما زلت لا أعرف ما الموضوع، إنما جئت لأستطلع الأمر بعد أن اتصلوا بي الممرضين المسؤولين عن إدخاله إلى الغرفة

-هكذا إذاً، ترى ما أمر هذا الرجل

عادت بعدها توليب لتتفقد أحوال الآخرين من متقدمي السن، وهي لا زالت تفكر بالرجل الغريب، الأمر الذي أنساها تماماً أمر تلك الرسائل الغامضة.

وعندما انتهت مناوبتها في الدار، وفيما كانت توضب حقيبتها للمغادرة، فكرت أن تجرب حظها مع السيد ناظم، فقررت المرور على غرفته قبل أن ترحل، مشت باتجاه غرفته وهي مرتبكة قليلاً، فهذه أول مرة ستتعامل مع هذا النوع من كبار السن، لاسيما وأن مسؤولي الدار أعلموا الموظفين من ممرضين وغيرهم أن يعتنوا بالسيد ناظم عناية خاصة، وأن يؤمنوا له جميع مستلزماته، وأن يحرصوا على راحته.

اقتربت من باب غرفته، كان الهدوء يعم المكان ، وضعت توليب أذنها على الباب، لتر فيما إذا كان هناك صوت، أصاخت السمع جيداً ، لكنها لم تسمع شيئاً، فظنت بأنه نائم، لذلك لم تشأ أن تطرق الباب، فبدأت بفتح الباب بكل هدوء وببطء، وتدعو في سرها ألا يكون صرير الباب قد وصل إلى مسامع السيد ناظم، كانت تريد أن تلقي نظرة عليه، فهذا الرجل قد أثار فضولها بشكل غريب، وما إن فتحت الباب حتى وجدته جالساً على كرسيه الخشبي الهزاز، بجوار النافذة التي يغطي معظم زجاجها أغصان شجرة الكينا، كان يبدو عليه أنه غارق في تفكيره، سارحاً بنظراته نحو السماء، وعندما انتبه بأن شخصاً ما يراقبه، فتح عينيه فرأى توليب واقفة في مدخل الغرفة، والتي بدورها قد أجفلت لدى رؤيتها لنظراته الحادة التي كان يرمقها بها ، فقالت معتذرة وقد تخضب وجهها من الموقف المحرج التي وضعها فضولها به

-آسفة جداً لاقتحامي غرفتك دونما استئذان، ظننتك نائماً فلم أشأ إزعاجك

فقال لها بنبرة يشوبها الغضب والحنق:

-اغربي عن وجهي يا آنسة

الأمر الذي زاد من إرباك توليب، فخرجت من الغرفة مسرعة دون أن ترد على كلام السيد ناظم، فلم تدر ماذا تقول، وفيما كانت تغلق باب غرفة السيد ناظم ومن شدة اضطرابها لم تنتبه للشخص الذي كان يهم بدخول

الغرفة فارتطمت به بقوة فصرخت فزعة، وعندما فتحت عينيها رأت أمامها شاباً قدرت عمره في أواخر العشرينات، يملك عينين فاحمتين جميلتين وبشرة مائلة إلى السمرة، ولحية غير كثيفة من لون عينيه مما كان يعطيه مظهراً جذاباً، بقيت توليب للحظات تحدق في وجه الشاب لكنها انتبهت إلى نفسها ورتبت خصلات شعرها ووقفت باستقامة وتوجهت بكلامها إلى الشاب الذي كان ينظر بحيرة إليها:

-أنا أعتذر لم أنتبه أن شخصاً واقفاً أمام الباب، لقد كنت مرتبكة قليلاً اعذرني

وقبل أن يرد الشاب عليها بادرت بسؤاله:

-عفواً ولكن من تكون، هل أتيت لتر السيد ناظم، هل أنت ابنه أم أحداً من معارفه

فأجابها الشاب الذي تعجب من تصرفات الفتاة فأجاب بفتور:

-السيد ناظم يكون صديق والدي، وقد أوصاني والدي به

-حقاً !! إذاً هل لك أن تخبرني قليلاً عنه، فأنا أعمل هنا

-حسناً سأخبرك، السيد ناظم رجل وحيد، لقد توفيت زوجته منذ حوالي الشهرين، لديه ولدين ولكنهما مسافران إلى أمريكا، وقد ألحا على والديهما بالسفر إلى هناك والعيش مع أسرهم ، إلا أنه أبى الذهاب، وقال لهما بأنه من المستحيل مغادرة موطنه، وهو أيضاً لم يحبذ فكرة العيش في تلك البلاد، لقد حاولوا إقناعه كثيراً، لكنه بقي مصراً على رأيه، والداي في محافظة أخرى

وأنا الوحيد في إسطنبول، كنت أزوره كل يوم، لكن أموره كانت مزرية بالفعل بعد وفاة زوجته، وحرصاً على ألا يبقى لوحده وللعناية بصحته اقترحت عليه المجيء إلى هنا، وبعد عدة محاولات مني لإقناعه، رضي أخيراً بالمجيء، لكنني أتفاجأ اليوم وأتلقى اتصالاً من الدار يخبرونني فيه كيف جرت الأمور معهم اليوم مع السيد ناظم، وكيف أنه شتم الموظفين وحاول إبعادهم عنه

-نعم حقاً لقد رأيت ذلك، حزنت لأجله

وهنا أصبحت نبرة توليب أكثر تهكماً:

-أوصاك والدك به، فأقنعته بالذهاب إلى دار المسنين، يا للعجب

لم يعجب الشاب الكلام الذي قالته توليب فأجابها محتداً:

-انتبهي إلى كلامك يا آنسة، قلت لك بأنه صديق والدي وليس والدي شخصياً، لذا أرجوك ألا تتخطي حدود الاحترام معي

فغضبت توليب لتلك الإهانة، وكادت أن تصرخ في وجهه إلا أنها تمالكت أعصابها في اللحظة الأخيرة:

-اسمع يا هذا لا أسمح لك بالتكلم معي بهذه الطريقة، كنت أستفسر لا أكثر، أشفقت على الرجل فقط هذه كل ما في الأمر

-أنا شاب غير متزوج، وأسكن لوحدي، فضلاً على أنني صحفي، لا يوجد لدي الوقت للاعتناء به، لا تقلقي فأمره يعنيني أكثر منك، كفاك تحقيقاً لا أحب الناس الفضوليين لاسيما وإن كنّ فتيات

لم تحتمل توليب كلام ذلك الشاب المستفز للأعصاب، فمضت غاضبة قبل أن يتحول الجدال إلى شجار قاطعة الطريق على الشاب كي لا يتمادى في كلامه أكثر، وبعد أن أصبحت خارجاً زفرت زفرة طويلة وهي تقول لنفسها:

-شاب أحمق مغرور، من يظن نفسه كي يحدثني بهذه الطريقة الفظة، يا إلهي ما هذا اليوم المشؤوم، شاب أحمق و رجل غريب لم أفهم سلوكه، لأنسى الآن أمر ذلك الشاب المتعجرف، أما السيد ناظم فلن أدعه وشأنه حتى نصبح صديقين كما جميع كبار السن هنا، صحيح أنه صعب المراس لكن لا بأس فهذا يزيد الأمر تشويقاً وإثارة وسيرى من هي توليب، لكن لحظة ما كان اسم ذاك الشاب، الغبي لقد أخبرني بقصة حياته ونسي أن يقول اسمه مهلاً حتى أنه لم يسألني عن اسمي أيضاً، أخبرته بأنني أعمل هنا ومع ذلك لم يسألني، هههههه حقاً أحمق .

وكما في كل مساء عادت توليب أدراجها نحو منزلها، وما أن وصلت إلى عتبة الباب، وفيما كانت تخرج مفاتيح الشقة من حقيبتها، حتى رأت ظرف رسالة ملقىً على السجادة الصغيرة المفروشة أمام العتبة ، كان الظرف يشبه الظرف الذي وصلها البارحة في الدار، بل كان نسخة مطابقة له، فانحنت توليب والتقطت الظرف، كانت سعيدة ومتلهفة لقراءة المحتوى، لكنها في نفس الوقت بدت خائفة وقلقة أيضاً فمشاعرها متضاربة متفاوتة إزاء تلك الرسائل، سعيدة لأنها علمت أن شخصاً ما يهتم لأمرها، والكلام الرقيق الذي يكتبه لها كان يداعب مشاعرها، وخائفة لأنها فكرت ربما يكون

صاحب الرسائل مجرد متحرش منحرف، المهم فتحت توليب الرسالة وكما الرسالة الأولى أثارت الكلمات إعجابها مرة أخرى :

أزيلي غبار الحزن عن عينيك
عيناك عسليتان جميلتان
سأمسح دمعهما بيدي
وسأطبع على جبينك قبلة
تنسين معها الآلام
دعي شرفات قلبك مفتوحة
آن لنور الحياة أن يتسلل إليها
قلبك جميل فلا تغلفيه بالسواد
روحك أجمل فلا تشويهيها بالحداد
آن لك أن تخرجي من قوقعة أحزانك
أرجوك غادري زواياك القاتمة
فسأكون بلسماً لجراحك
واسمحي لي أن أكون حارس فؤادك
فأنت قدري
وحبي الأبدي
يا كل قلبي

12201703

بدأت علامات الاستفهام تتراكم في رأس توليب، من هو صاحب الرسائل، وماذا يريد وهل هي تعرفه، وغالباً هو يعرفها تماماً فليس هناك مجال للشك، إذ أن الكلمات الذي يوجهه لها تمس شخصيتها، وكأنه يعلم بهمومها وأحزانها، وماذا تعني **12201703**، ماذا تعني تلك الأرقام، وإلى ماذا تشير، هل هو صندوق بريد هل هو رسالة مشفرة، هل هو رمز لدولة ما، كل تلك الأسئلة سببت الصداع لتوليب، كانت قد وقفت لمدة طويلة أمام باب منزلها، وضعت الرسالة في الجيب الصغير لحقيبتها ودخلت إلى منزلها ن وهي تتأفف وتحدث نفسها:

-وماذا بعد، إلى متى ستبقى تلك الرسائل تصل إليّ، لماذا يصر صاحبها على تعذيبي بتلك الطريقة، إذا كان يحبني فلماذا هو مختبئ، عليه إظهار نفسه أولاً، وماذا بعد، وماذا بعد ....

الفصل الثامن

طال انتظار ليلى طويلاً ، لم تكن تتوقع أن تمكث إلى هذا الوقت لدى عائلة أبي محمد، فها قد مرت عشرة أيام كاملة منذ وصولها إلى مدينة إدلب، كانت تظن خلال يومين ستكون عند الحدود التركية السورية ، لكنها على سذاجتها تلك لم تكن تعلم أن الأمور أعقد بكثير، وأنها ليست بالبساطة التي كانت تتخيلها ، إلى الآن لا أحد يعلم بقصتها سوى أبي محمد، وهو بدوره احترم رغبتها في التكتكم على الموضوع الذي جاءت لأجله إلى هنا، على الرغم من فضول عائلة أبي محمد إلا أنه نجح بعدم الإفصاح عن الذي حصل معها ومع ذلك كانت أسرته جد لطيفة في تعاملها ، فقد كانت بنات أبا محمد يصطحبن ليلى إلى كل مكان يذهبن إليه وذلك بهدف الترويح عن نفسها، اصطحبنها إلى حقول المدينة، تلك الحقول المزدانة بأشجار الزيتون والتفاح والسفرجل، بالإضافة إلى حقول الزعتر البري والكركم، كن يجلسن على التلال العالية على الصخور الكبيرة التي كانت تغطيها الطحالب الجافة ، والتي تتيح إطلالة رائعة للشمس عند المغيب، أعجبت ليلى بالطبيعة الساحرة وبأسلوب الحياة هناك، كانت تراقب النساء وهن يصنعن خبز التنور وخبز الفليفلة والذي يسمى هناك حسب اللهجة المحلية بال " المحمّرة "، وما إن يخرجن الرغيف من فوهة التنور حتى تفوح رائحة زكية تشعرك بالجوع، صحيح بأن الأفران الآلية موجودة ، لكن مثل تلك الأكلات يبقى لها مذاق خاص فيما لو صنعت في التنور لاسيما وإن غمستها بزيت الزيتون البلدي، ومع ذلك كانت ليلى

تترقب حلول المساء كل يوم ، فهو وقت عودة أبا محمد إلى البيت، كانت تنتظر بفارغ الصبر اليوم الذي سيخبرها بأن وقت السفر قد آن، وبالفعل لم يكن ذلك اليوم ببعيد جداً، ففي اليوم الحادي عشر من مكوثها هناك، وبعد تناولهم لطعام العشاء، دعاها أبو محمد للحاق به إلى غرفة الضيوف، قفز قلب ليلى من مكانه لدى سماعها أبا محمد وهو يناديها، دخلت إلى الغرفة الكبيرة والتي يزين صدرها سيفان متقاطعان قد علقّا على الحائط وبندقية صيد، بالإضافة إلى طاولة كبيرة وقد وضع فوقها دلّات قهوة مصنوعة من النحاس الأصفر بمختلف الأحجام وصحن كبير وضع فيه حبات بن محمص لم تطحن بعد، توجه أبو محمد بالكلام إلى ليلى :

-اسمعيني يا ابنتي، اليوم وبعد طول انتظار التقيت بأحد مهربي الحدود الذين أعرفهم وسبق أن تعاملت معه، هو رجل شجاع لا يخاف من شيء ويمكننا الاعتماد عليه، غداً مساءً سيأتي إلى هنا وسيصحبك معه، لا تخافي فهو رجل شريف ولم يخذل أحد من قبل، وقد اتفقت معه على جميع التفاصيل، ودفعت له سلفاً

-لكن يا عمي أنا لدي النقود اللازمة لسفري، صحيح أن المال ليس كعملة ورقية لكن لدي بعضاً من المصوغات

-ما هذا الكلام يا ابنتي، أنت ابنة أعز صديق لدي، وهذا واجبي الأخير تجاهه أما عن المصوغات فلا بد وأنك ستحتاجين إلى الكثير من المال، المشكلة لا أعرف كم سيكلفك الوصول إلى إسطنبول بعد اجتيازك

للحدود، لذلك سآخذ بعضاً من تلك المصوغات وسأبيعها، والمال الذي سنحصل عليه سنصرفه إلى الليرة التركية عند أحد الصرافين في المنطقة، المهم غداً مساءً كوني مستعدة

-عمي أنا عاجزة عن شكرك، أنا ممتنة لك جداً، أشكرك ،أشكرك من كل قلبي

-لا شكر على واجب فأنت ابنتي أيضاً، بالمناسبة نسيت أن أخبرك، البارحة كنت في بلدتك، لكن لم أشأ إخبارك بذلك لأن موعد السفر كان مجهولاً بعد ، واليوم وبما أنك ستسافرين غداً ارتأيت أن أعلمك

اضطربت ليلى قليلاً عندما سمعت ببلدتها، وتسارعت دقات قلبها بفعل التوتر، فلاتزال صفعة عمها تؤلمها من الداخل، ولاتزال كلمات جدتها القاسية ترن في أذنيها، لكن انتهى كل شيء الآن، انتهت تلك الكوابيس المزعجة، فها هي مسافرة غداً ولم يعد يهمها من تلك الأحداث المؤلمة شيء، وهنا تابع أبو محمد كلامه:

-لقد تمشيت في شوارع البلدة، طبعاً حرصت على ألا يراني أحد من أقربائك فمعظمهم يعرفني، المهم سألت بعض الجيران عن أحوال جدتك خديجة، أخبروني مع الأسف بأنها تعرضت لنوبة قلبية، لكنها نجت منها، وهي الآن بصحة جيدة، لقد أخبروني بأنها فقدت صوابها منذ هروبك، ولا تستقبل أحداً في منزلها، فأنت كما يقولون قد ألحقت بهم الفضيحة والعار، وبعض النساء الثرثارات يحكين بأنك قد هربت مع عشيقك، والمضحك

بالفعل بأن تلك النسوة أقسمن على أنهن شاهدنك وأنت هاربة مع حبيبك، ولايزال عمك يبحث عنك في كل مكان.

-شيء مضحك بالفعل، مع الأسف هذا شيء متوقع، فلا شيء جديد، هناك الثرثرة لا تنتهي، وتصبح للقصة الكثير من التأويلات والسيناريوهات أما عن جدتي من الجيد أنها نجت، أريدها أن تبقى على قيد الحياة لتراني أحقق حلمي، وليدركوا الخطأ الفادح الذي ارتكبوه بحقي، شكراً لك يا عمي على إخبارك لي، والآن اعذرني يجب أن أحزم حقيبتي.

مضت وهي حزينة بعض الشيء، فهي ستخوض مغامرة صعبة وشاقة، وربما أصعب من أن تتحملها، ولكن بنفس الوقت كانت بكامل سعادتها لتجمع أغراضها، فغداً ستمشي أول خطوة باتجاه أحلامها.

مرت ساعات الانتظار بطيئة ثقيلة على ليلى، فهي لم تعرف كيف طلعت شمس الصباح في غمرة أفكارها وقلقها وأحلامها، فقد قضت الليل بطوله تتخيل نفسها وهي في إسطنبول، وتتساءل كيف يا ترى هو العم شكري، أهو لطيف كما حكت عنه جدتها نظلي، وكيف هي إسطنبول نفسها ببحرها وبوسفورها وشوارعها الجميلة، ثم تخيلت كيف سيكون المرور عبر الحدود، هل سيكون شاقاً طويلاً وعراً، أم أن الطريق أسهل بكثير مما تظن، وأنها تبالغ في تصوراتها وتخيلاتها كما هي حالها دائماً، فمنذ صغرها وخيالها يسرح بعيداً، بعيداً وبسرعة كبيرة .

وبما أنه كان اليوم الأخير لها في ضيافة أبا محمد وعائلته فقد أعدوا على شرفها غداءً مميزاً، فيه مما لذ وطاب من أصناف الأطعمة كوداع أخير قبل المضي في رحلتها، أما ليلى فلم تتوانى عن شكرهم وإظهار امتنانها لهم.

وفي حلول الساعة التاسعة مساءً حضر المهرّب الذي سيقود ليلى ومجموعة من الناس الآخرين إلى تركيا، كان المهرّب والذي يدعى خالد رجلاً ضخم الجثة ، بشعر كث ولحية يبدو عليها الإهمال، وثياب لابأس بها تبدو مناسبة تماماً لرحلتهم المنتظرة ، ثم قامت بتسليم حقائبها إلى خالد الذي كان يتكلم مع أبا محمد خارجاً للاتفاق على بعض التفاصيل ، كان أبا محمد وكما أخبرها سابقاً قد دفع جميع تكاليف الرحلة إلى خالد، وقام بنقده بعضاً من المال الإضافي كي يعتني عناية خاصة بها ، أما ليلى فودعت عائلة أبا محمد وكررت شكرها لهم على حسن ضيافتهم لها ، ثم حان الوقت أخيراً لتوديع أبا محمد ، فقامت بتقبيل يده وقالت له :

-لن أنسى معروفك هذا ما حييت، ربما هذه آخر مرة سأراك فيها لكنني لن أنساكم ولن أنسى إحسانكم لي.

-لا تتكلمي بهذه الطريقة يا ابنتي، أرجو لك رحلة موفقة، والآن خذي هذه النقود، فهي ثمن المجوهرات التي أعطيتني إياها، إلى اللقاء يا ابنتي

-أريد دعاءك يا عمي، إلى اللقاء

ثم صعدت ليلى إلى الحافلة الصغيرة حيث أن المهرب صعد قبلها وقد كان بانتظارها، حيث أنها كانت الراكب الوحيد بداخلها، فنقطة الانطلاق

ستكون من بلدة حزانو الواقعة في ريف إدلب، أغلق المهرّب الأبواب وانطلقت السيارة بهما، وكانت ليلى لاتزال تلوح بيديها مودعةً أبا محمد الذي كان بدوره لايزال واقفاً في الخارج، نظر خالد إلى ليلى والتي كانت نظراتها تنم عن قلق وتوتر واضحين، فأراد أن يطمئنها من مخاوفها فقال لها:

-أظن بأنك قلقة بعض الشيء من هذه الرحلة، لا تخافي فالطريق ليست كما تتخيلينها، إنها آمنة تماماً، علاوةً على أنني أعمل في التهريب منذ عشر سنوات، لذا لا داعي لفزعك، ستصلين إلى تركيا دون أن يصبك خدش واحد هذا وعد مني، إلا أنها لم ترد عليه بشيء فقد آثرت الصمت، فلم تكن بمزاج جيد للحديث، بل أخذت تحدق في الطريق الذي يلفه الظلام وتتساءل في سرها متى سنصل إلى نقطة الانطلاق، عندها قام خالد بتشغيل مذياع السيارة ليسلي نفسه ريثما يصلون إلى البلدة، فانطلقت أغنية حلوة يا بلدي لداليدا، هنا تنبهت ليلى لكلمات الأغنية وكأنها تسمعها للمرة الأولى، فأنصتت باهتمام إلى مقطع الأغنية الذي يقول:

كنا منقول إن الفراق دا مستحيل

وكل دمعة نزلت على الخدين كانت بتسيل

فانحدرت دمعة على وجنتيها، وسارعت إلى مسحها كي لا يتنبه إليها خالد، فقالت له وهي بالكاد كانت تستطيع الكلام من إثر الغصة التي ملأت حنجرتها:

أرجوك أيمكنك أن تطفئ المذياع أو أن تقلب على محطة أخرى
استغرب من طلبها فانصاع لها حرصاً على راحة زبونته، أما ليلى فراحت كلمات الأغنية تعاد في ذاكرتها، وكأن المذياع لايزال يبث الأغنية في عقلها، فهي برغم كل الذي لاقته في بلدتها إلا أنه تحبها وتحب موطنها، لم يكن الفراق سهلاً عليها، لكن الظروف كانت أقوى منها ، فكرت كثيراً قبل إقدامها على الهروب، لكن ما بيدها حل آخر، وهي تعلم تماماً مدى الصعوبات والمشاق التي ستلاقيها ، لكن لم يكن يوماً طريق الأحلام ممهداً لأي شخص في هذا العالم ، طريق الأحلام طريق وعر ولزاماً علينا أن نمشي عراة الأقدام فوق أرضه التي بالتأكيد ستجرح أقدامنا وسيسيل دمنا مع كل خطوة سنخطيها وسنعاني من تقرحات نفسية وجسدية هذا شيء أكيد، لكن ما من لذة تعادل لذة الانتصار في النهاية، ولذة الاستمتاع بتحقيق أحلامنا .

أخيراً وصل كلاً من ليلى وخالد إلى بلدة حزانو ، فقام خالد بإخراج حقائب ليلى وطلب منها النزول والانتظار قليلاً ريثما يتم تنظيم صفوف العائلات المتزاحمة هناك، دهشت ليلى للعدد الكبير من الناس المتجمهرة، فإذاً هي ليست الوحيدة في رحلتها تلك وليست الوحيدة التي ستسلك ذلك الطريق الأمر الذي آنسها قليلاً ودب فيها الحماس من جديد، ومن خلال أحاديث الناس الواقفة فهمت أنه من بين هؤلاء تجار السوق السوداء ، الذين يهربون مختلف المواد والبضائع من وإلى تركيا، ومنهم عائلات تقطن في تركيا إلا أن

مسقط رأسهم سوريا ويأتون أحياناً لزيارة أقربائهم أو لحضور المناسبات الاجتماعية ، بالإضافة إلى شباب في مقتبل العمر يريدون الذهاب إلى هناك للبحث عن فرص العمل .

وبعد مرور حوالي نصف ساعة من الانتظار أتى خالد وطلب إلى ليلى وزبائنه الذين سيقودهم خلال الطرق الوعرة الصعود إلى الحافلة الذي هو سيكون سائقها ، فامتثل الجميع لأوامره ، انطلقت الحافلة في جنح الظلام وفي هذه الأثناء جلست ليلى بجانب امرأة عجوز وأخذتا تتبادلان الحديث، فتلك المرأة والتي تدعى إيمان سيدة أرملة و تسكن في تركيا منذ قرابة الثلاثين سنة، وقد جاءت إلى سوريا لتقوم بواجب العزاء إزاء أختها الذي توفي زوجها حديثاً، سألت السيدة إيمان ليلى ما الذي جاء بفتاة صغيرة إلى هنا وسألتها عن اسمها وعائلتها، مع أن السيدة إيمان كانت كثيرة الكلام وثرثارة إلى حد ما لكنها مع ذلك كانت إنسانة بسيطة جداً وعفوية، تذكرت ليلى من خلالها جدتها نظلي التي اشتاقت لها كثيراً، فقامت بسرد قصتها كاملة على مسامع السيدة إيمان والتي تفاعلت مع القصة تماماً، وقد فهمت ليلى ذلك من خلال تعابير وجه السيدة التي ما فتأت وهي تقول: ماذا؟!! ولماذا هكذا إذاً مسكينة يا بنتي، فتاة شجاعة، فليكن الله في عونك.

أحبت ليلى السيدة إيمان كثيراً ، صحيح أنها تعرفت إليها تواً لكنها شعرت بأن تلك السيدة ستكون رفيقة جيدة ومؤنسة خلال السفر ، وبعد ذلك

وهما في غمرة حديثهما توقفت الحافلة، وطلب خالد من المسافرين النزول، كانوا قد وصلوا إلى ساحة كبيرة ستكون نقطة الانطلاق، وبعد نزول الركاب بدأ خالد بتوجيه التعليمات اللازمة للأفراد والعائلات، إلا أن لهجته كانت غاية في الغلظة والجفاء، الأمر الذي فاجأ ليلى، فلم يكن خالد الواقف أمامها الآن هو نفسه الذي كان معها في السيارة منذ قليل، المهم وبعد انتهائه من سرد التوجيهات عمد إلى توزيع عقار منوم للعائلات التي تحمل أطفالاً معها، وذلك كي ينام الأطفال خلال الطريق خوفاً من أن يبدؤوا بالبكاء والصراخ خلال المسير ، الأمر الذي سيشكل خطراً سواء أكان على المهرب أو على المسافرين، لأن الشرطة التركية المنتشرة على طول الحدود ستكون لهم بالمرصاد، فإذا ما سمعوا صراخ الأطفال سيأتون فوراً ويقومون بإلقاء القبض على هؤلاء الناس وحجزهم لديهم بغية ترحيلهم وإعادتهم إلى سوريا مجدداً، عندما شاهدت ليلى علب الدواء في يده كم استنكرت ذلك الأسلوب الشنيع ولكن للضرورة أحكام على حد قول خالد الذي ما برح وهو يحذر مراراً وتكراراً من حرس الحدود أو كما سماهم بالجندرما، الأمر الذي جعل قلبها يرتجف من الخوف كلما سمعت بكلمة شرطة .

ثم وأخيراً وبعد الكثير والكثير من التوجيهات حانت ساعة الانطلاق، كانت الوقت قد تجاوز منتصف الليل، والظلام لايزال مرخياً بستائره على المنطقة، لم تترك السيدة إيمان يد ليلى فهي الأخرى قد اتخذت من ليلى رفيقة لها أيضاً، فالسيدة إيمان رأت أن بإمكان هذه الفتاة التعسة

مساعدتها على المسير خلال طرق الجبال القاسية والمحفوفة بالمخاطر والمطبات الجبلية، وما إن بدأ المسير حتى بدأت المعاناة الحقيقية ، فطرق الجبال ليست سهلة، فمثلما فيها انحدارات منخفضة، فيها أيضاً تلال مرتفعة بنفس الوقت ، بالإضافة إلى الصخور والحجارة المختلفة الأشكال والأحجام، بدأت الناس تمشي وتمشي ، كان طريقاً يشبه الجحيم بكل ما للكلمة من معنى ، فتارةً يطلب المهرب من المسافرين المشي بسرعة ، وتارةً أن يتمهلوا في خطواتهم وتارةً يضطرون فيها للركض، وأحياناً الزحف على الطين والأشواك، وتارة أخرى الجلوس في أماكنهم ريثما تمر دورية الشرطة، كانت السيدة إيمان من أشد المسافرين الذين عانوا في تلك الرحلة، فهي كبيرة في السن ويصعب عليها الركض والزحف، كانت تلتقط أنفاسها بصعوبة بالغة وهي تلهث من شدة تعبها وإعيائها، إلا أن ليلى والتي غرق حذاءها في الطين وقد اضطرت إلى تركه في بركة الوحل لأنها لم تكن تريد أن تتخلف عن مجموعتها، فقطعت نصف الطريق بقدم عارية يغطيها جورب ممزق وقدم أخرى بحذاء شارف على الاهتراء، كانت تساعد السيدة إيمان وتشجعها وتستثير همتها كلما قررت السيدة إيمان التوقف، كانت تجرها وأحياناً تسندها على كتفها، الأمر الذي زاد من مشقتها، ولكن بالمقابل كانت السيدة إيمان تهدئ من روع ليلى كلما سمعت نباح كلاب مجهولة لم يتبين منها إلا صوتها المخيف، والأمر الذي فطر قلب ليلى هو رؤية أب يحمل ولده المعاق على ظهره وقد اضطر أن يعود أدراجه في منتصف

الطريق على سوريا لأن ابنه كان على وشك الموت من التعب والإنهاك ، كانت ليلى تنظر إلى الوجوه المتعبة سواء أكانوا صغاراً أم كباراً، وجوه قد أنهكها التعب والألم ، لم تدر أهو تعب الحياة المضني أم أنه تعب الطريق، لعنت خالد في سرها مئة مرة، ذاك الكاذب المخادع، والذي كذب عليها وعلى المسافرين بشأن الطريق ، فقد نقر رأسهم وهو يقول لهم بأن الطريق سهل وقصير وآمن ، يا له من محتال غشاش .

بعد مشي أكثر من ثمانية ساعات في تلك الجبال، كان عليهم الآن أن يجتازوا النهر، كان الطقس قارساً ، والريح الشمالية تلفح الوجوه كالسياط، وباتت شفاه الجميع جافة متشققة على الرغم من الأوشحة السميكة التي تغطي الرؤوس والوجوه على حد سواء ،أما عن النهر فقد كانت تعلوه قطع رقيقة من الجليد المتكسر ،كان مظهره جميلاً لكنه لم يكن بذاك الجمال بالنسبة للأجسام المرتعشة المتهيأة لعبوره والمتهيبة منه، نظرت كلاً من ليلى والسيدة إيمان إلى بعضهما مذعورتين من مشهد النهر الذي لم يكن عميقاً لكن بالتأكيد مياهه تجمد العظام ، لكن ما عساه للمرء أن يقول، عادتا فأمسكت كل واحدة منهما بيد الأخرى بكل قوتهما، اقتربتا من ضفة النهر وقامتا بحبس أنفاسهما ومضتا تعبران تلك المياه الباردة وهما تشهقان من درجة حرارة المياه المنخفضة، وبالمثل قام بقية المسافرين، لكن ولسوء حظ ليلى كانت تمسك حقيبة يدها التي وضعت فيها النقود والباقي من مجوهرات والدتها وبما أنها أمسكت بالسيدة إيمان بكلتا يديها

خوفاً من الانزلاق ، اضطرت إلى أن تضع حقيبتها بين فكي فمها ، إلا أن قوة التيار جعلها تشعر بوجود شيء يعبر من خلال قدميها لم تعرف أهي سمكة، أم عشب نهري أم هو مجرد تهيؤ تصورته نتيجة جزعها من المياه الباردة، الأمر الذي أرعبها كثيراً مما جعلها تصرخ عالياً، والذي انتهى بسقوط حقيبتها من فمها وتغرق في النهر، وسحبها التيار بعيداً بسرعة كبيرة، وبما أن الناس شأنهم شأن ليلى فالجميع كان مضطرب بفعل المياه ولم يفطن أياً منهم إلى حقيبتها، وهكذا سحب التيار الحقيبة مع كل ما كانت تمتلكه، أما خالد فقد بادر إلى إسكاتها فوراً، فبكت ليلى بكاءً مريراً ولكن دون أن يصدر عنها أي صوت وانهمرت دموعها حارة مرة أخرى، إلا أن السيدة إيمان سارعت إلى تهدئتها ووعدتها بأن باقي تكاليف رحلتها هي من ستتكفل بدفعها، لأنها رأت أنها السبب وراء ما حصل معها، فلولاها لم تكن ليلى لتمسك حقيبتها بفمها .

وبعد أن انتهوا من عبور النهر كانت هناك سيارة في انتظارهم، لم تكن أية سيارة بل كانت سيارة مخصصة لنقل الأغنام، ولكن قبل أن تهم ليلى بالصعود إلى السيارة، قام خالد بالنداء عليها وطلب منها الوقوف جانباً لبعض الوقت وقال لها:

-ليلى يتوجب عليك دفع المزيد من النقود لي الآن

فبهتت ليلى من طلبه، لاسيما وأنها الآن لم تعد تملك شيئاً، فأجابته:

-أدفع لك ؟! لكن لماذا ما السبب ؟؟ ألم يدفع لك أبو محمد جميع تكاليف رحلتي

-نعم صحيح، الواقع الأجور ارتفعت، لكنني خجلت أن أطلب منه المزيد، فلم أخبره بالأجر الحقيقي، لذلك رأيت بأن أطلب إليك أن تسددي الباقي

-لكن أنت رأيت ما حصل بعينك لقد سقطت محفظتي في النهر، وأنا الآن لا أملك فلساً واحداً

-هيه يا فتاة دعك من الأكاذيب الآن، لا بد وأنك تحتفظين بالقليل في ثيابك

-يا لك من وقح طماع، أقسم لك بأني لا أملك المزيد

-ادفعي لي وإلا سأعيدك إلى سوريا الآن

احتارت ليلى ماذا تصنع، فليس من اللائق الطلب من السيدة إيمان النقود، لاسيما وأنها ستدفع أجور نقلها إلى إسطنبول، فكرت كثيراً لكن مع الأسف لم يكن أمامها سوى حل واحد أخير، وهي هدية عيد ميلادها قلادتها الذهبية، كانت الشيء الوحيد الذي في حوزتها، كادت أن تجن لما ستقدم عليه، لكنها كانت قليلة الحيلة كما كان حالها دوماً، فنزعت قلادتها من على رقبتها ونظرت إليها طويلاً وهي في راحة يدها شعرت وكأنها انتزعت قطعة من قلبها، فهي الذكرى الوحيدة المتبقية لها من والديها ،حتى الصور التذكارية كانت قد غرقت في النهر وغرقت معها أجمل لحظات طفولتها، حاولت أن تحفر في ذاكرتها كل تفاصيل القلادة ، من الزهرة إلى

بتلاتها والأحرف المحفورة وحتى السلسلة ، قبضت على القلادة بقوة وقامت بتقبيلها كما الأشياء التي قبلتها في منزلها قبيل مغادرتها، وحدثت نفسها قائلةً وهي تنظر إليها :

-سامحاني ، أرجوكما سامحاني

وبعدها قامت بإعطاء القلادة إلى خالد الذي كرهته أكثر فأكثر واستحقرته على جشعه وطمعه، أما هو فبدا سعيداً بتلك القطعة الثمينة، ألم الرحلة كله ومشاقها لم يعادل ألم تسليمها لقلادتها.

عادت ليلى إلى السيدة إيمان والتي قد لاحظت تغير سحنة ليلى، فقد كانت عيناها تبكيان بصمت وحرقة، فعمدت تقول لها وهي تربت على كتفها:

-ما بك يا بنتي، كما أخبرتك منذ قليل لا تقلقي بخصوص المصاريف، اهدأي يا ابنتي كدنا أن نصل، هيا بنا علينا الصعود الآن إلى السيارة، فأنت لا تريدين أن نتأخر.

كانت رائحة الأغنام تفوح من السيارة وكأنها حظيرة للحيوانات، والناس مكدسون فوق بعضهم البعض، وكان سائق السيارة وهذه المرة مهرب تركي بدأ بقيادة السيارة برعونة وتهور، ثم وأخيراً وصلوا إلى كراجات أنطاكيا، ومن أنطاكيا استقلتا الحافلة التي ستوصلهما إلى اسكندرون، إذ من هناك ستذهبان إلى إسطنبول، سعدت ليلى كثيراً عندما علمت بأن السيدة إيمان ذاهبة أيضاً إلى إسطنبول إذاً فوجهتهما واحدة، على الأقل لن تضل الطريق أو تركب في الحافلة الخطأ.

بعد أن قامتا بتبديل ملابسهما في حمامات كراج الباصات، وبعد أن وصلا إلى مدينة اسكندرون، تفاجأت ليلى بأن السفر هذه المرة سيتم عن طريق البحر، فلطالما راق لها فكرة السفر البحري، لكنها لم تتخيل بأن أحد أحلامها أو لنقل إحدى أمنياتها ستتحقق الآن، فعندما كانت تشاهد الأفلام التي تعرض أحياناً التنقل عبر البحر، كانت تتخيل نفسها وهي على متن سفينة كبيرة بأشرعة بيضاء ضخمة ترفرف عالياً وتشق بمحركها الضخم عباب المياه.

طلبت السيدة إيمان سيارة أجرة لتقلهما إلى الساحل الذي تتواجد فيه سفن الانطلاق، وصلا إلى الميناء وقد كانت ليلى مستطلعة نهمة، إذ كانت دائمة النظر إلى ما حولها، فهي لا تريد أن تفوت تلك المناظر الجديدة كلياً عليها ، أصوات صفارات البواخر الممزوجة بخفيف الأشرعة ، قوارب صيد، يخوت الأغنياء، البواخر التجارية المحملة بالبضائع، بالإضافة إلى العبّارات المعدة لنقل الركاب والسياح ، أو حسب تعبير السيدة إيمان التي أسمتهم بالسفن المصغرة، حيث أنهما ركبا في واحدة من تلك العبّارات ، وكانت السفينة كما حال السفن الأخرى والقوارب إذ يزينها العلم التركي الذي كان يرفرف عالياً ، وكانت مقاعد المسافرين قد توزعت ما بين داخل السفينة بالإضافة إلى بعض المقاعد المنتشرة على شرفة السفينة ، وكانت معدة لمن يرغب في مشاهدة البحر عن قرب، وقد اتخذت السيدة إيمان مقعداً لليلى بجوارها في داخل السفينة، ولدى جلوسها انطلقت صفارة الانطلاق، وطلب

من الجميع اتخاذ مواقعهم، وبدأ الإبحار، إلا أن ليلى استأذنت السيدة إيمان، وطلبت الخروج إلى شرفة السفينة لتستنشق بعضاً من الهواء النظيف، فقد تعللت بأنها بدأت تصاب بدوار البحر، وبالفعل خرجت إلى الشرفة، وقد كانوا مبحرين في وسط البحر المتوسط، والمياه تحيطهم من كل الاتجاهات، فاقتربت ليلى من السور المعدني للسفينة، كان منظر البحر بديعاً لاسيما وأن الشمس كانت في أوج سطوعها ذلك اليوم ، فبدت الأمواج بلونها الذهبي البراق بفعل أشعة الشمس المنعكسة عليها وكأنها عباءة مصنوعة من خيوط الذهب والقصب اللماع يرتديها البحر بكل زهو وافتخار، نظرت ليلى إلى ذلك المشهد البديع ، فأغمضت عينيها، وبسطت ذراعيها فكأنها تريد أن تعانق هذا الملك المجلل بعباءته المخملية الزرقاء، وأخذت تستنشق نسيم البحر البارد والذي غلب عليه رائحة الملوحة الممزوجة بزبد الأمواج، أخذت نفساً طويلاً، كانت تريد لتلك الرائحة أن تتخلل إلى كل خلية في جسدها، مزيلة كل الأعباء من على كاهلها، أرادت في لحظتها فقط أن تنسى كل شيء، تنسى ذكرياتها الأليمة، تنسى واقعها الذي فرض عليها، تنسى الزمان والمكان وكل شيء ، فقط تريد أن تسترخي ولا تفكر بأي شيء آخر ، كانت قد تخيلت هذه اللحظة عدة مرات منذ اللحظة التي قررت فيها القدوم إلى إسطنبول، كانت تتخيل نفسها وهي في وسط البحر كما الآن وتكون في قارب صغير وتبحر لمسافات بعيدة ، بعيدة جداً، وتنظر فإذ خيال ضخم يظللها كقبعة لتفاجئ بأنه ظل جسر البوسفور التي

أصبحت أسفله الآن، والذي سيبدو لها ارتفاعه الشاهق وطريقة بنائه المبتكرة وهو يصل الجزئين الآسيوي والأوروبي ببعضهما ، وطبعاً النوارس المحلقة في الفضاء، وفيما كانت في استرخائها شعرت بيد تربت على كتفها، ففوجئت قليلاً وأفاقت من تأملها، وإذ بالسيدة إيمان واقفة إلى جانبها وقد وضعت يدها على كتف ليلى ، فحدثتها السيدة إيمان :

-لقد قلقت عليك، هل أنت بخير، آمل أن تكوني قد ارتحت قليلاً

-نعم أنا الآن أفضل، أشكرك كثيراً سيدتي، فلولا مساعدتك لكنت الآن في طريق العودة إلى موطني

-لا تتفوهي بهذا الكلام مرة أخرى، إذ بسببي غرقت حقيبتك في النهر وأنا مدينة لك، فقد ساعدتني كثيراً خلال الطريق

ثم ألقت السيدة إيمان نظرة على البحر، فاستطردت قائلة:

-منظر جميل أليس كذلك ، الكثير من الناس يظلمون البحر باعتبارهم أن البحر رمز للغدر، لقد ظلموا هذا الجمال بحكمهم هذا ، فالغدر لطالما كان من صنع الإنسان وحده، فالكثير منا نحن بنو البشر يملك هذا الطبع الشيطاني ، وأنا أعتقد أنهم منحوا هذه الصفة للبحر لتغطية أخلاقهم المزرية ، فالبحر بنظري مستودع أمين للأحزان والوعود والأسرار ودموع الناس والعاشقين على حد سواء المهم. الآن سأخبرك قليلاً عن الطريق، سنمر بدايةً من مدينة دورتيول ثم كوزوجولو وأخيراُ إرزين، وبعدها

سنكمل براً، وإلى ذلك الوقت أطلب منك الدخول والجلوس، فرحلتنا لاتزال في بدايتها ، أريدك أن تستريحي الآن حتى تستطيعين متابعة الطريق أعجبت ليلى بكلام السيدة إيمان، فلم تكن تدرك بأن هذه المرأة تحمل هذا الكم الكبير من الحكمة، انصاعت لطلبها ، فالسيدة أيمان أخبر منها بشؤون الطريق، فدلفت الاثنتان إلى الحجرة الداخلية للسفينة.

وبعد مضي أكثر من أربع ساعات من الإبحار في المركب ، كانت كلاً من السيدة إيمان وليلى على مشارف مدينة أضنا ، فرحلة البحر قد وصلت إلى نهايتها وعليهما الآن إكمال الطريق براً بواسطة الحافلات ، وفيما هما في طريقهما إلى الكراجات نصحت السيدة إيمان ليلى بشرب ماء أضنا ، مخبرةً إياها بأن الذي يزور هذه المدينة عليه أن يستمتع بتجربة شرب مائها، وأخذت تشرح لها عن تلك المدينة وكأنها قد تقمصت دور الدليل السياحي وليلى سائحة عندها، فأخبرتها بأن مدينة أضنا مدينة رائعة جداً وماء الشرب فيها بارد وعذب ،ولحسن الحظ كان يوجد برادات للمياه في محطة الحافلات ، جعلها أصحابها وقفاً كصدقة جارية لموتاهم ، فشربت الاثنتان حتى أتخمتا، وبالفعل كان الماء البارد منعشاً للغاية وقد ارتوى عطشهما ودبت فيهما الطاقة من جديد وبعدها قطعتا التذاكر واتخذت كل منهما مكانهما في الحافلة ، لم تنم ليلى طيلة الطريق منذ أن انطلقت الحافلة لعدة أسباب ، فالأول ألا وهو ثرثرة السيدة إيمان ، حيث أنها أكملت ما بدأته منذ أن كانتا في اسكندرون ، وعادت للكلام عن تفاصيل الطريق ، فأنشأت

تحدث ليلى والتي لم يكن لها أي خيار إلا الاستماع مرة أخرى لبقية التفاصيل المتعلقة برحلتهم

-عزيزتي ليلى أنصتي إلى ما سأرويه لك ، الآن أمامنا خمسة عشرة ساعة سفر قبل الوصول إلى إسطنبول، رقم ضخم لكن هذا الواقع ، والآن ستكون نقطة الانطلاق من مدينة أضنا ، وكما تلاحظين فإننا قد انطلقنا بالفعل ، وبعدها سنمر إلى مدينة إكسراي وهي منطقة باردة جداً ، ثم أنقرة العاصمة ومدينة بولو، فمدينة دوزجة الخضراء، مروراً بأطراف مدينة صقارية ثم مدينة صبانجة الجبلية ذات الخضرة الفائقة الجمال، آه يا لهذه المدينة الجميلة ففيها بحيرة أخاذة تسحر العين والعقل معاً، وبعدها سنعبر خلال مدينة جيزة القريبة من الطرف الآسيوي لإسطنبول والمحاذية لبحر مرمرة، وأخيراً العبور إلى مدينة إسطنبول الأوروبية من فوق جسر البوسفور والذي لابد وأنك سمعت به، وفي نهاية هذه الرحلة الطويلة جداً ستكون وجهتنا الأخيرة هي محطة الحافلات في منطقة إسنلر في إسطنبول ، وهكذا نصل بخير وسلامة إلى هناك .

دخلت ليلى في دوامة متشابكة معقدة لكثرة أسماء المدن التي عدتها السيدة إيمان، وبين الفينة والفينة تقول في سرها عندما كانت السيدة إيمان لاتزال تردد الأسماء على مسامعها:

-يا لهذه المرأة العجيبة و يا لذاكرتها الحديدية تلك، كيف لها أن تحفظ تلك التفاصيل الدقيقة بحذافيرها

هذا كان السبب الأول أما عن السبب الآخر لعدم مقدرتها على النوم فهو السيدة إيمان مجدداً ، ليس ثرثرتها هذه المرة وإنما صوت شخيرها المرتفع ، فقد أمضت نصف الرحلة وهي تثرثر وتتكلم والنصف الآخر وبعد أن تنتهي من الكلام تعمد إلى النوم والشخير المزعج ، مما جعل ليلى في حالة يقظة ، أما عن السبب الأخير فهو خاص بليلى وحدها ، فقد مضت تشاهد الطريق والذي تنوع ما بين المرور بين الجبال والغابات وأطراف المدن التركية ، إضافةً إلى أنها لم تنفك تفكر في مأزقها المالي ، فالآن ماذا في وسعها أن تفعل، وكيف ستستطيع تدبير أمورها، معلقة جميع آمالها على السيد شكري، وهذا الأمر أثار لديها قلقاً ومخاوف أخرى ، فكيف ستتصرف فيما لو لم تجد السيد شكري، ماذا لو أنه قد انتقل إلى مدينة أخرى، أو غيّر موقع مطعمه، وماذا لو أنه تقاعد عن العمل ، وأكثر ما كانت تخشاه أن يكون السيد شكري قد فارق الحياة منذ زمن بعيد، فهو ولابد وأنه سيكون كبيراً في السن، وشيئاً فشيئاً ضجرت ليلى من هواجسها تلك فدفعتها جانباً ، علّها تستطيع أن تنام ولو لفترة قصيرة، وعادت إلى مراقبة الطريق من جديد، وماهي لحظات قليلة حتى وصل النوم إلى عينيها، فالتعب والسفر قد استنزف كل قواها، وآلم كل مفصل وكل جزء في جسدها، وأخذت تغط في نوم عميق .

كان قد مضى على نوم ليلى عدة ساعات عندما ندّت عنها ارتعاشة خفيفة، وقد لاحظت السيدة إيمان ذلك إذ كانت مستيقظة وقتها، وفجأة أجفلت

ليلى وفتحت عينيها لتتبين المكان من حولها، فنظرت بعينين زائغتين وهي تتلمس ذراعها، فشاهدت بجانبها السيدة إيمان التي كانت محدقة فيها باستغراب، لاسيما وأن تلك الحركات التشنجية التي كانت قد صدرت عن ليلى قد أرعبتها فسألتها بقلق:

-هل أنت بخير أراك شاحبة بعض الشيء، هل يدك تؤلمك؟

فهزت ليلى رأسها علامة النفي وعادت إلى زجاج نافذتها وهي تتحسس ذراعها من جديد، لقد عاد الحلم القديم إليها من جديد، ولاتزال شدَّة اليد التي سحبتها تؤلمها كما المرة السابقة تماماً فلم تفهم إلى الآن مغزى حلمها.

ثم بادرت إلى سؤال السيدة إيمان:

-سيدتي كم من الوقت بعد يلزمنا للوصول إلى إسطنبول؟

-لم يبق الكثير، ساعة على الأكثر ونصل، معك حق يا عزيزتي لابد وأنك تعبت من طول فترة الجلوس، فأنا الأخرى تيبست رقبتي وظهري أشعر بأنه انقسم لنصفين، لكن لم يبق سوى القليل اصبري قليلاً يا بنتي

وبالفعل ماهي إلا ساعة واحدة حتى كانوا في كراجات منطقة إسنلر في إسطنبول، كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحاً إلا أن الكراج كان مزدحماً بالمسافرين، بالإضافة إلى الناس الذين انقسموا ما بين من جاء لتوديع أحبائه قبيل الانطلاق أو لاستقبال الواصلين من السفر ، وقد برز من بين هؤلاء ابن السيدة إيمان عمر، الذي ما إن لمح أمه في الكراج حتى اندفع نحوها وصار يقبل رأسها ويديها، وقد كان مبتهجاً لدرجة أنه لم يلحظ

لوجود ليلى بجانب والدته، أما عن ليلى فقد تعجبت لدى رؤية عمر، إذ لم تذكر السيدة إيمان بأن لديها ابن، لكن مع ذلك أشاحت بنظرها لدى رؤيتها للسيدة إيمان وابنها وهما متعانقين، حيث باتت تلك المشاهد العائلية الحميمية تؤلمها وتثير في نفسها الشجن والحسرة، فمثل هذه الأحضان واللقاءات باتت بعيدة كل البعد عنها، ثم انبرت جانباً كون ذلك المشهد قد أخذ وقتاً أكثر من اللازم ، ولكن السيدة إيمان تنبهت لذلك فلم ترد أن تتألم ضيفتها أكثر فقامت بالنداء عليها :

-ليلى ابنتي أين ذهبت هيا تعالي لأعرفك على ابني، عمر هذه ليلى

أما الأخير فقد لاحظ أخيراً وجود تلك الفتاة الغريبة إلى جانب والدته، مما أثارت لديه بعضاً من التساؤلات، ثم اقتربت ليلى بحياء إلى جانب السيدة إيمان التي تابعت الكلام كالعادة:

-عمر أعرفك على صديقتي الجديدة ليلى، لقد كانت رفيقتي طوال هذه الرحلة ولقد ساعدتني كثيراً، وأنا ممتنة لها كثيراً

فقام عمر بدور بمصافحة ليلى:

-تشرفت بمعرفتك آنسة ليلى، وأشكرك كثيراً للاعتناء بوالدتي فقد كنت قلقاً عليها لألّا تتعرض لأي مكروه خلال الطريق

فردت ليلى:

-إنه واجبي لا عليك

وبعد هذا التعارف القصير توجهت السيدة إيمان نحو ليلى من جديد :

-ليلى الآن ستذهبين معنا الآن، فأنا وعمر نسكن لوحدنا في المنزل، ومنزلنا كبير يتسع للكثير من الضيوف، الساعة متأخرة وأنا أخشى عليك في هذا الوقت، اليوم ستمكثين في منزلي وبعدها نوصلك للمكان الذي ترغبين بالذهاب إليه

ها هي السيدة إيمان تحرج ليلى بلطفها من جديد، حدثت ليلى نفسها بأن السيدة إيمان محقة أين ستذهب في هذا الليل المخيف، لكن لا تريد أن تكون ضيفةً ثقيلة عليها مرة أخرى، ثم بدأت بتلفيق الحجج والأكاذيب وبدأت بالكلام:

-سيدتي أرجوك لقد أغرقتني بلطفك بما فيه الكفاية، لا أريد أن أزعجك أكثر، أريد منك أن توصلوني الآن إلى منطقة السلطان أيوب فهناك منزل أقربائي وهم بلا شك بانتظاري الآن، أرجوك سيدتي لا تضغطي علي

فأجابتها السيدة إيمان على عجل :

-ولكن يا ليلى هذا لا يجوز

فقاطعتها ليلى دون أن تترك لها مجالاً لمتابعة كلامها ، فقد كانت محرجة بشكل كبير وخاصة أمام عمر، لا تريد أن يأخذ عنها انطباعاً سيئاً، فتابعت بكلامها للسيدة إيمان :

-أرجوك سيدتي فكما أخبرتك أقربائي الآن بانتظاري ولن يعجبهم أمر نومي عند أحد آخر

انصاعت السيدة إيمان أخيراً لرغبة ليلى، فركب الثلاثة في السيارة متوجهين نحو منطقة السلطان أيوب، صحيح بأن حقيبتها قد غرقت في النهر إذ كانت تحتوي على عنوان المطعم ، لكنها كانت قد حفظته عن ظهر قلب تحسباً لأي طارئ ،الحقيقة خشيت بأن تعثر جدتها خديجة على الورقة المدون فيها العنوان، وبالتالي كانت توقعاتها في محلها، صحيح أنها كذبت على السيدة إيمان بشأن أقربائها لكنها مع ذلك رأت بأنها فعلت الصواب .

الفصل التاسع

أخيراً تم توصيل ليلى إلى مطعم السيد شكري، وبعد عناق طويل دام بينها وبين السيدة إيمان والتي كانت مرتابة بشأن ما قالته ليلى عن أقربائها الذين يقطنون خلف المطعم الواقفين أمامه الآن، لكنها احترمت رغبتها في مجيئها إلى هنا ، ثم ودعت كلاً منهما الأخرى على أمل اللقاء مرة أخرى، وقد قامت السيدة إيمان بكتابة عنوان منزلها وأعطته لليلى فيما لو شاءت الأخيرة بزيارتها، وهكذا بقيت ليلى وحيدة في منطقة السلطان أيوب أمام المطعم ، كانت السماء لاتزال متدثرة بردائها الأسود وكان الشارع خالياً إلا من بعض السكارى الذين غادروا الحانات للتو وهم مترنحين في مشيتهم ، إذ أن بعض المطاعم والبارات كانت لاتزال أبوابها مفتوحة، جلست ليلى على الدرجات الرخامية التي تسبق باب المطعم، جلست تتأمل الشارع الذي تزينه أعمدة الإنارة من على جانبيه والتي كانت ترسل أنوارها الصفراء على الرصيف، كانت خائفة جداً وكان جو السكون يرعبها أكثر، حيث أن أي صوت صغير صادر عن كيس نايلوني متطاير بفعل النسيم الخفيف في الشارع أو خربشات الكلاب والقطط بداخل الحاويات يثير فزعها، والذي عكّر صفوها أكثر هم هؤلاء الثملين الذين مروا من أمامها وحاولوا مغازلتها ودعوتهم لها بالمجيء، الأمر الذي أثار حفيظتها مما جعلها تصرخ في وجوههم ملوحة بحقيبة ثيابها وهي مقطبة حاجبيها على أمل إبعادهم ، فانصرفوا من أمامها وهم يتلعثمون بكلام غير مفهوم، أحست بنفسها تائهة في هذا العالم الفسيح، لا يوجد من يحتضنها ويحنو عليها، فدفنت

وجهها ما بين ركبتيها المطوقتين بذراعيها وأخذت تنشج بصوت متهدج مسموع ، وبعد ساعة تقريباً كانت السماء تتشقق بفعل بزوغ أشعة الفجر الأولى، فتلونت السماء ما بين الأسود الداكن المائل إلى اللون الأرجواني ثم إلى اللون البرتقالي المطعم بأشعة الشمس التي كانت لاتزال خجولة بلمساتها، وبعدها بقليل طلع النهار وبدت زرقة السماء جلية، وانطلقت الطيور تنشد الترنيمة الصباحية العذبة، وفيما كانت لاتزال على وضعيتها تلك لم تشعر إلا وظل حجب عنها النور، فرفعت رأسها لتر أمامها رجل عجوز مكتنز الجسم ينظر إليها باستغراب ودهشة فبادر إلى سؤالها بلكنته التركية قائلاً :

-من أنت يا فتاة ؟! وماذا تفعلين هنا ؟! هل أنت متسولة ؟

فنهضت ليلى بسرعة وقد أشرقت ملامح وجهها المتعبة فأجابته :

-هل أنت السيد شكري ؟

فازدادت دهشة الرجل العجوز :

-نعم أنا هو، من تكونين يا بنتي، هل أضعت شخصاً ما وتبحثين عنه

-نعم أبحث عنك يا سيدي، والحمد لله أنني وجدتك أخيراً

-أنا ؟؟!! ولماذا تبحثين عني ؟! من تكونين

-سيدي اسمي ليلى وقد جئت من سوريا، نظلي هي جدتي وأنا حفيدتها، هل تتذكر هذا الاسم يا سيدي

فتغيرت ملامح الرجل خلال ثوان معدودة، إذ كان وقع الاسم عليه كالمطرقة على رأسه ،وبدا الحزن جلياً في عينيه الغائرتين، فأجاب وقد بدا الانفعال واضحاً عليه :

-نظلي !! نظلي من أورفه ؟؟ نظلي حبيبتي أليس كذلك

-نعم يا سيدي نظلي حبيبتك

-هل هي بخير، هل قلت بأنك حفيدتها، هيا يا بنتي هيا ادخلي إلى المطعم واستريحي قليلاً وأنا سأحضر لك بعض الماء

كنظرة أولى شعرت ليلى بأن السيد شكري ودود جداً، وبأنه سيكون خير رجل لمساعدتها في الوقت الراهن، وبعدها عاد السيد شكري وبيده الماء وقدمها لليلى التي شكرته بدورها، فسألها:

-كيف حال نظلي وماذا فعلت الأيام بها، أرجو أن تكون حياتها سعيدة، بالمناسبة أنت جميلة كجدتك

-أشكرك على مجاملتك يا سيدي، نعم جدتي بخير وحياتها دعنا نقول بأنها جيدة نوعاً ما أو على الأقل هذا ما أعرفه، كانت قد بعثت برسالة لك لكن للأسف كنت قد وضعتها في حقيبة يدي التي غرقت في النهر، لكنها بعثت لك بسلام حار، وقالت لي بأن أخبرك بأنها لم تنسك يوماً وما زلت حبها الأول والأخير، على ما يبدو بأن مشاعرها القديمة نحوك لم تخمد يوماً

-يا للأسف كنت أتمنى لو رأيت الرسالة، وأنا أيضاً لم أنسها يوماً، فالحب الأول لا ينسى، لكن مع ذلك لا بأس فالمهم عندي بأنها سعيدة الآن، لو

تعلمين يا بنتي كم أشتاق لها وكم أشتاق لأيامنا القديمة عندما كنا سوية، لكن هذه هي الحياة دائماً ما تتخذ قراراتها نحونا ونحن لا نملك سوى السير مع هذه القرارات وإن كانت تؤلمنا، والآن أخبريني كيف بإمكاني مساعدتك

وهنا تنحنحت ليلى خجلة، لم تعرف كيف ستشرح الأمر للسيد شكري فأخبرته بأنه ما من نقود معها و هي بحاجة إلى منزل يأويها وعمل تستطيع أن تكسب لقمة عيشها من خلاله، أدركت ليلى من خلال كلام السيد شكري المقتضب عن جدتها، بأنه هو الآخر قد عانى كثيراً من الفراق وشدة الاشتياق إلى محبوبته، لكن كبرياءه ورجولته أبوا عن فضحه بحقيقة مشاعره أمامها، إذ إنها توقعت أن يلقي عليها وابلاً من الأسئلة لكن ما رأته كان العكس تماماً ، ثم قام بالرد على آنا قائلاً لها :

-حسناً، حسناً فهمت سيكون كل شيء على ما يرام لا تقلقي

وبينما كانا مشغولين بالحديث دخلت فتاة في أواسط العشرينات ،تملك عينين بنيتين فضوليتين وشعر أشقر مجعد، وترتدي حذاء رياضياً أبيض اللون، كانت تلك الفتاة تدعى سيلين، فدعاها السيد شكري للترحيب بضيفته:

-ابنتي سيلين هيا تعالي وادخلي، أعرفك بليلى، ليلى ابنتي هذه سيلين تعمل هنا معي في المطعم

نظرت الفتاتان كلاً منهما إلى الأخرى، وكانت سيلين أكبر سناً من ليلى، شعور مشترك راود الفتاتين بأنهما سيكونان صديقتين مقربتين، إذ ارتاحت كل منهما للأخرى، ثم اقتربت سيلين محييةَ الصديقة الجديدة، واكتفت الأخيرة أن هزت برأسها مرحبة، ثم عرض السيد شكري على ليلى للعمل معه في المطعم إلى جانب سيلين، فوافقت دونما تردد، فعلى الأقل ستكون بين أيد أمينة ، ثم توجه السيد شكري مخاطباً سيلين :

-سيلين هل ما زلت تبحثين عن مستأجر لشقتك

-نعم يا سيدي فإلى الآن لم أجد، واقترب أول الشهر ولم أجد من يسكن معي ويقاسمني أجرة الغرفة

-حسناً جداً، هذا ممتاز، فليلى بدورها تبحث عن مسكن لها وأنا أراهن بأنكما ستحبان العيش معاً

فهزت الفتاتان رأسيهما علامة الإيجاب والموافقة، لكن ليلى كانت قلقة بشأن الأجار، لكنها ما لبثت أن لمحت السيد شكري يغمزها بطرف عينه، فأطرقت محرجة من جديد، ثم قام بإرسال سيلين لإحضار كعك السميد لثلاثتهم كي يتناولونه مع الشاي، كان يريد السيد شكري لسيلين أن تبتعد قليلاً كي ينفرد بالكلام مع ليلى وبالفعل كان له ذلك، فما إن خرجت سيلين التي بدت مسرورة لكونها ستحصل على مستأجرة وصديقة بنفس الوقت.

ثم أردف السيد شكري قائلاً:

-ليلى اسمعيني الآن، أنا سأدفع أجرة المنزل عنك لثلاثة أشهر مقدماً وأرجوك لا تعترضي فليس لديك الخيار، وهنا في هذا المطعم ستعملين كنادلة، العمل هنا ممتع وستعلّمك سيلين التفاصيل المتعلقة بعملنا وأرجو لك التوفيق يا بنتي، وأتمنى أن أكون قد أسديت خدمة إزاء محبوبتي نظلي

نظرت ليلى إلى هذا الرجل الطيب الجالس قبالتها محتارة ومتعجبة، هل حقاً مازال في هذا العالم من أمثال السيد شكري وأبا محمد، فلولا هذين الرجلين إضافة إلى جدتها نظلي لكانت الآن مجرد فتاة تعيسة غلب على أمرها وتتهيأ لزواجها، الملفت في الموضوع بأن السيد شكري لم يسألها كيف وصلت إلى إسطنبول أو ما غايتها من المجيء إلى هنا، ورأت ليلى في ذلك تصرف نبيل من قبله ، الشيء الذي جعلها تحترم الرجل أكثر فأكثر.

في ظهيرة ذلك اليوم منح السيد شكري إجازة لسيلين لتصطحب ليلى إلى مسكنها الجديد، فرحبت سيلين بالفكرة فها هي قد أخذت تواً استراحة من العمل

دخلت كلتاهما إلى الشقة، فقالت سيلين:

-شقة متواضعة لكن لا بأس بها، أتعلمين أشعر بأننا سنكون سعيدتان سويةً، سنستمتع بوقتنا وسنصبح أعز الأصدقاء، ألا توافقينني الرأي

فأجابتها ليلى:

-أشكرك كثيراً، نعم أشعر بذلك وأتمنى أن أكون عند حسن ظنك

وبمرور الأيام كانت صداقة الفتاتين تتوطد أكثر فأكثر ، وقد حاولت سيلين منذ البداية أن تستعلم من ليلى عن قصتها، وما علاقتها بالسيد شكري ولماذا جاءت إلى إسطنبول، لكنها مع محاولاتها تلك لم تستطع أن تعرف شيئاً، فقد كانت ليلى كصندوق محكم الإغلاق لا يمكن لأي مفتاح أن يفتحه ويستخرج شيئاً من أسراره، متكتمة إلى أبعد الحدود وأبت أن تفصح عن أي شيء يخصها ويخص حياتها ، لكن مع ذلك بقيت علاقتهما تزداد قوة و متانة، إذ باتت كل واحدة منهما بمثابة أخت للأخرى، أصبحن يذهبن إلى العمل معاً، وأمضين العديد من السهرات الممتعة سواء أكانت تلك السهرات في غرفتهما الصغيرة أو في الخارج، ولم تتوانى أيّاً منهما في مساعدة الأخرى في جميع الأعمال متى تطلب الأمر، وكثيراً ما كانت سيلين تضحك على ليلى فيما يخص بطريقة إعدادها للشاي وفي كل مرة تسألها فيما إذا كانت حقاً فتاة تركية، الأمر الذي شكل مفاجأة لدى ليلى التي لم تكن تعلم بأن طريقة إعداد الشاي في تركيا يختلف اختلافاً تاماً عن طريقة إعداده في سوريا ، فبينما يحضّر الشاي التركي في إبريقين، إبريق سفلي للماء المغلي وإبريق علوي يوضع فيه عشبة الشاي الجافة المطحونة قليلاً مع بعض الماء ولدى سكب الشاي في الكاسات الزجاجية الصغيرة والتي تتسم بشكل مميز يشبه الإجاصة، فإنها تسكب من الإبريقين معاً مناوبة قليل من الإبريق السفلي بداية وقليل من العلوي، ثم تضاف مكعبات السكر كلٌّ حسب رغبته، أما في سوريا فالأمر أقل تعقيداً ، إذ أنه

ببساطة يعد في إبريق واحد وتوضع كلاً من الماء والشاي والسكر معاً، هذا الأمر جعل سيلين تكرر على مسامع ليلى بأنها على جهلها هذا لابد وأنها كانت فتاة مدللة لا تفقه من أمور المطبخ شيئاً وليلى بدورها كانت تضحك بمرارة في قرارة نفسها وتخبر سيلين بأنها محقة في اعتقادها هذا، أما من ناحية الطعام فهذا أمر آخر، فقد كانت ليلى تتعلل دائماً بأن المأكولات التي تعدها ماهي إلا وصفات قديمة تعلمتها من جدتها ووالدتها، والحقيقة أنها كانت تعد طعاماً سورياً بامتياز والذي كانت تغرم به سيلين كثيراً .

مع كل تلك الأوقات الجميلة التي أمضتها ليلى برفقة سيلين، شعرت بأن الدنيا قد فتحت لها أبوابها من جديد، وعاد بصيص الأمل يشرق على قلبها، أحبت إسطنبول منذ اللحظة الأولى التي وطئت قدماها للمدينة ، فكل ما في المدينة كان ساحراً أخاذاً بالنسبة لها ، الطبيعة، البحر، المعالم التاريخية والمعاصرة ، المباني الشاهقة ، والمنازل الضخمة المترفة ، وقد أعجبت للألوان الزاهية التي كانت تغطي الكثير من الأبنية السكنية فهو أمر لم تعهده من قبل .

قامت ليلى وسيلين بجولات عديدة في المدينة، إذ بدت سيلين مزهوة معتدة بنفسها خلال تلك الجولات لمعرفتها الجيدة بتلك الأماكن، فاصطحبت صديقتها بداية إلى متحف آية صوفيا والذ يعد مسجد وكنيسة في مكان واحد، هذا الصرح الذي يرى فيه الناظر بجلاء الخطوط الأساسية لفن العمارة البيزنطية وكذلك تقاليد العمارة الرومانية بالإضافة إلى البصمة

الشرقية والفن الشرقي الرائع ممتزجاً بالفن المعماري الإسلامي مما يجعله تحفة نادرة من التحف المعمارية التي تتوسط إسطنبول، دخلت كلاً من ليلى وسيلين إلى المتحف الذي كان غاصاً بالسائحين والزوار ، وانبهرت ليلى بالتفاصيل الداخلية للمتحف، حيث كانت الأرض والجدران مغطاة بالرخام المميز ذو الأنواع والألوان المتعددة، كما زينت السقوف وجميع أنحاء المبنى بنقوش ولوحات من الفرسكو والفسيفساء اللامعة المدهشة، بعضاً من تلك الرسومات كانت تمثل أيقونات للسيد المسيح ومريم العذراء ، والبعض الآخر كان زخارف هندسية وكتابات بالخط العربي، أما القبة فقد كانت تتربع في منتصف الكنيسة المستطيلة الشكل ، وتستند من الشرق والغرب على أنصاف قباب ضخمة ترسو بدورها على عقود ودعامات سفلية ، والقبة من الداخل مغطاة بطبقة من الرصاص لأجل العوامل الجوية، وتحيط أدنى القبة أربعون شباكاً من الزجاج الملون والذي يوفر إضاءة ساحرة لداخل المتحف وتمنح الزائر شعوراً وكأنه يحلق في السماء، وهذا بالفعل ما حدث مع ليلى، إذ شعرت بأن روحها قد غرقت في عشق تلك التفاصيل والزخارف الجميلة .

ثم انتقلتا لمشاهدة مسجد السلطان أحمد والذي يعرف أيضاً بالجامع الأزرق، فإسطنبول مدينة المساجد، وقد كان هذا المسجد قبالة آية صوفيا، ويتميز بكونه يتألف من ست مآذن، وخمس قباب كبيرة رئيسية، وثمان قباب صغيرة، إذ تتضمن عمارة المسجد بعض العناصر المعمارية المسيحية

البيزنطية المأخوذة من جامع آية صوفيا المقابل له مع العمارة الإسلامية التقليدية، وبعد مسجد السلطان أحمد رافقت سيلين ليلى إلى قصر التوب كابي، الذي يضم مجموعة كبيرة ونادرة من الخزف والأثواب والأسلحة وصور السلاطين العثمانيين والمخطوطات والمجوهرات، بالإضافة إلى احتوائه على غرفة الأمانات المقدسة حيث توجد فيها آثار الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وسيفه وعصاته وضرسه وجزء من شعره وإحدى خطاباته، وبعضاً من سيوف الصحابة ومفاتيح الكعبة .

لم تتوقف جولاتهما عند هذا الحد ، بل كانتا تنتظرن عطلات نهاية الأسبوع بفارغ الصبر لمشاهدة أكبر قدر ممكن من معالم إسطنبول، فقامتا بزيارة برج غلاتة ذو التسع طوابق ، والذي يتيح رؤية بانورامية للمدينة من ارتفاع سبع وستين متراً، فتلك الرؤية نابعة من أعماق التاريخ، حيث أن هذا البرج هو بوصلة للسائحين لمعانقة سحر إسطنبول، وبما أنه يقع في منطقة تقسيم في الطرف الأوروبي من المدينة، كان لابد من المرور بشارع تقسيم، هذا الشارع الذي لا ينام حتى ساعات الفجر الأولى بفضل المطاعم المنتشرة بكثرة فيه، بالإضافة إلى الفرق الموسيقية الجوالة والتي تعزف وتغني بهدف كسب بعض النقود من الناس التي تتجمهر حولهم والذين يرمون بقطع النقود بداخل علبة الكمان المفتوحة أمامهم ،أما عن الأسواق فهذا شيء آخر ، بالتالي فإن ليلى وسيلين فتيات في النهاية ، والهواية المفضلة لهن هي التسوق على الرغم من قلة النقود بين

أيديهن، فلم تدخر سيلين جهداً لتري ليلى سوق جراند بازار، سوق شعبي وراقٍ بنفس الوقت، يضم الكثير من المحلات المتنوعة، ما بين محلات التحف والفضيات والمحلات التي تقوم ببيع الخرز الأزرق والذي بنظر الأتراك بأنه يرد العين والحسد ، فهو جزء لا يتجزأ من تراثهم ومعتقداتهم ، إذا لاحظت ليلى بأن تلك القطع تزين البيوت والمحال والسيارات بأشكال فريدة متنوعة، ولشد ما أعجبها ذاك الرجل الواقف في منتصف السوق بزيه العثماني التقليدي، ويحمل صوراً تذكارية لمعالم المدينة ليبيعها، ثم تجولتا في السوق المصري المشهور بمحلات الحلقوم والفواكه المجففة والبهارات التركية، ومن بعد الأسواق كانت حديقة الميني تورك التي تتضمن مجسمات الصغيرة لأهم المعالم التركية، ومن ثم قصر دولمة بهجة ومسجد السليمانية ومنطقة أورتكوي والعديد العديد من الأماكن التي تزخر إسطنبول بها.

بعد الكثير من الكلام وفناجين القهوة العديدة والذكريات الحلوة والمرة، تكون ليلى قد ختمت حديثها مع سيلين فيما يتعلق بقصتها وعلاقتها بالعم شكري وبعد ذلك الحديث المطول وبعد كل التفاصيل التي روتها لسيلين، عادت إلى الواقع وقالت لسيلين:

-الآن وقد أخبرتك بكل شيء، هل مازالت لديك تساؤلات أخرى

تنحنحت سيلين واستوت في جلستها قائلةً:

-أتعلمين أشعر وكأن البارحة فقط التقينا، فقد مضى أكثر من سنتين على تعرفنا ومع ذلك لم أشعر بالوقت

ثم توجهت سيلين نحو ليلى بنظرات جادة وقالت لها :

-بقي لدي سؤال واحد فقط ، ماذا عن حلمك ، ماذا حدث له

كانت ليلى تتمنى ألا تسألها سيلين ذلك السؤال ، لأنها هي بدورها لا تملك جواباً له ، فأخبرتها متنهدة :

-صدقيني لا أعرف، ربما قمت بتأجيله وربما أنتظر الوقت المناسب، لقد تغيرت كثيراً في هاتين السنتين أخاف بأن حلمي كان مجرد فكرة ساذجة صدرت عني دون أعي ماهيته فقد كنت طفلة حينها، أحزن لقولي هذا لكنني حقاً لا أدري، أشعر بأنني قد أغرقت نفسي في متاهة لا أعلم ما نهايتها

فأجابتها سيلين غاضبة :

-ماذا قمت بتأجيله ، عزيزتي انظري إليّ ، الأحلام المؤجلة تموت يا صديقتي ، وعن أي وقت مناسب تتحدثين عنه ، فكل يوم هو وقت مناسب فيما إذا قررت البدء بالكتابة، هل لك أن تخبريني كم سنة مضت وأنت هنا ، هكذا هي الأيام تمر دون أن نشعر بها ، الزمن أحياناً يقتل أحلامنا إذا ما قمنا بتأجيلها

-لا أدري أشعر بأنني لست جاهزة بعد، لا يوجد ما أكتب عنه، وربما كما قلت لك منذ قليل بأن أحلامي ربما مجرد أوهام تخيلتها لأنفس عن الواقع المرير

-أنت فقط اعقدي العزم، فالأحلام هي الخيوط التي تجعلنا متمسكين بحبال الحياة الغليظة وتجعلنا نصبر على أوقاتنا الصعبة، هي طوق نجاتنا صدقيني سيء جداً أن تعيشي بلا هدف وبدون شيء تنتظرين تحقيقه، ستغدو حياتنا جحيماً لا يطاق عندها، أما بالنسبة إلى أنه لا يوجد لديك ما تكتبين عنه فاكتبي قصتك يا عزيزتي

-ماذا قصتي ؟؟!!

-نعم قصتك، فحياة كل منا قصة تستحق أن تروى، فإذا أمعنا في تصاريف القدر في حياتنا، الصدف والفرص واللقاءات والقرارات، كل هذه الأشياء تشكل لنا حبكة قصة حياة رائعة ، بالتالي ليس عليك بالضرورة أن ترتادي الفضاء أو أن تحققي رقماً قياسياً أو تكوني شخصية مشهورة لتكتبي قصتك

-كلامك جميل جداً ، أين تعلمت كل هذا

-هههههه تعلمتها من الحياة ومن جدران الميتم، فهناك عندما تكونين محاطة بالعشرات من الأطفال ولكل واحد منهم قصته الخاصة، فبإمكانك أن تتعلمي من قصة كل طفل حكمة

-سأفكر في كلامك ملياً ، أعطيتني فكرة رائعة، لكن ماذا عنك أليس لديك أهداف وأحلام تودين تحقيقها

-هههههه كانت جل أحلامي أن أخرج من الميتم لأحيا كما أريد، وقد تحقق حلمي بالفعل، والآن أنا سعيدة في حياتي لأنها من صنع قراري أنا لوحدي وهذا أمر يريحني كثيراً

-أنا سعيدة لأجلك ، أتمنى أن تبقي دائماً هكذا

وفجأة خطرت في بال ليلى فكرة ، فالتفتت متحمسة إلى سيلين قائلة :

-هيه سيلين ما رأيك أن ترافقيني

-أرافقك ؟؟!! إلى أين

-سأعرفك على سيدة أعّزها كثيراً ، فهل تذهبين معي

-نعم لمَ لا

كانت تلك السيدة، السيدة إيمان ذاتها ، إذ مضى زمن طويل منذ أن التقت بها ليلى آخر مرة، فقد زارتها السيدة إيمان في مطعم العم شكري وكانت لاتزال لا تعلم بكذبة ليلى فيما يخص أقربائها، وعندما التقتا آنذاك أخبرتها الأخيرة بأنها باتت تعمل في هذا المطعم القريب من منزلها .

وبالفعل ذهبت كلاً من ليلى وسيلين لزيارة السيدة إيمان، قرعت ليلى جرس الباب ، فإذ بعمر ابن السيدة إيمان يفتح لهما الباب ، فقالت له ليلى :

-عمر هل هذا أنت ؟! ظننتك في أنقرة

-أهلاً ليلى يا لها من مفاجأة سارة، نعم من المفترض أن أكون في عملي في أنقرة لكنني اضطررت للمجيء لأن والدتي مريضة قليلاً

-ماذا ؟ مريضة !! هل هي بخير

وفيما كانت ليلى مذعورة وقلقة على صحة السيدة إيمان، إلا أن سيلين كانت في عالم آخر تماماً ، حيث التقت عيناها بعيني عمر حالما ظهر لهما من وراء الباب ، فوقفت كالبلهاء لا تدري حراكاً حتى أنها لم تنطق بأية كلمة ولم تلقي التحية على عمر، الذي كان بدوره هو الآخر قد لاحظ نظرات سيلين نحوه ، فارتبك خجلاً وسعل سعلةً خفيفة وقال لهما :

-هيا تفضلا بالدخول ، فلنكمل حديثنا في الداخل

كانت السيدة إيمان مريضة بالفعل كما أخبرهما عمر، إذ كانت الحمى قد نالت من جسدها وعافيتها فبدت ضعيفة واهنة، وقد سرت كثيراً بزيارة ليلى لها، وقد رحبت أيضاً بضيفتها الجديدة سيلين إلا أنها من شدة إعيائها لم تستطع النهوض من سريرها، ثم شرعت هي وليلى تتحدثان في أكثر من موضوع، وقد خشيت ليلى من تدهور صحة السيدة إيمان فلم ترها شاحبة هكذا من قبل، حتى في رحلتهما الشاقة لم يكن وجه السيدة إيمان بهذا القدر من التعب، ولكن السيدة إيمان أخبرتها بأنه شيء عرضي وعكة عابرة وتمضي كما سحب الصيف، ولكنها تحتاج لبعض الوقت حتى تسترد قوتها، أما عن سيلين فقد كانت جالسة على استحياء والعرق يملأ يديها نتيجة التوتر، فقد كانت المرة الأولى التي تلتقي فيها السيدة إيمان وابنها، وما فتأت تختلس النظر بين الفينة والفينة إلى عمر الجالس قبالتها، فكلما كانت تلتقي نظراتهما في عين الآخر حتى أشاح كل منهما بالنظر إلى الجانب الآخر، وفي كل مرة كانت سيلين تتظاهر بالنظر إلى ديكور المنزل وقطع

الأثاث التي تؤثثه والذي ينم عن ذوق رفيع، أما عمر فهو الآخر كان يتلصص النظر إلى سيلين تارة، وعندما يشغر بالإحراج كان ينظر باتجاه والدته تارة أخرى، وللحق فقد أعجب بجمال سيلين وقوامها الرشيق، إلا أنه أحجم عن المبالغة في النظر نحوها، أما عن حديثه فقد كان مقتضباً للغاية ، اقتصر على سؤاله عن أحوالها لليلى وكيف يجري عملها لا أكثر، أما الجزء الباقي من تلك الجلسة فقد أمضاها يصارع نفسه كي لا ينظر إلى سيلين ولكنه فشل مرات عديدة ولم يستطع من أن يمنع نفسه من النظر ، ولحسن الحظ بأن سيلين من شدة انفعالها لم تكن تسمع شيئاً من ثرثرة ليلى والسيدة إيمان، إذ أن السيدة إيمان أخذت تسترجع ذكريات لقائها بليلى، وعن تلك الجبال والوديان التي اجتزنها سوية، والحق بأن ليلى كانت قلقة بهذا الشأن، فهي كانت قد أخفت معظم التفاصيل الجوهرية المتعلقة بمجيئها إلى إسطنبول، إذ أنها أوهمت سيلين بأن القصة التي سردتها لها كانت قصتها الحقيقة، فأخذت تنقل بصرها إلى سيلين كل برهة للتأكد بأن سيلين لم تنتبه إلى أي شيء مريب في حديثهما، لكنها بالمقابل أيضاً تعجبت من هدوء سيلين المفاجئ وسكونها، فقد كان أمراً غريباً على سيلين بأنها لم تتكلم طوال الجلسة فهي كانت معروفة بثرثرتها التي لا تنتهي، ولكنها عندما رأت نظرات الجالسيَن جانباً كل منهما باتجاه الآخر واللذان كانا صامتين لا يشاركان بالحديث أبداً، ضحكت كثيراً في سرها ، فأخيراً وجدت سيلين شيئاً آخر تفكر به غير قصتها هي، وأصبحت لها قصتها

الخاصة وبهذا تكون قد أعتقت ليلى من تساؤلاتها وإلحاحها المستمر كي تروي لها تفاصيل حياتها .

وبعد انتهاء زيارة ليلى للسيدة إيمان قام عمر بتوديع الضيفتين لدى خروجهما من المنزل ، ثم توجع عمر إلى سيلين قائلاً :

-آنسة سيلين أتمنى أن تزورينا مرة أخرى ، سررت بالتعرف عليك

فأجابته سيلين متلعثمة:

-الشرف لي أشكرك

وبعد أن أصبحا خارجاً وعاد عمر إلى منزله ، قهقهت ليلى من أعماق قلبها وقالت لسيلين :

-لم أكن أظن يوماً بأنني سأراك على هذه الحال

استغربت سيلين من ضحك ليلى المتواصل ومن سخريتها فأجابتها :

-ماذا تقصدين ، ولماذا تضحكين بهذا الشكل

-آاااه يا صديقتي العزيزة أتظنينني لم أشاهد نظراتكما أنت وعمر، المسكين لقد تلعثم لدى رؤيتك ، وأنت لم أسمع صوتك طوال جلوسنا عند السيدة إيمان

فتضرجت وجنتا سيلين خجلاً وأجابت ليلى :

-لا أبداً أنت تبالغين كعادتك عن أية نظرات تتكلمين ، أنا لست من ذلك النوع من الفتيات اللواتي ما أن يشاهدن رجلاً وسيماً حتى يضعنه في

حسابهن ، أما عن الكلام فماذا تتوقعين مني، سيدة غريبة أول مرة أراها في حياتي ما الموضوع الذي أفتحه معها

فعادت ليلى إلى الضحك مجدداً وقالت لسيلين وهي تحاول جاهدة كتم ضحكتها:

-حسناً، حسناً لا تغضبي هكذا، كل ما في الأمر بأن عمر شاب وسيم مهذب، يعمل في أنقرة مهندساً في شركة للإنشاءات، وعلى حد علمي لم يدخل في علاقة قط مع أي فتاة ، وأصبح هذا النوع من الشبان نادر الوجود فتطلعت إليها سيلين بمزيد من الاهتمام، وكأن عيناها كانت تتوسل للإدلاء بالمزيد من المعلومات وتمنت لو لم تتوقف ليلى عن سرد المزيد عن حياة عمر ، فسألتها سيلين :

-وأنت ما أدراك بكل تلك التفاصيل

-والدته أخبرتني يوماً، كانت قد عرضت عليّ بأن أكون صداقة مع عمر، فربما أحببنا بعضنا ونتزوج

-ماذا !! هل تقولين بأن السيدة إيمان قد خطبتك لابنها، وماذا كان ردك

-نعم بإمكانك القول هكذا، لو أنني كنت أرغب بالزواج بهذه الطريقة لما كنت قد جئت إلى إسطنبول أساساً، رفضت فكرتها بكل أدب وهي احترمت رغبتي، لا أحبذ أن أتزوج رجلاً لا أعرف عنه سوى الشيء القليل

ثم نظرت ليلى إلى سيلين، فإذ بها كانت شاردة في أفكارها، وكأنها كانت تحلم بأحلام اليقظة، فابتسمت ليلى وتحدثت في سرها :

-أرجو لك السعادة في حياتك المقبلة سيلين

الفصل العاشر

لم تستطع توليب النوم في تلك الليلة ، فلا تزال تلك الأحداث الأخيرة التي حصلت معها خلال هذا الشهر تؤرقها ، تقلبت كثيراً في سريرها في محاولة منها للنوم فغداً ينتظرها دوام طويل في الدار، لكن الأرق أبا إلا أن يزعجها ويمنع النوم من التسلل إلى عينيها ، فاستوت جالسة في سريرها ، نظرت إلى نافذتها ومسحت زجاجها الذي كان يغطيه بخار الماء المتكاثف على سطحه نتيجة الرطوبة ، كانت السماء مقمرة والنجوم تتلألأ في صفحتها، وعندما قررت بأنه ما من أمل بأن تنام نهضت وتدثرت بردائها وصعدت إلى سطح المبنى، كان كرسيها التي اعتادت الجلوس عليه بانتظارها، فقد دأبت على الجلوس على السطح في الأيام التي يهاجمها فيها الأرق ، جلست وبيدها فنجان قهوتها وبدأت تتذكر أحداث ذلك اليوم في حديقة الإميرغان، كان اليوم هو الواحد من نيسان وهو اليوم الأول لانطلاق مهرجان التوليب في إسطنبول، حيث يبدأ المهرجان في كل الحدائق والشوارع، ففي كل عام يتم غرس ما يقارب الثلاثين مليون زهرة توليب في إسطنبول ، وهذا العدد يتفاوت من عام إلى آخر ، لكن ما من مكان أفضل من حديقة الإميرغان لمشاهدة هذا الحدث الجميل، الحديقة التاريخية الواقعة في حي إميرغان في مدينة سيريرا في إسطنبول الحضارية على الساحل الأوروبي من مضيق البوسفور، فتبدو إسطنبول في أيام المهرجان كالعروس المزدانة بأجمل الأزهار ، وتعد الإميرغان بمثابة طرحة العروس التي تمتد من رأسها حتى أخمص قدميها وسط إعجاب الحاضرين ، وقد كانت توليب

تنتظر ذلك الحدث سنوياً ، وهذا أمر طبيعي بما أن اسمها هو توليب ، وكما في كل سنة تحبس توليب أنفاسها لمناظر أزهار التوليب الخلابة التي تملأ أرجاء الحديقة وكأنها تشاهد المهرجان للمرة الأولى ، فأينما اتجهت كانت تشاهد سجادات مزخرفة من أزهار التوليب أو كما تسمى باللغة التركية اللالي ، كان مهرجان ألوان حقيقي يشبه إلى حد ما مهرجان هولي فاغوا أو عيد الألوان في الهند ، لكن هنا ضيف الشرف هو التوليب وليست المساحيق الملونة، أحمر أصفر وردي بنفسجي برتقالي جوقة من الألوان الخلابة ، كان المهرجان بمثابة حفل وداع لفصل الشتاء وحفل استقبال بنفس الوقت لقدوم الربيع ، كاسراً بذلك الروتين الممل لجو الشتاء ، باعثاً على الروح التجدد والأمل في نفوس سكان وزائري إسطنبول ، وقد كانت توليب تفضل هذه الحديقة بالذات كونها تطل على البوسفور ولاحتوائها أيضا على بحيرة رائعة ، وحينما كانت تقف على المغارات في أعلى البحيرة تشعر وكأنها تقف في أدغال الغابات الاستوائية ، نعم فقد كانت تقف هناك طويلاً ، وتغوص بعيداً في أفكارها وأعماقها ، لكن هذه السنة كانت تختلف عن باقي السنوات ، فلم تصعد إلى تلك المغارات بل اكتفت هذه المرة بالسير في ممرات الحديقة التي كانت تحتوي على أشجار ونباتات نادرة إلى جانب أزهار التوليب طبعاً ، كانت الحديقة تغص الزوار ، والصخب يملأ المكان ، كانت العروض تقام في كل زاوية من الحديقة الكبيرة ، إذ أن الفنانين يعتبرونها فرصة لعرض أعمالهم من فن الإيبرو أو كما يعرف بالرسم على

الماء ، بالإضافة إلى نفخ الزجاج والخط ، إلى جانب أنشطة رياضية وعروض للرسم والصور المتنوعة ، كل ذلك لم يجذب انتباه توليب إلى شيء ، بل اكتفت بالتحديق إلى عرس صغير كان قد اختار العروسان فيه الاحتفال بعرسهم في الحديقة ، وأخذوا يلتقطون الصور التذكارية في جنباتها ، وسط سعادة من حولهم ممن جاءوا لحضور الزفاف ، كان بإمكان توليب أن ترى نظرات العشق المتبادلة بين العروسين ، كم كانت تحب نظرات الحب تلك ،تلك النظرات المغلفة بالهيام والمودة ، حسدتهما في سرها ، لكنها سرعان ما تنبهت إلى نفسها ، وأخذت تفكر ما دهاها ، لقد أصبحت حادة المزاج في الفترة الأخيرة على غير عادتها ، وكانت تكتم غيظها وحسدها كلما رأت عاشقين تشابكت أيديهما معاً ، وهذا أمر لم يكن يعني لها شيئاً، بل على العكس كانت فيما ما مضى تنظر بفضول حيال هؤلاء العشاق، وتنظر إليهم بنظرات فضولية لا أكثر ، شأنها شأن الكثير من الفتيات الشابات في مثل عمرها ، ومع ذلك أخذت تتساءل في سرها هل يمكن لتلك الرسائل السبب في تحفظها هذا ، ربما أثارت جزء حساس منسي في أقاصي قلبها ، هذا الجزء يتعلق بكونها وحيدة دائماً، على الرغم من أن الوحدة كانت خيارها لتتجنب الألم الذي قد يسببه لها الناس ، صحيح بأنها صديقة الجميع في دار المسنين ، والجميع يحبها ويتحدث إليها باستمرار ، لكنها مع ذلك لم تسمح لأي أحد باقتحام خصوصياتها أو الدخول في تفاصيل حياتها ، ولو سألت أي شخص في تلك الدار وحتى المسنين نفسهم التي تقضي معهم

الساعات الطوال خلال النهار عن حياة توليب أو أي شيء يخصها فستكون إجابتهم موحدة ألا وهي نحن لا نعرف شيئاً عنها ، وقد كان هذا الأمر يريحها كثيراً فهي توفر على نفسها الكثير من الأسئلة المتطفلة ، لكن الأمور انقلبت رأساً على عقب منذ اللحظة التي باتت تصلها تلك الرسائل ، كانت سعيدة بحياتها تلك أو هكذا اعتقدت ، ولطالما كانت العاملات في الدار يخبرنها كم هي محظوظة ، فلا واجبات لديها أو التزامات ، فالتزامها الوحيد كان العمل في الدار ، وقد كانت توليب تسمع شكواهن الدائمة من كثرة الأعباء الملقاة على عاتقهن ما بين العمل والعناية بأطفالهن والشؤون المنزلية ، أو حتى العاملات غير المتزوجات فإحداهن تعاني من خيانة حبيبها لها و آلام الهجران، وأخرى من مراس والدها الصعب ، الأمر الذي كان يجعل توليب تحمد الله كثيراً في سرها لأنها كانت بعيدة تماماً عن كل تلك الهموم والمشاكل ، وفي النهاية أطلقت تنهيدة طويلة واعترفت في قرارة نفسها ، بأنه في النهاية جميعنا بحاجة إلى ذلك الغريب الذي ينتشلنا من أعماق روحنا البائسة ويرتب فوضى حواسنا ، ذلك الغريب الذي يأتي بلا موعد وبلا استئذان ، هو فقط ينصت لثرثرة قلوبنا المتعبة ، فيأتي لإنقاذنا دون أن ننبس ببنت شفة ، لأننا حقاً نكون بحاجة إلى من يمسك بيدنا عندما نكون على حافة السقوط والانهيار، لنكتشف بعدها كم كانت أرواحنا خاوية وكم كانت حياتنا هشة وفارغة ، فيأتي بلا مقدمات ليملأ لنا الجوانب المظلمة في حياتنا نوراً وكياننا حباً ، كقطرة مطر سقطت على أرض

جرداء تلك الأرض التي اعتادت أن تكون قاسية قاحلة ، فبقطرة المطر تلك تكتشف الأرض كم كانت خاوية على عروشها ، وهكذا نحن كتلك الأرض تماماً ، ننسى أو بالأحرى نعتاد أن نكون وحيدين في حياتنا وندّعي بأننا أقوياء ولسنا بحاجة إلى أحد ، ولكن في النهاية وفي غمرة الحياة نصبح شيئاً فشيئا أشباح بلا أرواح فندرك حينها ، بأن كبرياؤنا زائف لا محالة ، لنقر بأننا بأمس الحاجة إلى ذاك الغريب على الأقل كي نتذكر بأننا لا نزال على قيد الحياة ، نعم لقد اعترفت توليب في النهاية بذلك، وفي خضم أفكارها المشوشة تلك ، انبعث صوت موسيقا في أرجاء الحديقة ، فهرعت توليب وهي في أوج سعادتها نحو مصدر الموسيقا ، كانت تعرف تلك الألحان جيداً ، فكما في كل سنة كانت فرقة موسيقية تعتلي منصة شبيهة بمنصة المسرح لتعزف وتغني الأغاني التركية التراثية وغيرها من المقطوعات الموسيقية الجميلة ، وكان حشد من رواد الحديقة قد تجمهر حول المنصة وهم يستمعون إلى العازفين باستمتاع ، منهم من كان يصفق مع الفرقة وبعضهم الآخر كان ممسكاً بجواله وشرع بالتقاط الصور حيناً أو تسجيل فيديو حيناً آخر، شرعت توليب تدندن الألحان في عقلها ، فأغمضت عيناها وبدأت تتمايل يميناً وشمالاً وفق إيقاع الأغاني ، كانت الموسيقى محفزة على الرقص لكنها آثرت التمايل والدندنة نظراً للعدد الكبير من الناس ، وفيما كانت مستمرة في تمايلها ذاك وهي في قمة استمتاعها

ناسية كل ما كان يجول في خاطرها قبل دقائق فقط ، فإذ بها ترتطم بجسد أحدهم ، فنظرت مشدوهة :

-لا يعقل هل هذا أنت مجدداً

كان الشخص الذي ارتطمت به توليب مراد نفسه، وقد كان ممسكاً بآلة تصوير حديثة ، فأجابها ببرودته المعهودة :

-على ما يبدو بأن الارتطام بالناس هو هوايتك ، لا أصدق بأنني ألتقيك مرة أخرى وبنفس طريقة لقاءنا الأول

فردت عليه توليب وبنفس أسلوبها المتهكم كما في أول مرة أيضاً :

-لا أصدق بأنني أجدك في كل مكان أذهب إليه ، هل أنت مسلّط عليّ لإزعاجي فقط ، وهل لك بأن يتنازل مقامكم الرفيع ويخبرني ما الذي تفعلونه هنا

-يا إلهي لا تزال نبرتك نفسها، يا لك من مزعجة ، اطمئني فأنا لا ألاحقك، كل ما في الأمر بأنني سبق وأخبرتك بأنني صحفي ، وقد كلفني رئيسي في العمل بتغطية أحداث مهرجان التوليب ، وها هي كاميرتي معي شاهدة على صدقي

-حسناً ، حسناً فإذاً حظاً موفقاً في عملك ، هذه فرصة جيدة لعدم إزعاجي

-يا لك من مغرورة

-هيه كف يا هذا عن الحديث معي بهذه الطريقة

-حسناً إذاً وداعاً

نظرت توليب إليه طويلاً وهو يختفي شيئاً فشيئاً بين الحشود ، وأنشأت تحدث نفسها يا له من مغرور متكبر ، تتوتر جميع أعصابي عندما أراه ، وبعدها قفلت توليب عائدة لتمشي ثانية في أرجاء الحديقة ، فيما كان مراد يلتقط المزيد من الصور الخاصة بالمهرجان .

وبعد مرور ساعتين على لقائهما المشحون ذاك ، كان مراد قد انتهى من عمله وباتت الصور جاهزة لتقريره الصحفي ، وفيما كانت توليب بدورها قد تعبت من كثرة المشي فقررت الاستراحة على أحد مقاعد الحديقة ، فلم تنتبه إلا ومراد قد جلس على نفس مقعدها ، فقال لها :

-أتسمحين لي بالجلوس

-ههه حقاً ، فأنت قد جلست وانتهى الأمر

-لقد تعبت من مشادتنا الدائمة معاً ، ما رأيك أن نعقد معاهدة سلام

-ماذا ؟؟ معاهدة سلام

-نعم ، دعينا نكون صديقين ، لا أملك الكثير من الأصدقاء

تطلعت إليه توليب متوجسة ، لم تدر ماذا تقول له ، لقد فاجأها بطلبه ، فلم تتخيل يوماً أو حتى لم تفكر بهذا الاحتمال بأن يكونا صديقين ، فقالت له :

-حسناً أنا موافقة ، لا مانع لدي من التجربة

-لقد أدهشتني فعلاً ، لم أظنك ستوافقين بهذه السرعة

-يا لك من مستفز كبير ، هل أنا بنظرك ساحرة شمطاء

-دعينا نذهب إلى المقهى القريب من هنا ، ما رأيك سأدعوك إلى فنجان قهوة

فلمعت عينا توليب عند ذكره للقهوة ، فهي قد تعبت كثيراً ، وفنجان من القهوة الآن يعادل الدنيا ، وبالفعل ذهب الاثنان إلى مقهى مقابل للحديقة، مقهى عادي جداً لا يوجد به أي شيء مميز ماعدا اللون البنفسجي المسيطر على المكان سواء أكان بلون الجدران أو بمفارش الطاولات ، ومع ذلك فقد اختارا طاولة في وسط المقهى وطلبا قهوتهما ، ساد صمت لعدة دقائق بين الاثنين ، لم يكن يقطع ذاك الصمت سوى صوت الملعقة التي كانت توليب تحرك بها مكعبات السكر بداخل فنجانها ، وهنا بادر مراد بالحديث عندما رأى بأن توليب لن تبدأ بالكلام حتى يفتتح الحديث هو ، فقال لها :

-إذاً وبما أننا بمعاهدة سلام ما رأيك أن تخبريني باسمك

رفعت توليب إحدى حاجبيها مستغربة ، ربما لم تكن تتوقع هذا السؤال :

-ظننتك تعرف اسمي

-لا أبداً ، ففي كل مرة أراك فيها ينتهي لقاءنا بشجار ، ويغادر أحدنا قبل الآخر

أقرت توليب في نفسها بأنه محق ، فلطالما كانت تستبقه بالذهاب لأنها تغضب بسرعة

-حسناً اسمي توليب

-آاا إذاً أنت توليب المزعجة التي تتطفل دائماً على السيد ناظم

-ها قد عدنا للاستفزاز مجدداً ، أنا ذاهبة يبدو لي بأن الحديث معك لا طائل منه

همت بالمغادرة لكنه أسرع وأمسكها بذراعها :

-انتظري ، انتظري حسناً أنا أعتذر لن أغضبك مجدداً هذا وعد

فقررت توليب أن تعطيه فرصة أخرى ، لكنها لم تعلم لماذا ، لماذا تصبر على رجل بتلك الطباع الصعبة:

-حسناً اتفقنا ، وكلمة مزعجة أخرى تنتهي معاهدتنا

-اتفقنا ، قولي لي إذاً لماذا اسمك توليب، ليس ياسمين مثلاً أو أي اسم زهرة أخرى، مصادفة جميلة بأن اسمك توليب ونحن الآن في مهرجان توليب

-في أول لقاء لوالداي قدم أبي باقة توليب لأمي، الزهرة المفضلة لأمي ولي أيضاً، شكلت هذه الباقة النواة الأولى لحبهما والذي تكلل بالزواج ، فقررت أمي أن تسميني توليب تيمناً بتلك الذكرى الجميلة في حياتهما

-لا عجب إذاً بأنك تقدمين التوليب للمرضى في دار العجزة، لابد وأن تلك الذكرى كانت في يوم ثلاثاء هل أنا محق

-نعم بالفعل لقد كان لقائهما يوم ثلاثاء ، الحقيقة أقدم التوليب لهؤلاء المساكين للتخفيف عنهم ، لأذكرهم بأن الحياة لاتزال جميلة على الرغم من كل الأحزان التي يحملونها في قلوبهم أضف إلى ذلك أوجاعهم التي لا تبارح أجسادهم

-ألا تخافي أن يخونك التوليب، افترضي بأننا أصبحنا صديقين مقربين ولنقل عاشقين وقمت بتقديم أزهار التوليب لك، ثم ولسبب ما افترقنا ، افترضي أنني قمت بخيانتك ، ألن تكرهي التوليب بعدها لارتباطه بذكرى أليمة حدثت معك ، الكثير من الناس يكرهون أشاء معينة ويهجرونها لأنها تذكرهم بذكريات سيئة مروا بها

-أنت أجبت على سؤالك بنفسك، أنت من قمت بخيانتي فإذاً ما ذنب التوليب لأكرهه، الحري بي أن أكرهك أنت لا التوليب، الورد لا يخون يا عزيزي، فالخيانة من طباع البشر وحدهم، ما ذنب تلك المخلوقات الرقيقة في مشاداتنا ، أتعلم حديثك هذا ذكرني بشخص عزيز على قلبي، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لا تفكر أبداً بأنني سأكون حبيبتك في يوم ما هذه القصص لا تغريني يا عزيزي، الآن بما أنك ذكرت السيد ناظم هل لك أن تخبرني ماذا يحب وماذا يكره، لقد حاولت معه بكل السبل الممكنة لإقناعه بأن يصبح صديقي، جربت أن أقدم له الشاي والقهوة والصحف اليومية، حتى أنني كنت أحضر له التوليب كل يوم وليس فقط يوم الثلاثاء الأمر الذي أثار موجة غيرة من بعض نزلاء الدار، لكن مع هذا لم أفلح معه

-هل أنت الآن تطلبين مني المساعدة لا أصدق، علاوة على ذلك فأنت لست من الطراز الذي يستهويني من الفتيات لذا كوني مطمئنة

-آاااه الرحمة ، هل لك أن تتوقف أرجوك ، نعم اعتبره طلباً للمساعدة فأنا أفعل أي شيء في سبيل إسعاد شخص ما

-حسناً لأخبرك إذاً ، السيد ناظم رجل غامض ومكابر جداً ، ومن الصعب إرضاءه ، أنا لا أعرف الكثير عنه صراحةً ، لكن على حد علمي هو مغرم بممثلة من أيام الستينات تدعى أسيل ، يهوى دائماً مطالعة المجلات الفنية القديمة التي كانت تتحدث عنها وعن أفلامها ، وهو من أكبر معجبيها إذ أنه إلى الآن يحتفظ بجل أفلامها

-لا أصدق ما تقول ، يا لها من مصادفة عجيبة ، فالسيدة أسيل نزيلة الدار أيضاً ، يا إلهي بل أن غرفتها في نفس الطابق التي فيها غرفة السيد ناظم

-صدقيني ليست بمصادفة ، أعلم بأن السيدة أسيل في الدار مسبقاً ، لهذا نصحت السيد ناظم بهذه الدار بالذات دوناً عن سواها ، لكنه لا يعلم ذلك

-أتعني بأنه لا يعلم بوجود السيدة أسيل

-نعم تماماً ، أريده أن يكتشف ذلك بنفسه لكي لا يظن بأنني خدعته ، وأرجو منك الالتزام بالصمت وألا تخبريه بذلك

-يا لك من ماكر ، لكن هذا سيريحه أكثر ويجعله يتأقلم مع جو الدار

-لا أرجوك ، لا تجعليني أندم لأنني أخبرتك

-أنت تطلب شيئاً صعباً لكن لا مشكلة سأحاول قدر الإمكان ضبط لساني ، هههههه لم أعلم أن قلبك كبير هكذا

-هههههه ماذا كنت تظنيني إذاً

-كنت أعتقد بأنك والجدار شخص واحد سامحني على صراحتي

-تعجبني صراحتك، لا تقلقي سأفاجئك دوماً

توقفا عن الحديث بنفس اللحظة ، وتبادلا نظرات عميقة والتقت أعينهما المرتبكة سويةً، شعاع ما بدأ يتألق في الأفق، وبدا انعكاسه واضحاً في العينين، لم تحتمل توليب هذا الجو من السكون المشبع بالمشاعر المضطربة، فتنحنحت قليلاً وتظاهرت بالنظر إلى ساعتها التي كانت متوقفة عن العمل منذ زمن طويل والتي كانت ترتديها في معصمها كقطعة زينة لا أكثر :

-يا إلهي لقد تأخرت كثيراً لم أشعر بمرور الوقت، يتوجب عليّ المغادرة الآن

-حسناً سررت بلقائك ، لكن انتظري قليلاً ، هذه لك

قام مراد بإخراج زهرة توليب بيضاء من حقيبته وقدمها إلى توليب، وقال لها :

-في العادة أنت من تقومين بتقديم التوليب للناس ، دعيني هذه المرة أنا من أقوم بتقديمها لك

-هذه أول مرة أتلقى فيها شيئاً من أحد ما، في لغة التوليب، التوليب الأبيض يعني أنا آسف أو أنا أعتذر، هل تعتذر مني الآن

-بإمكانك اعتبارها اعتذار عمّا بدر مني من إزعاج لك، أعترف بأنني أكون فظ في بعض الأحيان، وليكن التوليب عربون صداقتنا

فعمدت توليب إلى تقريب فنجان قهوتها باتجاه مراد :

-فليكن بيننا إذاً توليباً وفنجان قهوة

ثم نهضت توليب مغادرة المقهى بعد أن ودعت مراد ، كانت تتمنى لو يطلب منها المكوث قليلاً بعد، تمنت لو استمر حديثهما فترة أطول لكنها آثرت الصمت، فكبرياؤها يمنعها من أن تعترف لمراد بأن حديثه أعجبها، ورغبت لو أنه لم يتوقف عن الكلام ، ومراد بدوره تخيل نفسه ممسكاً بيدها ويطلب منها التريث في المغادرة ، فأفكارها المتمردة أعجبته هو أيضاً، فكما كبرياء توليب كبرياءه بدوره منعه من إظهار مشاعره أمامها وبأنه للمرة الأولى يستمتع بالتحدث إلى فتاة، وهكذا مضت توليب في سبيلها إلى خارج المقهى و بقي مراد جالساً على الطاولة يحدق في فنجانها وأثر أحمر الشفاه على حافته، وبقايا السكر الذي لم يذب في أرضيته، كان كلاهما كاذبان، كل منهما يكذب بمشاعره على الآخر، ويكذبان على نفسيهما أيضاً .

في لعبة العاشقين الكبرياء يفوز أولاً، ويخسر العاشقين نفسهم، وتبقى أرواحهم مقيدة بأغلال كبريائهم، ليكتشفوا في النهاية بأنهم هم الجلادين لذواتهم .

الفصل الحادي عشر

-صباح الخيار سيد ناظم ، يبدو أنك بمزاج جيد اليوم

-كان جيداً قبل أن تأتي

قالها وهو لايزال يدخن من غليونه ويخرج دخان التبغ من فمه، ثم تابع كلامه :

-ألم تفقدي الأمل مني يا ابنتي، لماذا تصرين على مضايقتي والتدخل في خصوصيتي

-سيدي أرجوك أعطني فرصة أخيرة، فأنا أتمنى أن نصبح صديقين

-حسناً هاتي ما عندك، لكن أرجو ألا تكوني قد جلبت المزيد من تلك الصحف المملة

-لا، لا لم أحضر لك الصحف هذه المرة بل شيئاً ستحبه بالتأكيد، أولاً زهرة التوليب هذه لك كما العادة، اعذرني لا أستطيع أن أعقد صداقاتي بدون التوليب، ثانياً تفضل هذه الأشرطة لك

نظر السيد ناظم من فوق نظارته السميكة، كانت مجموعة من الأقراص المدمجة التي تحتوي على أفلام قديمة للسيدة أسيل، الأمر الذي أثار دهشته، ثم استطردت توليب في حديثها :

-أظنك ستحب هذه الأفلام ، فهي جميلة للغاية

-وكيف عرفت بأنني أحب هذه الأفلام

-الأمر بسيط يا سيدي، فلا يوجد شخص عاش في حقبة هذه الأفلام إلا وأحبها ألست محقة يا سيدي

-نعم بالفعل أنت على صواب

لاحظت توليب الطريقة التي كان ينظر فيها السيد ناظم إلى تلك الأشرطة، بالإضافة إلى نبرة صوته التي غدت ألطف ، فابتسمت ابتسامة خفيفة دون أن ينتبه إليه السيد ناظم ، ثم استأذنت توليب للمغادرة فقد حان الآن دور السيدة أسيل، وهكذا غادرت توليب غرفة السيد ناظم بعد أن تركته في حالة ذهول ، فهو لم يتوقع هدية من هذا النوع من الآنسة المزعجة التي لا تنفك وأن تضايقه بتطفلها الدائم .

وفيما كانت متجهة نحو غرفة السيدة أسيل ، فإذ بهاتفها المحمول يرن، وقد كان رقم غريب يظهر على الشاشة :

-ألو من المتصل

-توليب ، هذا أنا مراد

-من ؟؟ مراد !! من أين أحضرت رقمي ، لا أذكر بأنني أعطيتك إياه

-نعم مراد، ليس بالأمر الصعب أن أحصل على رقمك، المهم أدعوك إلى الأسكودار مساءً ، ما رأيك

-ماذا الأسكودار !! أوافق بشرط أن تدعوني على قهوة مرة أخرى

-أتساءل أحياناً كم أنت ثرثارة ، حسناً قبلت

-بما أنك المتصل يتوجب عليك تحمل ثرثرتي ، أراك مساء

-حسناً اتفقنا

كانت فرحة توليب عارمة، إذاً فمراد لم ينساها، وموعدهما الأخير ليس موعداً عابراً، لكن بالمقابل كان هناك أمراً يؤرقها ويفسد عليها فرحتها هذه .

دلفت توليب إلى غرفة السيدة أسيل :

-سيدتي اشتقت إليك ، كيف حالك

-أنا كما أنا، لا شيء جديد، لكن على ما يبدو بأن الشيء الجديد يحصل معك

-كيف علمت ذلك

-من السواد الذي يرقد تحت عينيك وجفونك المنتفخة، على ما يبدو لم تنامي جيداً ليلة البارحة

-بل لم أنم مطلقاً ، قضيت الليل بطوله وأنا على سطح المبنى أفكر

-ما الذي يشغل بالك أخبريني

-قبل أن أخبرك دعيني أقرأ لك هذه الكلمات

-حسناً أسمعيني

انثري لي قبساً من رحك

يكن لي نوراً

أشعل منه شمعة أهتدي بها إليك

انثري لي قبساً من حبك

فأملأ به وعاء عشقي

لأسكبه في قبلك

انثري لي قبساً من رائحتك

فأنشر شذاها على باقة توليب

أقدمها إليك

انتهت توليب من القراءة ، وتوجهت تسأل السيدة أسيل :

-ما رأيك بهذا الكلام

-كلام جميل ، من قائله

-صدقيني لا أعرف

-لا تعرفين ؟؟ لم أفهم

-منذ شهر واحد فقط كنت فتاة وحيدة بائسة، والآن وعلى حين غفلة أصبح في حياتي رجلان، رجل يثير أعصابي بتهكمه الذي لا ينتهي لكن مع ذلك أستمتع بالحديث معه لدرجة أنسى الوقت برفقته، أما الرجل الآخر فهو رجل من ورق، رجل موجود في هذه الكلمات فقط، تلك الكلمات التي تسحرني بجمالها، رجل في الخفاء يأبى أن يفصح عن هويته أو حتى ماذا يريد مني بالضبط ، فرسائله تتكلم عني وتخاطبني وكأنه يقرأ أفكاري، لا تتخيلي كمية القلق والحيرة التي أعيشها

-شيء مثير حقاً ، لكن انظري للجانب المشرق، على الأقل هناك من يفكر بك للصدق كنت أنظر إليك أحياناً وأقول في نفسي ما هذه الفتاة إنها لا تختلف عن الآلة بشيء، صحيح أنك هنا تنشرين البسمة على الوجوه، لكن

ما من ابتسامة حقيقية على محياك منذ أن التقيت بك، أما الآن فانظري إلى نفسك، انظري إلى عيناك ربما لم تنتبهي لكنهما الآن متألقتان بنور الفرح، تذكريني بنفسي يا فتاة، لكن الآن لم يعد أحد يهتم لأمري أو يتذكرني، لكن إن أردت رأيي فما دام هناك رجل مرئي فهو أفضل من ذاك المعجب السري والذي لابد وأن يكون جباناً لعدم إظهار نفسه حتى الآن، الحب يحتاج إلى الشجاعة يا عزيزتي

-لا تتكلمي هكذا سيدتي فنحن ما زلنا هنا ولا نزال نحبك ونهتم بك، فإذاً هذا رأيك حول مشكلتي، ولكن المعجب السري ترك لي في نهاية رسالته الأخيرة التي تلوتها على مسامعك الآن بريده الالكتروني لأتمكن من الرد على رسائله

-طفولي جداً ، لكن مع ذلك اتبعي نصيحتي

وفي المساء احتارت توليب ماذا سترتدي لمقابلة مراد ، فهذه الأمور لا تزال جديدة عليها ، ومع ذلك فقد ارتدت فستاناً من الدانتيل الأسود بلا أكمام ويصل حتى ركبتيها، كانت السيدة أسيل قد أهدتها إياه في العام المنصرم عشية عيد الميلاد، كانت خياراتها محدودة جداً، فخزانتها المتواضعة لم تكن تحوي الكثير من الفساتين، فجل ثيابها كانت مخصصة للعمل، فكرت في نفسها إذ لا بد وأنها قد أهملت نفسها كثيراً، فلم تكن تعتقد بأن لديها مشكلة في خزانة ملابسها ومع الأسف فقد اكتشفت ذلك اليوم، وضعت القليل من مساحيق التجميل على وجهها وطبعاً أحمر الشفاه الذي يلازمها

دائماً، ودعت شعرها ينطلق حراً لينسدل على كتفيها بعد أن كان حبيساً في البكلة الأمر الذي كان يشوه منظرها على الدوام، فتبدو أكبر من عمرها الحقيقي في معظم الأيام .

حقيقة فإن توليب قد تعمدت أن تبقي شعرها منسدلاً ليغطي رقبتها، نظرت إلى نفسها في المرآة، لماذا هذا الاهتمام كله لموعدها، ولماذا كل هذه المبالغة في المساحيق والتأنق، هل مراد يهمها كثيراً يا ترى، وهل هو يفكر فيها كما تفكيرها هي به، لكن هل من الممكن أنها بدأت تحبه، وهي الجاهلة بالحب والخائفة منه على الدوام، تحسست عنقها من جديد ، لتتأكد من أن وشمها مخفي بفعل شعرها، ذلك الوشم الذي كان شاهداً على حادثة أوجعتها ، والتي جعلتها تخاف من أي رجل، لذلك كانت خائفة ومترددة من الوقوع في حب مراد .

وصلت توليب إلى الأسكودار في الموعد المحدد، وقد كان مراد بانتظارها وبريق الإعجاب بادياً في عينيه، كان يحمل في يده زهرة توليب ولكن هذه المرة بلون وردي :

-توليب تبدين مختلفة تماماً اليوم

-ماذا تعني ألست جميلة

-لا بل على العكس تبدين رائعة

صمت قليلاً ثم قال :

-وفاتنة أيضاً

الأمر الذي جعل وجه توليب يتضرج بلون الكرز ، فشكرته على مجاملته :

-تفضلي هذه الزهرة لك، أولم نتفق أن يكون بيننا التوليب دوماً

لم تدر توليب هل كان محض صدفة أن قدم لها مراد زهرة توليب وردية، أم أنه قد تعمد تقديم توليب من هذا اللون، فالتوليب الوردي معناه بأني مهتم بك، هل أراد إيصال هذه الرسالة لها ويريد أن يفهمها بأنه حقاً مهتم بها ، أم أنه لون كباقي الألوان في نظره لا يعني له بشيء، ومع ذلك فلم تعلق توليب وتخبره عن مقصده .

سارا معاً على طول الرصيف البحري، كعاشقين خجولين أو كطفلين صغيرين قد تعارفا للتو، حيث البحر الداكن قبالتهما والسماء التي احتشدت ببعض الغيوم المنذرة بالمطر الربيعي.

-إذاً كيف سارت الأمور مع السيد ناظم

-جيد جداً، أظننا قد بدأنا بالتفاهم، نصيحتك كانت صائبة، فما إن أعطيته تلك الأفلام التابعة للسيدة أسيل حتى غدا شخصاً آخر تماماً، لكنني لا أفهم ما هذا الإعجاب الغريب لشخص مشهور، أو على الأقل شخص مشهور في الماضي والآن لا يتذكره أحد

-وأنا أيضاً لا أدري يحيرني كثيراً صديق أبي

فباغتته توليب قائلةً :

-كما تحيرني أنت أيضاً

-ماذا؟؟!!

-لا شيء لا شيء ، إذاً أخبرني ما الذي جاء بك إلى إسطنبول

-كنت سأسألك السؤال نفسه ، القصة باختصار جئت أبحث عن ذاتي

-تبحث عن ذاتك ؟؟ لم أفهم

-والداي مقيمان في بورصة ، أبي يملك شركة للمنسوجات، وقد أراد مني أن أنخرط في مجال إدارة الأعمال، لكنني لم أجد نفسي في هذا العمل، فقررت المجيء إلى هنا وأحقق حلمي في الصحافة

-ووالدك ألم يعارض قرارك

-لا أدري، لقد جئت إلى إسطنبول دون أخبر أحداً، ومنذ ذلك الوقت وأنا لا أعرف شيئاً عن والداي

-هذا مؤسف حقاً، أن تتعارض رغبات الأهل مع تطلعات الأبناء

-وأنت ما الذي جاء بك إلى هنا

-جئت بحثاً عن عمل بكل بساطة، لم أستطع أن أكمل دراستي نظراً للأوضاع المادية المتدهورة لدى عائلتي، عائلتي تقطن في أضنا لكنني على تواصل مستمر معهم ، لا أستطيع العمل دون سماع صوت أمي وأبي

-فتاة محظوظة

كان كلاهما كاذباً مرة أخرى، وكلاهما يعلمان بأن كلاً منهما يكذب ويراوغ على الآخر، فقد كانا يتحدثان وكل منهما يتجنب النظر في عيني الآخر، ومع تقلص حدقة العين تأكد حدسهما، فتوليب والتي اعتادت التكلم مع كبار السن كان لها خبرة مع لغة الجسد لتعلم كيفية التعامل معهم، ومراد ذلك

الصحفي الغامض فمن معرفته الواسعة واطلاعه في مختلف المجالات كان على دراية بهذه الأمور، لكن مع ذلك لم يتكلمان بهذا الشأن فكلاهما مذنب في النهاية ، لذلك استمرا في الكلام ، وهنا سأل مراد :

-ما رأيك في الحب

أربكها سؤاله، لكنها في نفس الوقت كانت تواقة لمعرفة رأيه بهذا الخصوص وهل لديه أية مشاعر نحوها ، أو على الأقل هل يفكر كما تفكر هي .

-لا أعرف لم أجرب هذا الشعور من قبل ، لكن أتعرف أمراً أظنني أخاف من الحب وأخشى من الوقوع فيه

-لمَ ؟؟

-ربما لأنني تربيت في بيئة ،الفتاة التي تقع في الحب تصبح بنظر الناس عاهرة للصدق لم أر نماذج مشجعة، أخاف من خيبة الحب، فالحب في نظري كالكلمة يمكنه أن يجعلك إما أسعد شخص في الدنيا أو أتعسهم، فأما أن يجعلك ترفرف عالياً بكل خفة ورشاقة وإما أن تصبح طائر مهيض الأجنحة لا تقو على النهوض، لذلك لم أفتح أبواب قلبي لأي أحد، وأنت ما رأيك فيه أريد أن أعرف رأيك بما أنك سألتني عن رأيي

-أنا لا أؤمن بالحب ، على الأقل حب هذه الأيام ، فكل علاقة سطحية عابرة يعتبرونها حباً وعشقاً، وإذ بعد فترة وجيزة ينتهي كل شيء، الحب في نظري شيء أعمق بكثير من تلك العلاقات الزائفة، إنه انسجام روحين وشغف في النظرات وتناغم في المشاعر والأحاسيس

دهشت توليب لأفكاره، شعرت بأنها باتت محاصرة بكلماته مطوقة بألفاظه، شعرت بالصدمة فلم يعطها الجواب الشافي لسؤالها، أتكون لقاءاتهما مجرد تمضية للوقت سويةً، إذاً فماذا عن زهر التوليب، أيكون يتلاعب بلغة الأزهار كما يتلاعب بلغة الكلمات، لم تفهم إلى الآن أهو يحبها أم أنها مجرد فتاة تصطدم به في كل مرة .

لاحظ مراد شرود توليب، أدرك أنه تركها تخوض في زوابع من الأفكار والتساؤلات، وليخفف من وطأة الجو المشحون بعدد كبير من علامات الاستفهام والتعجب، فبادر مرة أخرى للحديث :

-لقد لاحظت أثناء لقاءنا في المقهى بأنك تشربين القهوة حلوة، هناك قلة قليلة من يشربونها بسكر، فالغالبية العظمى يشربونها سادة، وقد أثرت انتباهي بهذه النقطة ، لابد وأنك إنسانة مختلفة

-نعم معك حق ، الكثير من الناس يفاجئون عندما أخبرهم بشأن قهوتي، أنا أؤمن بمقولة لا يبرز جمال الضد إلا الضد، فحبات البن مرة والسكر حلو، اندماجهما معاً يعزز من نكهة القهوة بنظري، كصلصة الطماطم الحلوة والجبنة المالحة في قطع البيتزا، أعلم بأنه مثال مضحك وبأنك ستسخر مني الآن، لكن هذه هي أنا، حتى في علاقات الناس مع بعضهم، حيث نرى أن أكثر الأزواج سعادة هما المتناقضين تماماً في طباعهما، كانت جدتي تقول بأن الله يجمع بي الزوجين المتضادين ليكمل كلاً منهما الآخر، وبرأيي هي محقة في ذلك

أعجب مراد بكلامها وبطريقة تفكيرها لكنها مرة أخرى لم يصدر عنه أية تعليق، الأمر الذي أزعج توليب كثيراً ، وفجأة بدأ المطر بالهطول، فقالت توليب :

-مثلما توقعت، أنه مطر نهاية الربيع ، ربما ستكون هذه المرة الأخيرة التي ستمطر هذه السنة

-هيا دعينا نذهب إلى مقهى قريب لنحتمي من الماء، سنبتل إذا بقينا واقفين هكذا

-ماذا ؟؟ أنت تمزح بالتأكيد ، هيا أعطني يدك

وبالفعل أمسكت توليب بيد مراد، لم تدر ما هذه الجرأة التي اجتاحتها ربما كان للمطر الدور الأكبر في ذلك، ركضا معاً تحت حبيبات المطر الناعمة، كان مراد مندهشاً من جنون توليب، أفلتت يده وبدأت تدور حول نفسها وكأنما كانت ترقص ، كان حذاءها الأسود اللماع ذو الكعب العالي يزعجها ويعيقها من الحركة، فقامت بخلعه جانباً، واستمرت بالرقص والدوران ، فقال لها مراد:

-أنت مجنونة ستصابين بالبرد هكذا، تكادين تغرقين تماماً بالماء،

فردت عليه :

-هيا لا تكن جباناً أنه مطر في النهاية، دع المطر يبلل جميع أجزاء جسمك، دعه يبلل روحك وقلبك، أرواحنا مصابة بالجفاف يا عزيزي وقلوبنا ذابلة، المطر هدية الله لنا لنحيي تلك الأجزاء الخاوية فينا

فأمسك مراد بكلتا يديها وبدأ يقلد حركاتها، ويصيح بأعلى صوته أنت مجنونة ورائعة توليب، أنت ساحرة فاتنة، وهي تنصت إليه لكنها أعطته انطباعاً بأن كلامه لا يثير اهتمامها، لكنها في أعماقها كانت في قمة سعادتها، فأخيراً خرج عن صمته القاتل الذي كان يعذبها، فبينما خلا الأسكودار من رواده إذ أن معظم الناس كانت قد هربت من المطر، كانا لا يزالان يقومان بحركاتهما البهلوانية المجنونة .

توقف المطر بعد فترة وجيزة، جلسا معاً على مقعد جانبي، وقد كانا مستمرين بالضحك على نفسيهما ، فتحدث مراد قائلاً :

-لم أفعل شيئاً بهذا الجنون من قبل في حياتي ، لكنني استمتعت كثيراً، شعرك مبتل تماماً ، لايزال الماء يقطر من خصلاته

ثم أراد أن يزيح جزءاً من شعرها عن رقبتها، لكن توليب وبحركة لم يتوقعها ، أمسكت بيده على حين غرة، وهي تشعر بالضيق والحرج :

-مراد ، لا، أرجوك لا تلمس شعري

فأبعد مراد يده محرجاً ، فقال لها معتذراً :

-أنا أعتذر ، ربما تجاوزت حدودي قليلاً

-أرغب بالذهاب الآن ، شكراً لك أمضيت أمسية جميلة

ها هو الآخر قد وقع في شباك الحيرة أيضاً، لم يفهم تصرفها الغريب، أما توليب فقد جرت مسرعة وهي تمسح حرارة دمعها الذي بدأ يهطل غزيراً كما المطر منذ قليل ، وهي تحدث نفسها تباً، بئساً ، لماذا ؟؟ لماذا ؟؟ آسفة

مراد لا أستطيع، فأنت لا تعلم ماذا جرى معي في الماضي ، اعذرني فجرحي لم يندمل بعد ، سامحني ...

بعد وصولها إلى المنزل تبادر إلى ذهنها الرسالة الأخيرة التي وصلتها من ذلك الغريب الذي لم تعرفه حتى الآن، فقررت أخيراً الرد على رسائله عن طريق البريد الالكتروني كما طلب منها، كانت حانقة، غاضبة، ثائرة، لم تعد تحتمل الضغوطات أكثر، آن لها أن تستريح قليلاً ، يجب أن تنهي أمر تلك الرسائل أولاً، التقطت هاتفها المحمول وأدخلت عنوان البريد وبدأت بالكتابة :

إلى المعجب السري أو الرجل الغامض أو الرجل الغريب أياً ماكنت من أولئك ، لكن اسمح لي بأن أدعوك الرجل الجبان، الرجل الذي يخشى من الظهور أمامي ويفصح عن مشاعره نحوي، إلى الرجل الذي باتت كتاباته تؤرقني وتنكد عليّ لحظاتي ، نعم أعترف كلماتك أسكرتني حتى الثمالة، فارتوى عطش قلبي وجفاف أيامي، نعم أعترف لك بذلك وبكل شفافية، لكن دعني أسألك بنفس لغة كلماتك، هل لك أن تخبرني تصدعات الروح من يرممها، تلك التصدعات التي تنفذ إليها مياه المطر في الشتاء وأوراق الخريف في تشرين، أحتاج إلى من يكفكف دمعي ويربت على كتفي، ويهمس لي قائلاً: لا بأس فالحياة لا تزال جميلة، أحتاج إلى من يداوي خدوش روحي وقلبي ويخبرني بأن الأمل موجود والفرصة لاتزال سانحة، أحتاج إلى من يعانق قلبي قبل جسدي ويقول لي بأن غداً أجمل، أحتاجك عوناً، أحتاجك سنداً، أحتاجك حباً، فهل يا سيدي تستطيع تلبية احتياجاتي، أريد رجلاً حقيقياً خالصاً وليس رجلاً من أوراق وحبر، وفي النهاية هذه آخر مرة سأراسلك فيها، أرجو أن

تنتهي رسائلك أيضاً ، انتهت رحلتنا قبل أن تبدأ، الآن يشغل قلبي رجلاً غيرك ، رجلاً شجاعاً يظهر أمامي في الأوقات المناسبة .

توليب ....

وعادت توليب للتفكير ثانيةً بمراد ، كانت محتارة جداً وضائعة في مشاعرها، فهي قبلاً كانت تبغضه وتكره حضوره المغرور ذاك ، لكن كان لمشاعرها رأي آخر، فرويداً رويداً بدأت تعجب به ، يستفزها ولكنه يجلب لها السلام في نفس الوقت، يغضبها ويسعدها، كلماته ترفعها تارة نحو الغيوم وتارة يبعث بها إلى أسحق الوديان، مزيج من المشاعر المتضاربة والمتناقضة ، لا تعلم هل بدأت تحبه بالفعل أم أنه إحساس طبيعي نتيجة للخواء والفراغ في حياتها .

أما على الجانب الآخر من الشاشة .

-أخيراً وصلني الرد على رسائلي ، لنر ماذا كتبت إلي

وأخذ يقرأ رسالة توليب بنهم وفضول كبيرين، فتنهد مرتاحاً

-فتاة رائعة، يعجبني كل ما فيها، جميلة في مظهرها، في طباعها، في تصرفاتها، شفافيتها وعفويتها ، لكن لا يزال الوقت باكراً لتعرفي من أكون عزيزتي توليب، لم يأن الأوان بعد، انتظريني سآتي إليك عما قريب، إنك فتاتي المنشودة

-ماذا هل أنت تبتسم الآن لا أصدق، لقد مر زمن طويل منذ أن رأيت هذه الابتسامة

-أهلاً عمر ، نعم أنت محق

-هل هي فتاتك

-نعم لقد تأكدت هذه المرة بأنني قد اخترت الفتاة المناسبة

-لم أعتقد يوماً بأنك ستقع في شباك الحب

-نعم صحيح وأنا كنت أعتقد ذلك أيضاً، لكن هذه الفتاة قد غيرت لي حياتي ، سأعترف لها بكل شيء عما قريب، آن للأمور أن تتضح

الفصل الثاني عشر

الساعة السادسة صباحاً، أجفلت توليب من الرنين المبكر لهاتفها المحمول، نظرت إلى حالتها المزرية ، كانت قد غفت الليلة السابقة على مكتبها بعد أن تعبت من التفكير ، استطاعت أن تنتشل هاتفها من بين فناجين القهوة الكثيرة الفارغة والتي كانت قد استهلكتها جميعها فيما كانت ماضية في تحليلاتها للأمور التي تحصل معها

-يا إلهي لا أصدق بأنني نمت هنا طوال الليل، ما بال الممرضة زهرة تتصل بي في هذا الوقت الباكر، هذا غريب أرجو ألا يكون خطب ما قد وقع : ممرضة زهرة أخبريني ما الأمر

-آنسة توليب عليك الحضور فوراً إلى الدار

-ماذا يجري أفزعتني

-السيد ناظم حاول الانتحار ، سأخبرك بالتفاصيل لدى حضورك

-ماذا ؟؟ هل هو بخير الآن

-نعم لقد أنقذناه في الرمق الأخير

هرعت توليب مسرعة باتجاه الدار في قلق وفزع ، فهذه المرة الأولى التي تشهد فيها الدار محاولة انتحار ، لكن لماذا قد أقدم على مثل هذا الفعل ، ولدى وصولها بادرت إلى استطلاع الأمر :

-ممرضة زهرة أخبريني ماذا حدث وكيف

-كما تعلمين كانت لدي مناوبة في الدار، وفيما كنت مارةً بجانب غرفته سمعت صوت وقوع كرسي على الأرض ، فدلفت الغرفة لأر ماذا هناك وإذا

بجسد السيد ناظم متدلي في سقف الغرفة وهو ينفض قدميه بعنف ، كان قد حاول أن يشنق نفسه بربطة عنقه، فاستدعيت العاملين ونقلوه إلى المشفى ، واليوم مساء سيعود إلى هنا

-هذا غريب جداً ، ما السبب يا ترى ، أكان يائساً لهذه الدرجة

-لا أدري ، لكنني سمعت بأنه قد جرت مشادة كلامية بينه وبين السيدة أسيل

-سيدة أسيل !! هذا يوضح الكثير إذاً ، لكن لا زلت لا أستوعب قصة السيد ناظم مع السيدة أسيل

هذا ما حدثت به توليب نفسها ، فذهبت على إثر كلام الممرضة زهرة إلى السيدة أسيل .

دخلت توليب إلى غرفة السيدة أسيل ، كان وجه الأخيرة ممتقعاً شاحباً شحوب الأموات ، فسألت توليب بصوت مرتجف :

-كيف أصبح ؟؟ هل هو على ما يرام

-نعم إنه بخير سيعود مساءً إلى غرفته

-غبي ، جبان كيف يمكن للمرء أن ينهي حياته بهذه البساطة ، هل الحياة والروح لعبة نتسلى بها ، ومتى ما مللنا منها نتخلى عنها ، لكنني لم أستغرب فناظم الذي أعرفه كان ولايزال جباناً

-سيدتي هل تعرفين السيد ناظم ، أنا أعلم بأنه من أشد المعجبين لك ، ولم أستطع التقرب منه إلا عندما قمت بإعطائه مجموعة من أفلامك

-هههههه معجب إذاً ، توليب إنه هو

-من ؟؟؟

-ناظم إنه هو حبيبي القديم الذي أخبرتك عنه والذي تركني بعد قصة حب كبيرة

وهنا كانت المفاجئة ، لم تستطع توليب أن تخفي دهشتها ، فاستطردت السيدة أسيل :

-البارحة وفيما كنت خارجةً من غرفتي ، كان هو يهم بالدخول إلى غرفته ومعه غليونه القديم الذي لازلت أتذكر نقوشه تماماً و كم من الساعات قضيتها بين المحلات التجارية وأنا أبحث عن هدية مناسبة لعيد ميلاده إلى أن وجدت ذلك الغليون ، غبي لا يستحق ذلك ، لقد التقت أعيننا ثانيةً توليب ، التقت نظراتنا التائهة بعد مرور أكثر من عشرين سنة ، لقد جمدت في مكاني مشدوهة لحظة رأيته ، كان هو، لم يتغير على الرغم من مرور كل تلك السنوات ، اقترب مني يحاول التأكد من صحة ما تريه إياه عيناه ، اقترب وحاول أن يلمس وجهي ويقول لي هل أنت حقاً أسيل لا أصدق

-وماذا حصل بعدها ؟؟

-قلت له : ناظم ؟؟!! فأجابني بنعم ، وكما لقاءنا الأخير لم أستطع أن أتمالك نفسي ، فعلى ما يبدو غضبي القديم لم ينتهي وجرحي الذي اعتقدت بأنه التأم عاد للنزيف من جديد ، قمت بصفعه مرة أخرى ، نعم قمت

بصفعه للمرة الثانية ، لم يتحرك ولم يبد أي ردة فعل ، ووجهه بقي ساكناً كما هو دونما أي انفعال ، أخبرني بأنني لا زلت جميلة ، وبأنني ما زلت على عهدي القديم ، وهذه المرة حاول أن يمسك بيدي ، وهنا بدأت بالضرب على صدره وأصرخ في وجهه : لماذا ؟؟ لماذا فعلت هكذا بنا؟؟ لماذا أخبرني ، إنك جبان أنك مقيت لعين ، والكثير الكثير من الشتائم ، ومع ذلك حاول تهدئتي بعد أن تجمهر عدد من الناس حولنا ، كان مقدرٌ علينا أن نلتقي مجدداً توليب ، أتتخيلين كنا في الطابق نفسه وفي غرفتين متقابلتين ، واليوم التقينا مجدداً ، لم أستطع أن أهدأ ، دخلت إلى غرفتي ، حاول أن يتبعني لكنني أقفلت الباب ، بدأ في الصراخ ، بدأ يصرخ باسمي ، ويقول لي أرجوك دعيني أفسر لك ، دعيني أشرح ماذا حصل ، لكنني لم أستجب له ، تعرفين كبرياءنا نحن النساء ، بقي ساعة كاملة وهو يطرق الباب ، ومع كل مرة كانت تشتد ضرباته أكثر ، حتى أنني دهشت لقوته التي لم تتغير مع تقدمه في العمر ، ومع ذلك أبيت أن أفتح له الباب ، وعندما يئس من المحاولة وأخذ يلتقط أنفاسه المتعبة بصعوبة نتيجة للجهد الذي بذله عاد إلى غرفته ، سمعت أنفاسه اللاهثة وهو يغادر ، وشيئاً فشيئاً عاد الهدوء من جديد ، لكن في ساعات الصباح الأولى سمعت وقع أقدام وجلبة كبيرة في الممر ، ذهبت أتبين ماذا يجري ، فإذ كان ممدداً على الأرض بعد أن قاموا بفك ربطة عنقه ، لم أكن أتخيل بأنني سأراه يوماً هكذا

-سيدتي لا يحق لي التدخل في شؤونك الخاصة، لكن هل لك أن تعطيه فرصة أخرى، دعيه يوضح لك لماذا تصرف معك في الماضي، ربما كانت ظروف قاهرة

-الجبان يبقى جباناً توليب

لم تشأ توليب أن تضغط على السيدة أسيل أكثر ، لا سيما بأنها كانت تعلم تماماً أن كلام السيدة أسيل كلام نابع عن رماد غضب وجرح قديمين فقط، و أنها في أعماقها كانت لا تزال تحب السيد ناظم ، وكانت توليب متيقنة بأن السيدة أسيل ستعطيه فرصة أخرة .

ماهي إلا ساعات معدودة حتى عاد السيد ناظم إلى الدار ، وقد كان برفقة عاملين اثنين يمسكانه بذراعيه لمساعدته على المشي، كان يبدو واهناً ضعيفاً بنظرات منكسرة يائسة ومتجهة نحو الأرض، فبدا الرجل كبيراً في السن لأول مرة ، أو على الأقل هذا ما فكرت به توليب ، إذ بدا كامل جسده متهدلاً فاقداً لقوته، في هذه الأثناء كانت السيدة أسيل تترقب عودة السيد ناظم بنفاذ صبر، لقد أحست بأنها مذنبة وبأنها المسبب الرئيسي لمحاولة انتحاره ، ربما قد تكون بالغت قليلاً في رد فعلها، بالتالي هذا ليس فيلماً سينمائياً يتطلب الكثير من الدراما والارتجال ، وقد كانت تنتظر خلو الممر من الناس حتى تتمكن من الذهاب إلى غرفة السيد ناظم ، لقد قفز قلبها لدى رؤيته عائداً إلى الدار ، شعرت بالاطمئنان والسعادة، وما إن سنحت لها الفرصة حتى خرجت متسللة نحو غرفته، أما عن توليب والتي كانت تراقب

الوضع من بعيد ابتسمت في سرها ، فهي لم تكن تتوقع تصرفاً غير هذا من قبل السيدة أسيل ، وحيث أنها وقفت بعيداً عن أنظارها كي لا تسبب لها الحرج .

كان نظر السيد ناظم مثبت نحو سقف الغرفة ، مستحضراً تلك اللحظات العصيبة التي قرر فيها بأنه قد آن الأوان لتنتهي فيها حياته، لاسيما بعد أن فشلت محاولاته مع السيدة أسيل، كان يطمع بفرصة جديدة وحياة جديدة يعوض فيها أسيل عن تلك السنوات التي حرما فيها من بعضهما، كان يفكر بتلك اللحظات فيما كان مستلقياً في سريره خائر القوى، إلى أن ترامى إلى مسامعه صوت يعرفه تماماً :

-لماذا أردت إنهاء حياتك ناظم، كيف لك أن تقدم على مثل هذا التصرف المراهق

فنظر مذهولاً إلى صاحب الصوت، كانت السيدة أسيل واقفة عند طرف سريره ، نظر إليها مرة أخرى، نظرات مفعمة بالشوق ورجاء بالغفران

-لا أطيق الحياة دونك أسيل ، لا أستطيع العيش وأنت بعيدة عني

-لقد عشتَ بالفعل من دون أن أكون بقربك وعلى مدار عشرون سنة

-أنت مخطئة، لقد كان طيفك حاضراً معي وفي كل أوقاتي، تنامين وتستيقظين معي، لقد كنت تزورينني في أحلامي حتى، نأكل ونشرب ونسافر سويةً صدقيني

فاقتربت السيدة أسيل من حافة السرير أكثر، وجلست على الكرسي الملاصق له، وبعدها أمسكت بيد السيد ناظم، دفقات من المشاعر الفياضة اجتاحت كيانيهما الظمئ، شعرا بسعادة غامرة وكأنها كانت اللمسة الأولى لكليهما ، وللحظة نسيا الزمن ونسيا الماضي، فهما الآن يريدان تذكر اللحظة الحاضرة فقط ، اللحظة الغائبة والمفقودة والتي كانت منشودة من قبليهما منذ أكثر من عشرين سنة، وفيما هما في جوهما الخاص كانت من يتلصص عليهما ويسترق السمع لحديثهما ، فقد كانت توليب تشاهدهما من شق الباب وتسمع كل كلمة تدور بينهما، وفي غمرة انشغالها بالتجسس فإذ بمراد يأتي من بعيد ملوحاً لها بيده ، فاقترب منها :

-توليب ماذا تفعلين عند الباب

الأمر الذي أربكها فهي لا تريد أن يكتشف أمرها من قبل السيد ناظم والسيدة أسيل، فبادرت إلى وضع يدها على فم مراد وأطبقت عليه بقوة لإسكاته ، فتحدثت إليه بنبرة هامسة خافتة تكاد لا تكون مسموعة :

-هيه مراد أخفض صوتك قليلاً، تكاد أن تفضحني ، فأنا هنا على وشك اكتشاف سرهما ، صحيح لماذا تأخرت هكذا

-متطفلة كعادتك ، كان لدي عمل ضروري ولهذا تأخرت، أرى أن السيد ناظم في أحسن حال ، ماذا يجري هنا

-كفاك حديثاً الآن ، أنصت فقط

فامتثل مراد لأوامر توليب الصارمة، وأخذ الاثنان يسترقان السمع كجاسوسين محترفين فقد كان الحديث لا يزال مستمراً

-أخبرني ناظم لماذا تخليت عني ، هل كان المال أهم لديك من حبنا ، لم أتوقع أن تكون قصتنا رخيصة بالنسبة إليك

-المال كان سبب ظاهري فقط أسيل، أنت تعلمين بأن المال لا يهمني، وبأنني في سبيل نجاح حبنا لفعلت المستحيل، لكنني أجبرت على التخلي عنك وعن قصتنا الجميلة تلك

-لا، لو كان حقاً ما تقول لكنت هربت معي مثلاً، لفعلت أي شيء كي نعيش الحياة الوردية التي رسمناها معاً

-مع الأسف يا عزيزتي الحياة ليست بتلك البساطة ، مشكلاتها لا تحل بمعجزة كما في الأفلام التي كنت تمثلينها ، تخليت عنك لأحميك ، تخليت عن حياتنا الوردية التي تتكلمين عنها حتى لا تنتهي حياتك أنت ، أنت تعلمين بأن عائلتي لها نفوذ واسع وبأنها قادرة على فعل أي شيء في سبيل مصلحتها ، رأوا بأنك لست مناسبة لي نظراً لمكانتنا الاجتماعية ، لقد قاموا بتهديدي أسيل ، لقد أخبروني بأنهم ربما يقومون بقتلك أو تلفيق تهمة مخدرات لك وضمان السجن المؤبد لك ، أو أبسط شيء أخبروني به ألا وهو إنهاء مسيرتك الفنية ، وبالتالي فقدانك لعملك وشغفك ، لقد كان كل شيء ممكن لدى عائلتي ، وصدقيني لم يكن تخويفاً أو مجرد تهديد لأعدل

عن قراري ، فأنا أعرفهم جيداً ، لذلك رأيت بأن أتذرع بمسألة المال حرصاً على سلامتك

ذهلت السيدة أسيل للكلام الذي سمعته ، وذات الشيء بالنسبة إلى مراد وتوليب ، لقد كان أسيل وناظم ضحية لمكيدة خبيثة ، وهنا أكمل السيد ناظم حديثه :

-لقد كانت زوجتي امرأة طيبة القلب ، لكنها هي أيضاً عانت بسببي ، لقد أجبروني على الزواج منها ، المسكينة كانت تعرف بقصتي معك وقد حاولت بشتى الطرق أن تنسيني إياك ، لكن عبثاً لم أستطع الأمر الذي كان يجرحها كثيراً ، لم أستطع أن أنظر إليها كما أنظر إليك الآن ، لم أستطع أن أمنحها الحب الكافي ، الأمر كان خارج عن سيطرتي ، لقد كانت هي ضحية أيضاً دون أن يكن لها أي ذنب

ترقرقت الدموع في عيني السيدة أسيل :

-أنا آسفة ناظم ، لم أكن أعلم ذلك أنا آسفة حقاً

وهنا اعتدل السيد ناظم في جلسته وأمسك بيد السيدة أسيل التي كانت لا تزال ممسكة بيديه :

-أسيل هل تقبلين بالزواج بي

ابتسمت توليب نصف ابتسامة ، فتوجهت إلى مراد قائلة :

-هيا مراد لقد تلصصنا بما فيه الكفاية ، هذه لحظتهما الخاصة ولا يحق لنا أن نكون متواجدين هنا

-نعم أنت محقة ، هيا بنا إلى حديقة الدار

جلس كلاً من مراد وتوليب على حافة نافورة الماء الدائرية والتي كانت تتوسط الحديقة ، وحيث أن توليب سرحت بنظرها نحو الماء المتدفق من قمة النافورة ، إذ كان صوت رقرقة الماء يريح أعصابها ، ثم بدأت بالكلام :

-لم أكن أظن يوماً بأن حباً كهذا موجود في واقعنا ، اعتقدت بأن الحب العظيم لم يخلق سوى في الروايات وصفحات الكتب

-كلامك صحيح ، لقد كان السيد ناظم حزيناً على الدوام ، وحتى قبل أن تتوفى زوجته ، لم يفهمه أحد وحتى أبنائه فقد سافروا إلى بلدان بعيدة ولم يستطع أحدهم التعامل مع مزاجيته المعقدة

-من كان ليدري بأن وراء وجه السيد ناظم العابس دوماً ، والذي يوحي بالفظاظة والقسوة قلباً مفطوراً حرم من حبه ومن دون أي ذنب ، الحياة قاسية على الدوام ، أتدري حتى السيدة أسيل يخيل إلي بأن شبابها قد عاد إليها بعودة حبها القديم ، المهم بأن النهاية للقصة غدت نهاية سعيدة

-أتمنى بأن يكون لنا نصيب من الحب الجميل كحبهما

قالها مراد وهو ينظر في عيني توليب والتي قد تجاهلت تلميحه لها وكأنها لم تسمع شيئاً ، ولكنها ردت في سرها أتمنى ذلك من كل قلبي مراد

دار رويال للمسنين تتشرف بدعوتكم لحضور زفاف السيدة أسيل أوغلو والسيد ناظم باش، وذلك في حديقة الدار في تمام الساعة الثالثة مساءً.

على بطاقات بيضاء سميكة ذات حواف وردية طبعت هذه الكلمات ، وقد تم توزيع هذه البطاقات على مسني الدار والعاملين فقط ، إذ لم يشأ العروسان بدعوة أحد من خارج الدار حيث أنهما ارتأيا بأنه لا حاجة لأشخاص منافقين من حولهم والذين سيتظاهرون بالسعادة لأجلهما ، فطوال فترة مكوثهما في الدار لم يزورهما أياً من أولئك الذي كانوا يدّعون بالمحبة إزاءهما .

نعم قد أتى اليوم المنشود أخيراً ، إنه يوم الزفاف ، ذلك الزفاف الذي حان وقته في نهاية المطاف والذي قد تم تأجيله لمدة عشرون عاماً ، لا بأس فربما الآن سيكون أجمل فيما لو تمت مراسمه قبل هذا اليوم فنكهته قد باتت معتقة أكثر بأريج الشوق والحب الضائع لسنوات، ها هي قصة المسنيَن السيد ناظم والسيدة أسيل تتكلل أخيراً بالزواج .

وبما أن الدار من الطراز الرفيع، و أن السيد ناظم نفسه يعد من الطبقة المخملية في المجتمع الإسطنبولي فزواجه من حب حياته لابد ألا يكون عادياً، فقد كانت لمسة الفخامة والرقي والتي تظهر ثراء السيد ناظم الفاحش واضحة للجميع في تجهيزات الزفاف، فالورود الطبيعية البيضاء قد غطت ممرات الدار والحديقة ، بالإضافة إلى طاولات الضيوف التي فرشت بأجود مفارش الحرير، هذا وقد رتبت فوقها الصواني الفضية والتي تميل بلونها إلى اللون الرمادي ، بالإضافة إلى أكواب من الكريستال وأطباق مزخرفة بالنقشات الكلاسيكية التقليدية، وعلب صغيرة مزينة بشرائط وردية

المصنوعة من قماش الدانتيل، وباقات صغيرة من ورود ديفيد أوستن فضلاً عن التوليب، أما عن الطعام الذي سيقدم للضيوف فقد اختير بعناية ودقة وذلك ليلائم الجميع ، ولأن السيدة أسيل من محبي الأكلات الفرنسية فلم يكن صعباً على السيد ناظم تلبية رغبتها، فكان هناك لحم البط وبلح البحر والباغيت الفرنسي وسلطة نيسواز، وأخيراً حلوى الماكرون والتي قد كتبت على كل قطعة منها الأحرف الأولى من اسمي العروسين، فضلاً عن وجبات خالية من الملح أو غير مشبعة بالدهون والخالية من السكر، وأيضاً الأطباق النباتية وذلك حرصاً على صحة كبار السن .

-سيدة أسيل هل لي بالدخول ؟ هل أنت جاهزة

-ادخلي عزيزتي توليب

كانت السيدة أسيل بكامل زينتها وأناقتها، وتبدو في غاية الجمال بفستان زفافها ، والقبعة الكلاسيكية المشغولة بالترتر واللؤلؤ الأبيض والتي قد تمت صناعتها يدوياً .

-يا إلهي تبدين رائعة سيدتي ، لكن ما قصة فستانك ، يبدو مميزاً للغاية

-أخجلتني توليب، هذا الفستان يعود للثمانينات كنت قد اشتريته حالما وقعت في حب ناظم، كنت متأكدة بأنه سيعرض عليّ الزواج، لقد كنت مجنونة للغاية إذ اقتنيته من دون علمه، وقد احتفظت به إلى يومنا هذا، بالطبع قد زاد وزني قليلاً لذلك أدخلت عليه بعض التعديلات

-جميل جداً، السيد ناظم ينتظرك أنا أراهن بأنه يتحرق شوقاً لرؤية عروسه، أخبرني مراد البارحة بأن السيد ناظم لا ينفك يعد الساعات انتظاراً لهذه اللحظة

-هههههه أعرف ، بالمناسبة دونت اسمك على أرضية حذائي وفقاً للعادة ، كي تكوني العروس التالية من بعدي

-ليتني أمتلك نصف ثقتك ، لكن مع ذلك لا أفكر بهذا الأمر الآن

-أنا متأكدة بأن مراد سيعرض عليك الزواج عما قريب، لا تظنينني غافلة عما يجري بينكما

-عن أي زواج تتكلمين سيدتي ، نحن بالكاد نعرف بعضنا، هو حتى لا يظهر أية مشاعر نحوي ، هيا السيد ناظم ينتظرنا

لم تشأ توليب أن تتحدث أكثر بخصوص مراد ، لا سيما وأن علاقتهما تبدو ضبابية المعالم ولا يمكن التنبؤ إلى أين ستصل قصتهما معاً ، هي نفسها ذهلت عندما أخبرتها السيدة أسيل بتوقعاتها .

انسحبت توليب من الغرفة بقدوم السيد ناظم والذي كان يبدو متأثراً للغاية إذ ذرف دمعة لدى رؤيته للسيدة أسيل، ومع هذه العواطف الجياشة آثرت توليب ألا تكون متطفلة على لحظتهما الخاصة تلك، فعادت أدراجها إلى الخارج ، ولدى وصولها إلى الحديقة كان مراد بانتظارها ويحمل بيده باقة توليب ملونة، فأرادت توليب أن تستفزه قليلاً إذ كانت تتلذذ بإغاظته كثيراً،

لا سيما وأنها كانت تخسر دوماً أمام عباراته المتقنة التركيب، فباشرت بالتحدث إلى خصمها :

-تبدو باقة جميلة ، هل سرقت أحدها من طاولات الضيوف ، فكما ترى الطاولات مزينة بزينة مبالغ فيها قليلاً

-كما عهدتك، مزعجة دائماً وأبداً ، صحيح أن الطاولات مزينة بباقات توليب لكن لا ، أحضرتها كي أقدمها لك ، ولأقول لك بأن عيناك جميلتان، لابد وأن هذا الجواب الذي كنت تنتظرينه مني

ها هو يتغلب عليها مرة أخرى ، نعم لقد اعترفت بذلك في سرها ، كانت بالفعل تنتظر منه بأن يتغزل بعينيها لتعرف هل هو يتحدث بلغة التوليب حقاً أم مجرد تلاعب بالكلمات .

-لقد أثرت إعجابي بالفعل ، نعم صحيح ما تقوله ، فباقة التوليب الملونة تعني بأن عيناك جميلة ، أعترف بهزيمتي

-انتظري قليلاً ما هذا ، إنه ليس الفستان الذي أمرت بإيصاله لك ، لا بد وأنه حصل خطأ ما

-لا أبداً لم يحصل أي خطأ ، لقد وصلني فستانك بالفعل ، لكن هل لك أن تخبرني ما معنى ذلك

-لا شيء مطلقاً ، لقد أخبرتك بأنني أملك شركة منسوجات ومن الطبيعي أن أهديك فستاناً

-الهدية تقدم وجهاً لوجه وليس عن طريق أحدهم هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنا تقصدت بعدم ارتدائه، لا أحب أن يملي عليّ أحد بأي شيء، سواءً الطريقة التي أتصرف بها أو ملابسي التي أرتديها ، عليك أن تفهم بأن سياسة الإجبار لا تنفع معي

-تخيفينني أحياناً

وقبل أن يستأنف مراد كلامه بدأت الموسيقا تعزف في الأرجاء معلنةً وصول السيد ناظم والسيدة أسيل ، وهكذا سيضطران لتأجيل مشادتهما قليلاً ريثما تنتهي المراسم ، لاسيما وأنهما سيكونان الشاهدان على عقد القران ، فالسيدة أسيل اختارت توليب وكذلك الأمر بالنسبة للسيد ناظم الذي اختار مراد .

سارت الأمور على ما يرام ، وبتقبيل السيد ناظم للسيدة أسيل التي غدت زوجة شرعية له ، انتهت المراسم وقد حان وقت الاحتفال الآن .

بعد رقصة صغيرة قام بها السيد ناظم والسيدة أسيل، حسناً لنقل حركات خفيفة بسيطة ، إذ كان كلاهما يعاني من مشاكل صحية فيما يخص بالحركة، فالسيد ناظم يعاني من الروماتيزم والسيدة أسيل من دوالي الساقين والكعب العالي الذي كانت تنتعله زاد الأمر سوءاً، شرب الجميع نخب العروسين ، وبإيماءة تكاد تكون غير مرئية أشار مراد للسيد ناظم بتشغيل الموسيقا، وهنا فرقع السيد ناظم بأصابعه كإشارة منه كي ينتبه

الجميع إلى ما سيقوله ، أو بالأحرى كانت هذه الفرقعة موجهة بشكل خاص نحو توليب .

-سيداتي سادتي ، أرجو منكم الانتباه

فتحركت الرؤوس بحركة آلية موحدة وأصاخوا السمع جيداً ، وقد كان أشدهم حيرة توليب التي لم تكن تعي ما يجري ، فلم تخبرها السيدة أسيل عن هذا الجزء من الاحتفال ، ومع ذلك ركزت انتباهها نحو السيد ناظم الذي استأنف كلامه بعدما تأكد من أن الجميع ينتظره لمتابعة كلامه

-يشرفني أن أدعو كلاً من مراد وتوليب لأداء رقصة الآن ، سأعتبرها هدية زفاف رائعة لي ولأسيل ، مراد ، توليب أنا وأسيل والجميع بانتظاركم

نظرت توليب بحنق إلى مراد الذي كان يبتسم ابتسامة تشي بالانتصار ، نعم نظرت إلى الوجه الأكثر دفئاً والأكثر استفزازاً لها في الكون كله ، لابد وأنها خطة ماكرة ابتدعها مراد ليستدرجها إلى الرقص معه ، فهذه ستكون المرة الأولى التي سيرقصان فيها معاً .

تقدم الاثنان لتقديم هديتهما فيما انطلقت موسيقا **la cumparista** ، فإذاً يتوجب عليهما الآن تأدية رقصة تانغو أمام هذا الحشد من الضيوف.

أمسك مراد بيد توليب بينما طوقها بذراعه اليمنى ، وبدأت خطواتهما معاً تبعاً لإيقاع الموسيقى

-هيا أزل عنك هذه الابتسامة الساخرة ، اعذرني لكنك تبدو كالأبله

-بدأنا الرقص وأنت لازلت متجهمة ، هيا ابتسمي قليلاً فالجميع ينظر إلينا

-لماذا أحرجتني بهذه الطريقة أخبرتك سابقاً بأنني أكره أن أجبر على شيء ، فضلاً عن ذلك لمَ اخترت التانغو ، الآن سنكون متقابلين وقريبين أكثر من اللازم

-عزيزتي توليب أنت كما في كل مرة تثرثرين كثيراً ، استمعي للموسيقا فحسب ، ودعي الإيقاع يخبرك كيف تتنقلين ، فالتانغو رقصة الشغف والعشق

-ها وهل نحن عاشقان الآن

-لا أدري ربما ، كل ما في الأمر أنني أردت أن نكمل حديثنا الذي بدأناه

-أحمق ، كان بإمكاننا مواصلة حديثنا في وقت آخر ودون الحاجة لهذه الرقصة

-أنا وأنت نعلم بأنك تخدعينني الآن ، وبأننا ما كنا سنتابع حديثنا ، لقد كنت أراقبك وأنت تتنقلين بين الطاولات ، لقد كنت تزاولين عملك حتى في يوم كهذا بينما الجميع يحتفل ، احتفلي قليلاً يا عزيزتي

-إذا كان كذلك فهل لك أن تخبرني من أنت

-ماذا تقصدين بمن أنا ، أنا مراد

-لمَ أنت غامض هكذا ، ماذا تحاول أن تخفي عني

-ماذا ؟؟!! لقد أخبرتك بكل شيء

-إذاً لماذا تضيق حدقة عينك في كل مرة تتحدث فيها عن نفسك ، أنت لا تقول الحقيقة مراد

-وماذا عنك ، هيا أخبريني من تكونين

-أنا توليب هل نسيت اسمي الآن

-أنت لست أفضل حالاً مني ، فحدقة عينك تفضحك أنت أيضاً في كل مرة تقولين فيها بأنك توليب، فإذاً نحن متعادلان ، دعي الأيام تخبرك من أنا

-وأنا كذلك الأمر

كانت تشتد حركاتهما في الرقص مع كل سؤال وجواب بينهما . استأنف مراد الكلام

-الآن عرفت سر حبك للقهوة الحلوة

-كيف ذلك أخبرني

-لأنك مثلها، أنت تماماً كالقهوة الحلوة، ألم تتحدثي عن التناقضات والأضداد، وأنه كيف يمكن لتناغم الأضداد معاً أن يخلق شيئاً رائعاً، وأنت هكذا توليب، أنت أغرب كتلة من التناقضات التي شاهدتها في حياتي، عالمين في قلب واحد، هادئة من الخارج لكن في داخلك صاخبة جداً، سعيدة وحزينة، حكمة عجوز وسذاجة طفل، أنت قهوتي الحلوة توليب

سبحت توليب عميقاً في بحر كلماته، نعم إنه مراد الذي تعرفه، على الرغم من كل الأكاذيب التي يختلقها دائماً، لكنها مع ذلك تحبه، نعم تحبه، باتت تحبه

أكثر من نفسها حتى ، لو أنه فقط يخلع رداء غموضه ويخبرها بالحقيقة ، لو أنها فقط تتحلى بالشجاعة لتلبسه رداء حقيقتها الذي ينتظر منها أن تبوح به ، لكن سؤاله المفاجئ التالي أعادها إلى رشدها مرة أخرى

-حسناً إذاً ما قصة الوشم الذي على رقبتك ، لماذا في كل مرة تخافين أن أراه

ارتبكت خطواتها للمرة الأولى منذ أن بدآ رقصتهما، وبدأ العرق يتفصد من يدها ، كان عرقها بارداً أحس ببرودته مراد الممسك بيدها

-ماذا ؟ عن أي وشم تتحدث

-ها قد عدنا للكذب مرة أخرى

-لا أعرف كيف علمت بأمر الوشم لكنني سأقولها لك للمرة الثانية دع الأيام تخبرك من هي توليب

لم يصدر عن مراد أي تعليق إزاء جوابها، أدرك بأنه لن يحصل على أية إجابات ترجى من توليب ، فبدأ بترديد اسمها

-توليب، توليب، التوليب يعبر عن الفتاة الانطوائية، نعم لا بد وأنك كذلك

-لو كنت انطوائية لما وجدتني أعمل هنا، أتحدث مع الجميع والجميع يتحدث إليّ، والأشخاص الانطوائيون يكونون متحفظون فيما يخص بالكلام

-لازلت غرة في الحياة يا عزيزتي، صحيح أنت لست انطوائية ظاهرياً، لكن انطوائيتك عميقة جداً ، أنت بئر من الأسرار

-أنت تثير أعصابي، تباً لهذه الموسيقا اللعينة التي تأبى أن تنتهي، هلّا توقفت عن التحقيق معي أرجوك

لكن وفي الثواني الأخيرة لانتهاء الرقصة ، وفي اللحظة الذي كان فيها مراد شديد القرب من توليب همس في أذنها قائلاً :

ستكونين زهرة التوليب التي تلون حياتي بألوان الطيف السبعة

صدمة أخرى ومفاجأة أخرى من مفاجآت مراد التي تبدو بأنها بلا نهاية، عندما سمعت هذه الجملة، فكرت للحظات، أين سمعت هذه الكلام يا ترى، يا إلهي إنه هو، حدثت توليب نفسها، أخيراً عرفت من صاحب تلك الرسائل الغامضة ، ماذا تفعل الآن، هل تبكي لأنه خدعها طوال هذه المدة وتلاعب بمشاعرها، هل تضحك لأنها وقعت في غرام الشخص نفسه، أي لا وجود لرجلين اثنين إنما هو رجل واحد، لكنها تعلم أمراً واحداً، لقد جرح كبرياءها بالتأكيد ، لماذا لا تستطيع أن تجد أناساً صادقين من حولها، هل أضحى الصدق صعباً لهذه الدرجة ، أفلتت يدها فوراً حتى أنها لم تهتم فيما إذا مراد سيختل توازنه أم لا، نظرت إليه نظرة قاسية، كانت نظرة تختزل كل النظرات وتعبر عن جميع المشاعر دفعة واحدة ، نظرة عتاب ، نظرة غضب، نظرة سرور، نظرة جرح، تركت الحفل وسط ذهول الحاضرين، أما مراد فقد راقبها وهي تركض خارج الدار، وكما في كل مرة لم يحاول إيقافها ، بل بقي جامداً لم يبرح مكانه

-أنا آسف توليب ، لم أشأ أن أستمر في خداعك أكثر ، لكن هناك الكثير لم تعلمي به بعد ، أرجوك سامحيني يا حبيبتي ، لكنك ستغفرين لي عندما أخبرك بكامل القصة.

الفصل الثالث عشر

في الطريق إلى أسكودار هطل المطر
معطف كاتبي طويل وطرفه موحل
استيقظ كاتبي من النوم وعيناه ناعستان
كاتبي لي وأنا لكاتبي فما شأن الآخرين؟

بكلمات هذه الأغنية التركية القديمة مضت توليب تجوب شوارع إسطنبول وهي تغني دون أن تلوي على شيء، لم يكن لديها وجهة محددة ، كانت تمشي إلى حيث قدماها تقودها، كانت تمشي كالتائهة في تلك الشوارع المتعرجة ، لكنها مع ذلك تعمدت أن تتجول ما بين الأزقة والطرق المرصوفة بالحجارة والحصى، لإيمانها بأن تلك الحجارة ليست بحجارة عادية ، فكل حجر وكل زقاق كان شاهداً فيما مضى على قصة ما، قصص حب، قصص فراق، قصص لقاء وقصص حروب، الكثير من الوعود والكثير من الآلام والآمال قد دونت فوق هذه الحجارة، كان صوت توليب مسموعاً وهي تدندن كلمات الأغنية إذ كان المساء قد حل، وقد كان صرير كعب حذائها يشاركها في غناءها فهو كان بمثابة المؤثرات الصوتية للأغنية، نعم لقد أصيبت بخيبة أمل كبيرة ، هذا ما كانت تفكر به، فهي إلى اللحظة لم تستطيع أن تتبنى موقفاً إزاء ما حصل معها، هل تعتبره خيبة أم إهانة أم أنها كانت بالفعل محظوظة .

بعد مرور شهر ...

على الرغم من أنها بدت كسيرة مهزومة في تلك الليلة إلا أنها بدت مختلفة تماماً الآن ، فبعد مضي شهر على زفاف السيدة أسيل والسيد ناظم كانت توليب قد قررت الذهاب في عطلة لبعض الوقت، كانت تريد أن تلملم شتات نفسها وقطع روحها المتناثرة التي كانت قد هبت عليها رياح الخيبة فبعثرتها بعشوائية ، وقد أخذت بالفعل بنصيحة السيدة أسيل لها ، أما عن النصيحة فمفادها :

-عزيزتي توليب إذا خذلك رجل وكنت تتمزقين من الداخل فإياك أن يظهر ذلك على محياك ، فغرور الأنثى يبدد سطوة أي رجل وبالتالي سيبقى عاجزاً أمام كبريائك ، ضعي أحمر شفاه قاتم بلون الكرز، ليغطي على شفاهك المجروحة التي لطالما عضضت بأسنانك عليها نتيجة غيظك عندما تلمحين طيفه مصادفة أو حتى عندما تتذكرين كم من الألم قد سببه لك، انتعلي حذاء بكعب عال كي لا تبدين مطأطأة الرأس محنية الظهر من وطأة الحمل الأليم الذي ألقاه إليك، قومي بوضع قناع العسل أو قناع الفحم وحتى قناع الذهب كي تخفين الهالات السوداء تحت عينيك نتيجة الأرق والسهر وأنت تسترجعين أطلاله، كافئي نفسك بالحصول على تسريحة شعر جديدة وكي تكوني جريئة أكثر قومي بقصه ، هنا تكونين قد وصلت لأعلى مراتب الثقة بالنفس التي لا بد وأن تكون قد زعزعت قليلاً

وأنه ما من شيء حصل ليعكر مزاجك ويمنعك من القيام بكل هذه التغييرات في مظهرك .

نعم لقد مضى شهر تقريباً ، شهر كامل وتوليب مغلقة هاتفها المحمول ، لا تريد بأن ترد على رسائله والتي كان قد تجاوز عددها المائة، لا تريد أن تسمع صوته ،ليس لأنه قد آلامها بتلاعبه بمشاعرها ، بل لأنها خافت أن تضعف أمامه وأن تنسى كبرياءها الذي حدثتها عنه السيدة أسيل ، هي بالفعل قد اشتاقت له كثيراً واشتاقت لأحاديثه وكلماته، كم كان كلامه عذباً جميلاً، لكن لا، أرادت أن تعلمه درساً قاسياً فيما يخص مشاعر الأنثى، أما عن مراد فلم يوفر جهداً في الاتصال بها ، والذهاب إلى منزلها حتى، لكن الأبواب والنوافذ كانت موصدة بإحكام، كان يظن بأنها حقاً في عطلة لا سيما وأنه سأل عنها مراراً في الدار، أراد أن يستفسر إلى أين ذهبت عله يتبعها ، لكن ما من إجابة حصل عليها ، لأنه ببساطة لم تحدد توليب إلى أين هي ذاهبة ، لكن في الحقيقة وفيما كان مراد يأتي يومياً ويطرق باب منزلها مساءاً كانت هي قابعة داخل المنزل، كانت جالسة في غرفتها والعتمة تحاصرها ، كانت تريد أن تختلي بنفسها وأن تفكر ، تفكر وحسب ، كانت تشاهد مراد كل يوم وتسمع ضربات يده على الباب ،وفي مرات عديدة كانت تقف وتتجه صوب مزلاج الباب تريد أن تفتح له وأن تسمعه صوتها، لكنها في اللحظة الأخيرة تعدل عن قرارها وتعود إلى عزلتها .

من أمام برج غالاته وفي واحد من المقاهي الكثيرة المنتشرة في تلك المنطقة جلست توليب ترتشف قهوتها ببطء واستمتاع ، فهذا آخر يوم في عطلتها حيث أنها غداً ستعود لمزاولة عملها في الدار ، كان قرارها صائباً فيما يخص بأخذ إجازة ، فقد باتت في أفضل حال ، حيث السلام الداخلي والسكينة يغمرانها ، قررت نسيان ما حدث معها بسبب مراد وأن تعود إلى حياتها الطبيعية وكأن شيئاً لم يحصل ، وفيما كانت ممسكةً بصحيفتها الصباحية والتي أصبحت صديقتها اليومية الجديدة إلى جانب قهوتها ، فعلى مدار أيام عطلتها أخذت تطالع الصحف الصباحية كل يوم، أخذت ترقب المارة تارة وتارة تنظر بإعجاب إلى البرج الشامخ أمامها ، ككل مرة تأتي بها إلى هنا ، فقد كانت تشعر دائماً بأنها المرة الأولى التي تشاهده، أخذت تقلب صفحات الجريدة متحاشية الصفحات التي تتداول الأخبار السياسية، فهذا النوع من الأخبار لا يستهويها إطلاقاً ، لكنها فجأة جمدت للحظات أمام الصفحة الأدبية وقرأت الخبر التالي :

فوز القصة القصيرة والتي تحمل عنوان مذكرات فراشة تائهة، وذلك في المسابقة الوطنية للقصة القصيرة ، هذا وقد تألقت مؤلفة القصة نازان في حفل توزيع الجوائز الذي أقيم مساء البارحة في المركز الثقافي .

نهضت توليب من على الكرسي فيما أخذت الصحيفة تهتز بين يديها ، إذ كانت تتأجج غضباً وحنقاً ، وفيما كان الشرر يتطاير من عينيها قامت برمي فنجانها أرضاً والذي تطايرت شظاياه باتجاه رائدي المقهى، كان الجميع

يراقبها بذهول دون أن يتجرأ أحدهم على سؤالها ما الخطب ، أخذت حقيبتها وخرجت مسرعة من المقهى وهي تصيح بصوت عال :

-يكفي إلى هذا الحد ، فلتتوقف هذه المهزلة

كانت غاضبة لدرجة أنها نسيت دفع فاتورة المقهى ، كانت ثائرة لدرجة أنها لم تسمع صوت النادل الذي همّ بالجري خلفها وهو يناديها :

-سيدتي ، سيدتي لقد نسيت تسديد الحساب

لكن مع الأسف فجهوده بالركض قد ذهبت هباءً إذ أن توليب كانت قد استقلت سيارة أجرة تريد الذهاب إلى مبنى صحيفة الحياة .

-أين السيدة نازان أريد مقابلتها حالاً

-هل لك موعد مسبق معها

فزمجرت توليب في وجه موظفة الاستقبال والتي قد أجفلت من الصوت المرتفع لتوليب

-اسمعي يا هذه دعك من هذه الترهات الرسمية الآن

-السيدة نازان في اجتماع الآن ، أرجوك يا آنسة نحن في مبنىً محترم

ازداد غضب توليب أكثر فأكثر ، لم تستطع أن تتمالك نفسها فعادت للصراخ

-قلت لك أريد السيدة نازان حالاً ، هيا أخبريها كي تأتي إلى هنا

صراخ توليب وحالة التوتر والعصبية أثارت فضول الموظفين حولها ، الأمر الذي جعل الغالبية منهم يسألون عما يجري ، ومن بينهم مراد ، نعم فبما أن

مراد صحفي تبين أن هذا المبنى هو مكان عمله ، فعندما سمع الجلبة في الخارج وبينما كانت توليب مستمرة في الصراخ قال في قرارة نفسه:

-هذا الصوت ليس غريباً على مسامعه ، نعم إنه صوت توليب ، نعم إنها توليب حقاً ، لكن ما الأمر لم أر توليب غاضبة هكذا منذ أن التقيت بها

لكن مع ذلك فقد فضّل مراد بأن يبقى بعيداً عن أنظار توليب ، ودسّ نفسه خفية بين الموظفين .

من بين تلك الحشود ظهرت السيدة نازان أخيراً ممتقعة الوجه ، وقفت قبالة توليب وقالت بصوت مضطرب يشوبه الفزع قليلاً

-أرجوك دعيني أوضح لك ، دعينا نتكلم بعيداً في مكان آخر

لكن وقبل أن تكمل جملتها قامت توليب بصفق الصحيفة في وجه نازان، مما جعل المتفرجين يشهقون دهشة و كأنهم في عرض مسرحي، من بينهم مراد الذي اتسعت عيناه لما شاهده تواً

-توضحين؟؟ ماذا ستوضحين ؟؟ لقد كذبت عليّ لقد خدعتني بكلامك المعسول أين أخلاق المهنة ها ، أخبريني أين أخلاق المهنة التي تسمح لك بسرقة القصة القصيرة التي سلمتك إياها منذ أسبوع لأراها الآن موقعةً تحت اسمك ، هيا أخبريني ، كيف سولت لك نفسك ذلك

وفي غمرة هيجانها لم يستطع مراد أن يبقى واقفاً مكتوف الأيدي أكثر ، فاندفع فجأة من بين الموظفين، وأمسك بيد توليب التي أبداً لم تتوقع

ظهوره الآن وفي هذا الموقف تحديداً مما جعل قلبها يخفق بقوة، ضغط بيده كفها ونظر في عينيها عميقاً

-هيا توليب كفاك إلى هذا الحد ، دعينا نذهب من هنا

أفلتت يدها بصعوبة ووجهت سهام نظراتها الحادة هذه المرة نحوه

-ماذا ؟؟، هل أنت الملاك الحارس الآن ، أنت أساساً آخر شخص في هذا العالم أود التحدث إليه الآن ، لست أفضل حالاً منها ، لقد خدعتني لشهور، كنت تتلذذ بتعذيبي ، نعم كانت كلماتك تعذبني وتؤرقني وتفرحني في الوقت ذاته ، لقد كنت تنظر إلي وتراني مضطربة ومشوشة دون حتى أن تسألني ، لأنك تعلم بأنك السبب في ذلك ، أي وقح أنت ، هيا دعني وشأني

على الرغم من أن نازان لم تكن تعي عن ماذا يتحدثان ، لكنها قاطعتهما قائلة :

-أرجوك سامحيني لقد كنت أمر بظروف صعبة ، كدت أفقد عملي وأنا بحاجة للعمل وللمال ، سامحيني أنا آسفة

فأجابتها توليب محتدة وقد زاد حنقها لدى سماعها بمبررات نازان

-ها قلت ظروف صعبة إذاً ، عن أي ظروف تتحدثين ، هل مات والداك ، هل اضطررت لترك وطنك والذهاب إلى بلد غريب لا تعرفين عنه شيئاً لوحدك ، ماذا هل عملت لساعات طويلة مقابل أجر زهيد لا يكاد يسد حاجاتك ، هل تعرضت لمحاولة اغتصاب ، هل عانيت من عقد نفسية

انفجرت توليب كما ينفجر البركان وباتت تلقي بكلماتها كما يقذف البركان بحممه ، أوليس الضغط يولد الانفجار ، ها هي توليب تنفجر الآن ، لم تعد تستطيع الكتمان ، صاحت بكل قوتها :

-هيا أخبريني

لكن وبلغة عربية طليقة جاءها صوت لطالما عرفته ، لطالما أحبت ذلك الصوت ولطالما كانت تستكين لدى سماعها إياه

-ليلى يكفي أرجوك ، كفاك تعذيباً لروحك ، أرجوك كفى

تطلعت العيون جميعها نحو مصدر الصوت إلا أن أحدهم لم يفهم تلك اللغة الأجنبية سوى توليب التي نظرت نحو مراد الذي استأنف كلامه

-هيا ليلى دعينا نذهب

فأجابته توليب أو لنقل ليلى أيضاً بلغتها العربية ، والدموع الحارة التي باتت غزيرة الآن

-كم بقي عندك من مفاجآت لتصعقني بها ، أنت لا تعرف شيئاً مراد

-صدقيني أعرف كل شيء، صدقيني أعلم كم كانت معاناتك قاسية، أنا آسف، أنا أعتذر لأنني لم أعرفك قبلاً لأمنع عنك كل الشدائد التي مررت بها

همت ليلى بالمغادرة ، لكنه سرعان ما أمسك بيدها وضغط بقوة أكبر

-لا ، لن أدعك تذهبين هذه المرة ، في اللقاءات القليلة التي اجتمعنا بها سويةً كنت أدعك تغادرين ، أعترف بأن كبريائي لم يكن يسمح لي ، بالإضافة إلى ذلك فأنا لم أشأ أن أضغط عليك أكثر ، لا لن أدعك تذهبين من هي توليب ، من هي ليلى ، هل توليب هي ليلى ، هل ليلى هي توليب ، فتلك قصة أخرى ، فلنعد للوراء قبل ستة أشهر من الآن ....

الفصل الرابع عشر

الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، كان الظلام دامساً، لا وجود أثر للقمر الذي بدا متخفياً خلف الغيوم، ضربات واهنة بطيئة على الباب، يبدو أن أحدهم يطرق باب شقة ليلى وسيلين بصعوبة وجهد، جاء صوت سيلين من داخل المنزل ، ليلى هل هذه أنت، هل نسيت المفتاح مجدداً، فتحت سيلين لتر الطارق، فشهقت مرتعبة من أثر المشهد الذي أمامها، كانت ليلى واقفة منكسة رأسها صوب الأرض وقد كانت ياقة فستانها ممزقة ،وخيوط الأكمام بارزة بشكل واضح من أثر الشد على ما يبدو، وكأنها قد خرجت من معركة شرسة للتو ، بالإضافة إلى أنها كانت نصف حافية ، فإحدى قدميها كانت عارية من أي حذاء وفي القدم الأخرى كان كعب حذائها مكسور، سألت سيلين برعب وذهول :

-ليلى أين كنت، هل تعرضت لحادث ما، لم حالتك مزرية بهذا الشكل، لقد أخبرتني بأنك ستلحقين بي فور انتهائك من التنظيف، أخبريني أرجوك ماذا حصل

رفعت ليلى رأسها دون أن تنطق بكلمة واحدة، وهنا كانت الصدمة، إذ كانت الخدوش تملأ وجهها بخطوط مدماة ، فضلاً عن كدمة بجانب شفتيها، وقد كان من الواضح أنها بكت طويلاً، فالدموع التي اختلطت مع الكحل الأسود كانت لا تزال تملأ عينيها ، فاستدارت لتري سيلين أثر حرق كان يبدو أنه من الدرجة الثانية في مؤخرة رقبتها ، فصرخت سيلين وقد ازدادت رعباً :

- ليلى أرجوك أخبريني ماذا حدث معك

وهنا ارتمت ليلى على سيلين معانقة إياها وبدأت تنشج وتنتحب متألمة، خائفة ومصدومة كلياً .

قبل ساعات قليلة من ذلك اليوم .....

-هيه سيلين بالله عليك أين كنت ، لمَ تأخرت هكذا ، كدت أجن من ازدحام الزبائن ، لم يخلو المطاعم من الطلبات منذ الصباح

-اعذريني ليلى كان لدي عمل ، أخبريني هل سأل السيد ناظم عني

فنظرت ليلى إليها نظرة متشككة

-قلت لي عمل ؟؟ ما هذا العمل الذي يجعلك تستيقظين باكراً جداً ، عندما فتحت عيني لم أرك في سريرك

-لا تقلقي ليس بالعمل المهم ، بالإضافة إلى ذلك ما بال بكر ، لم يجلس لوحده متجهماً بهذا الشكل ، أليس الوقت باكراً على الشراب

لم تصدق ليلى رواية سيلين ، مع ذلك فقد رأت بأن الوقت ليس مناسباً لفتح تحقيق مع سيلين ، مساءً عند الانصراف من العمل ستستفسر أكثر منها عن عملها المزعوم

-لا تخافي فالسيد ناظم حتى لم ينتبه لغيابك

-أحقاً ؟؟؟ أخبريني ماذا يجري هنا

-عندما وصلت اليوم صباحاً إلى المطعم سمعت العم شكري وبكر يتشاجران ، وكانت أصواتهما عالية بحيث استطعت أن أفهم ماذا يدور

بينهما وما سبب شجارهما العنيف ذاك، صدقيني لم أخف إلا أن يقوم بكر بضرب السيد شكري، على ما يبدو فإن إحدى عشيقات بكر قد غدت حاملاً الآن، وبكر يرغب بولادة الطفل، جن جنون العم شكري لدى سماعه للنبأ، لم يتصور بأن الانحراف الأخلاقي قد بلغ لدى ولده هذا المبلغ ، أبى العم شكري الاعتراف بوجود الطفل حتى، وقد وضع بكر أمام خيارين، أم التخلي عن هذه المصيبة التي أوقع نفسه فيها، أو الحرمان من الإرث ، ويعتبر مطروداً من اليوم ، وبكر بدوره لم يوفر جهداً بالصراخ وإطلاق الشتائم القذرة، حتى أنه كسر آنية خزفية وقام بطرح الكرسي أرضاً

-يا إلهي ، مسكين السيد شكري ، وماذا حصل بعد ذلك

-لا شيء ، هذا حال بكر منذ أن انتهى شجارهما ، والسيد شكري بات لا يرى شيئاً أمامه من هول الفضيحة التي جرها ابنه إليه في هذا العمر ، من الجيد بأنه لم يصب بأزمة قلبية

-سيلين كدت أنسى ، هل رأيت مذكرتي لقد أضعتها في مكان ما هنا ، لم أعد أذكر أين وضعتها

-لا ! لم أرها

-تباً ، حسناً لا عليك

بعد هذا الحوار المطول بين ليلى وسيلين مضت كلاً منهما إلى عملها ، أما بكر فلم يبرح مكانه من على الكرسي ، وزجاجة الشراب لم تبرح مكانها

بين يديه ، إلا أنه أصبح نزقاً للغاية ، كريهاً للغاية ، و ثملاً للغاية، بخلاف السيد شكري الذي بدا مهموماً واجماً صامتاً أكثر من المعتاد.

مع انتهاء يوم عمل آخر غادرت سيلين المطعم صوب المنزل ، وفيما كانت خارجة لوحت بيدها لليلى مودعةً إياها :

-أراك في المنزل ، حاولي أن تنتهي بسرعة

كان على ليلى أن تنظف مطبخ المطعم اليوم ، إذ كان يتناوب على تنظيفه يومياً كلاً من ليلى وسيلين إضافةً إلى بكر، وكما كل يوم كان المطبخ بحالة مزرية ، فبقع الزيت والدهون تملأ المكان الأمر الذي جعل أرضية المطبخ زلقة بحيث تجعلك معرضاً للتزحلق والسقوط المؤلم على ظهرك ، فضلاً عن بقايا الصلصات المتناثرة حول مواقد الغاز وصواني الفرن ، بالإضافة إلى الرماد المتكوم داخل موقد الشواء كان بكر لايزال في المطعم جالساً وحيداً على إحدى الطاولات ويشرب من زجاجات البيرة الواحدة تلو الأخرى ، فقد قرر النوم في المطعم اليوم إذ كان باعتقاده بأنه يعاقب والده بعدم ذهابه إلى المنزل ، وبين الفينة والفينة كانت ليلى تنظر نحو بكر محاولةً قدر الإمكان ألا ينتبه إليها ، محدثةً نفسها يا إلهي ما هذا الابن العاق ، يا له من منحرف عديم الأخلاق ، وفيما ارتدت القفازات المطاطية استعداداً لتفرك الأرضية قررت أن تلقي نظرة أخيرة على بكر ، لكن هذه المرة تنبه إلى وجود من يراقبه فنظر إليها شزراً بينما هي جمدت في مكانها محرجة ، فبدأ ينهال عليها

بسياط كلماته اللاذعة : إلى ماذا تنظرين يا هذه ، هل كلفك والدي العزيز بمراقبتي ، هو أساساً لا يعلم بوجودي هنا ، سأدعه يتعذب قليلاً بانتظاره لي لم تعلق ليلى على كلامه ، بالنسبة لها الآن التنظيف أسهل لها من خوض جدال مع شخص ثمل أحمق ، لكن وفيما كانت جاثية على ركبتيها منغمسةً في التنظيف، حتى شعرت بظل ثقيل يقبع خلفها ، بدأت ضربات قلبها تتسارع خوفاً ، فيما كان الظل لا يزال واقفاً مكانه ،لكن و قبل أن تتمكن من الالتفات إلى صاحب الظل المخيف والتي عرفت بأنه ما من غير بكر سيكون خلفها في هذه الساعة، حتى قام بكر بسحبها من شعرها وأجبرها على النهوض، وسار بها إلى أقرب طاولة من طاولات المطبخ، مال بذقنه على كتفها ، كان قريباً لدرجة أنها استطاعت أن تشتم رائحة أنفاسه الثملة الكريهة ، الأمر الذي أذعر ليلى بشدة فقال لها :

-ماذا ؟؟ هل كنت تراقبينني ، على ما يبدو أنك فضولية بشكل مزعج للغاية، هل تعلمين بأنني أكرهك كثيراً ليلى، هل تعلمين عن كمية الحقد التي بداخلي إزاءك

وهنا انتفضت ليلى وحاولت أن تبعده عنها ، فقام بضرب رأسها بطرف الطاولة ، لم تكن ضربة تجعلها تفقد وعيها فهذا آخر ما كان يريده بكر الآن ، لكنها كانت بالتأكيد ضربة موجعة جعلت الدم يسيل من جبينها وجعلتها تشعر بالدوار ، ثم تابع بكر كلامه فيما كان لايزال ممسكاً بشعرها وواضعاً جانب وجهها على الطاولة الرخامية بعد تلك الضربة ، تماماً

كرجال الشرطة عندما يمسكون باللص بعد تكبيله بالأصفاد ويديه خلف ظهره فيما الجزء العلوي من جسده ملقىً على مقدمة السيارة

كان صوته مضطرباً مشبعاً بالكحول والقسوة :

-لم تسأليني عن سبب حقدي لك ، ماذا لا تستطيعين الكلام الآن ، حسناً أنا سأخبرك ، كان والدي يقول لي بكر ليتك لم تكن ابني ، بكر انظر إلى ليلى ، تلك الفتاة هي من تستحق أن أكون والدها وأن تكون ابنتي ، بكر لماذا لا تكون كليلى ، بكر ... بكر ...

كان دائم المقارنة بيني وبينك، كان يستفزني بكلامه ، ويوم عن يوم كانت نيران غيظي تستعر أكثر فأكثر ، وقد أزمعت أن أذيقك من لهب تلك النيران

لم تحتمل ليلى الوضع أكثر فبدأت بضرب الأرض بقدميها ، وتتحرك هي وكامل جسدها بحركات عشوائية علها تستطيع التملص والهرب من براثن هذا الذئب المسعور، لكن مع ذلك فقد باءت محاولاتها بالفشل ، كانت وحشية بكر وهمجيته في تزايد ، كان غاضباً وحانقاً لدرجة كبيرة

-هيه ما رأيك أن تكوني حبيبتي الجديدة ، ها ما رأيك ، ستكونين بديلاً لا بأس به عن حبيبتي القديمة ، أظن بأن والدي سيفرح كثيراً أليس كذلك

ثم انهال عليها يقبل عنقها ، بدأت ليلى بالصراخ :

-يا لك من وحش قذر مثير للاشمئزاز، هيا اتركني ..اتركني أيها الوغد

وبحركة سريعة منها قامت بالدوس على قدمه، مما جعله يشتم متألماً، لسوء حظها كانت حركتها تلك حركة بسيطة لم ينل منها بكر سوى القليل من الألم كانت أشبه بلسعة بعوضة بالنسبة إليه ، لكنه اعتبرها إهانة لكرامته كرجل وانتقاماً منه نظر فيما حوله ، كانا بالقرب من موقد الشواء فإذ به يتناول ملقط تحريك الفحم من بين فتات الجمر والرماد ، كان أزيز الفحم مسموعاً وكان الملقط لا يزال ساخناً ، فلم تكن ليلى قد وصلت لتنظيف هذا الجزء من المطبخ بعد ، بعدها قام بكر بتقريب الملقط نحو عنقها محذراً إياها :

-إما أن تنصاعي لي أو سأكوي عنقك بهذه الأداة ، هل ترين لايزال معدنه متوهجاً من شدة الحرارة

عاد وجذب ليلى نحوه مرة أخرى ، ومرة أخرى من شعرها ، كانت دموعها غزيرة ، غزيرة جداً ، وفجأة قامت بالبصق على وجهه وقالت له :

-الكي أسهل عليّ من أن أسلم نفسي إلى مجنون مثلك

فما كان منه إلا أن وضع ذلك الملقط الحار على مؤخرة عنقها ، نعم قام بكوي عنقها وبأعصاب باردة كالجليد ، فيما ندت عن ليلى صرخة ألم موجعة ، أصبحت تتخبط وتنتفض كالطائر المذبوح تواً ، لكنها تعلم كما الطائر يعلم بأنه ما من أحد سيساعدها ، لكنها وبحركة يائسة كمحاولة أخيرة للخلاص ، قامت بالدوس مجدداً هذه المرة على كلتا قدميه جعلته يتراجع قليلاً ، وفي تلك اللحظة تناولت مقلاة نحاسية كبيرة كانت معلقة

جانباً ، فوجهت ضربة مباشرة على رأسه، لكنه ولشدة شراسته لم يستسلم لتلك الضربة، فأمسك بياقة فستانها مانعاً إياها من الهرب، وهنا أحست بسيل القوة يتدفق في داخلها دون أن تعرف من أين لها بهذه القوة والشجاعة فجأة ، فوجهت له ضربة أخرى بدت أكثر إيلاماً هذه المرة بفضل تلك القوة الغامضة ، وهي تصيح في وجهه : خذ أيها الحقير ، تباً لك

لقد أفلحت الضربة أخيراً ، فبكر الذي فقد توازنه كان قد خر أرضاً الآن

لماذا؟؟ لماذا؟؟ السؤال الذي كان يطرح نفسه في كل مرة ، لماذا أنا ؟؟ لماذا ؟؟

لقد طفا هذا السؤال على السطح الآن ، كما طفت حطامات الذكريات التي غاصت طويلاً في الأعماق ، كبقايا سفينة متهالكة قد تآكلت بفعل السنين ونمت عليها مستعمرات الطحالب والنسيان ، كجثة غارقة ظنت بأن البحر المالح هو مرقدها ومثواها الأخير ، ولكن لطالما لفظ البحر الجثث واعتبرها كائنات دخيلة في مياهه لا مكان لها بين طياته ، ها هو بحر الذاكرة قد لفظ جثث الذكريات القاتمة ، كما لفظ معها تلك الأجزاء المهترئة لقارب الماضي بقيادة قبطانها الوفي الملقب بلماذا .

فرت ليلى هاربة بعد أن تركت بكر صريعاً ، لا تدري هل مات جراء تلك الضربة أم هو مجرد فقدان للوعي ، لم تشأ أن تفكر الآن فحالتها لا تسمح لها باستنباط تحليلات واحتمالات ، ركضت طويلاً نحو الأسكودار، فلطالما كان ملجأها الوحيد وملاذها الآمن، ركضت إلى ذلك الحضن الدافئ فقد كانت بحاجة إلى عناق طويل، كانت تشعر في كل مرة تذهب فيها إليه بأنه

يمد لها ذراعيه لاحتضانها ، تماماً كذراعيّ والديها ، كانت تستشعر الدفء حتى في أيام الشتاء العاتية ، وقفت قبالة البحر ، آه البحر حضن دافئ آخر لكن بنكهة لاذعة ، أصاخت السمع جيداً إلى تلك الأصوات غير المسموعة ، نعم أصوات غير مسموعة فباعتقاد ليلى أنه ثمة أصوات صاخبة يحملها الموج بين ثناياه ، أصوات المحار ، أصوات تحاور الأسماك أو حتى أصوات فزع الأسماك الصغير من سمك القرش الذي يلاحقها كي يفترسها ، صدى أصوات الكثير من الناس ممن يلقون بثقل همومهم ، ووعودهم ، سخطهم، وأمنياتهم إلى الأمواج ، بالإضافة إلى أصوات المراكب الصدأة الراسية في الأعماق ، فالقاع الآن هو ميناءها دائماً وأبداً.

كانت ليلى تلهث من شدة تعبها وهلعها ، ملأت رئتيها بالهواء ، وصاحت بملء حنجرتها ، وبلغتها العربية الصرفة ، ليضاف بذلك صوتها إلى أصداء الصرخات الأخرى البائسة ، والتي ستحملها الأمواج بعيداً ، بعيداً جداً ، فلربما لاقت ارتداد الصدى على ضفاف شواطئ أخرى ، فهي بذلك بمثابة الزجاجات التي تحوي على رسائل مكتوبة ، لكن هنا الرسائل ليست حبراً على ورق ، وإنما هواء محمل برائحة الملح وترددات الصوت وكلمات حائرة

صرخت مرة أخرى :لماذا ؟؟ لماذا ؟؟ أخبرني يا إلهي لماذا ؟؟ أخبرني أرجوك

كانت تعاند القدر ، وكانت ترفض الواقع ككل مرة ، أوليس محتم علينا أن نؤمن بالقضاء والقدر ، لكن ليلى كانت تريد أجوبة ، صاحت عالياً جداً ، إلى أن بح صوتها ، كانت تعلم أنه ما من جواب لسؤالها المُلِح ، فلا أحد

يعرف حكمة القدر ، لكنها أرادت أن تلفظ السؤال خارج عقلها فقد بات حملاً ثقيلاً على ذاكرتها المنهكة ، أتعبها الصراخ كما السؤال ، فجلست على الرصيف بدلاً من أن تجلس على أحد المقاعد ، فقواها لم تعد تساعدها حتى على السير بضع خطوات أخرى، لقد كانت طاقتها مستنزفة ، جلست صامتة ، لاسيما بعدما رأت بأن جميع من حولها ينظر بفضول إليها ، المارة وبائع بلح البحر وحتى الثملين منهم ، لا بد وأنه في غمرة صياحها نسيت العالم من حولها ، لذلك بدت محرجة بعض الشي ،وفيما هي على هذا الحال فإذ بأحدهم يقترب منها سائلاً إياها :

-آنستي هل تحتاجين إلى مساعدة

أجفلت ليلى لدى رؤيتها للغريب قريباً منها ، لم تستطع أن تتبين ملامحه فقد كان يغطي معظم وجهه بوشاح صوفي سميك ، لكنها مع ذلك فقد أذهلها سؤاله ، إذ أن المتواجدين في المنطقة لم يجرؤ أياً منهم على سؤالها فيما إذا كانت بحاجة إلى مد يد العون ، لكنها خمنت في أن السبب في ذلك لغتها العربية ، فمن المؤكد بأن ما من أحد فهم كلمة مما تقول ، لم ترد على السؤال ، بل اكتفت بالنهوض دون أن تنطق بأية كلمة وتوجهت مسرعة صوب منزلها ، فحادثة التحرش هذه جعلتها تخشى من اقتراب أي رجل منها .

الفصل الخامس عشر

غريب لمَ المطعم مغلق ، السيد شكري ليس من عادته أن يغلق مطعمه في مثل هذا اليوم .

دلف إلى محل بقالة يقع بالقرب من المطعم :

-لمَ مطعم السيد شكري موصدة أبوابه اليوم

فأجابه صاحب المحل والذي بدا عجوزاً في أواسط العقد السادس ، ويحمل شارباً كثاً أبيض اللون وقد لاحه الاصفرار نتيجةً لدخان التبغ ، نظر الرجل من تحت نظارته السميكة نحو الشاب الواقف أمامه ، إذ أنه الشخص العاشر الذي يدخل محله اليوم ويسأله عن سبب إغلاق المطعم

-الجميع اليوم يسأل عن السيد شكري ، فمنذ قليل فقط كاد أن يغشى على فتاة نتيجة للخبر الصادم فجعلتها تستنشق بعضاً من العطر لتتمالك أعصابها ، اسمع أيها الشاب السيد شكري توفي اليوم صباحاً ، أو لنقل بأن جيرانه قد وجدوه جثة هامدة أمام بيت منزله اليوم فجراً ، وقد بينت نتيجة التشريح بأنه توفي إثر أزمة قلبية ، مسكين شكري لقد منحه الله ولداً عاقاً كان السبب في هلاكه

-ماذا ؟؟ كيف ذلك سيدي اشرح لي الأمر ، ما علاقة ابنه بوفاته

-هناك إشاعات في الحي تقول بأن ولده بكر قد حاول التحرش بنادلة تعمل لديهم في المطعم ، أظن بأن السيد شكري لم يتحمل الخبر فأصيب بنوبة قلبية قضى نحبه على إثرها ، كما تعرف سواء أكان المطعم أو السيد شكري يتمتعان بسمعة طيبة ، وحادثة كهذه ستكون ضربة قاضية لكليهما

-يا إلهي ، وابنه ماذا جرى له بعد ذلك ، أين هو الآن

-ابنه الآن يقبع في السجن ، فبعدما علم والده بالفعل المشين الذي اقترفه قام بطرده من المنزل ، وأيضاً سرت شائعات بأن السيد شكري تشاجر مع بكر البارحة مساءً أمام باب المنزل ، فقد أتى بكر كي يطلب من أبيه بعض المال ومن المرجح بأن السيد شكري قد هاجمته النوبة القلبية بعد تلك المشاجرة الحادة ، وبكر نتيجة لذلك قام بالسطو على أحد المنازل بعدما أنفق كل ما كان بحوزته على الكحول والمخدرات ، لكن لحسن الحظ ولأن بكر شاب غبي لم يعلم بوجود أجهزة الإنذار في المنزل ، ولدى دوي صفارات الإنذار استيقظ مالكي المنزل وقاموا بإبلاغ الشرطة التي ألقت القبض عليه وزجت به في الزنزانة

-سيدي سؤال أخير ، هل تعرف اسم النادلة التي تحرش بها بكر

-لا أذكر جيداً ، أعتقد بأنها تدعى ليلى

-ماذا هل قلت ليلى ، يا إلهي ، ليلى ، ليلى تلك الفتاة

حدث نفسه قائلاً لهذا السبب عندما التقيت السيد شكري البارحة بدا مضطرباً للغاية دون أن أفهم السبب ، يا إلهي لقد خرج معي إلى الباب الأمامي لتوديعي ، فإذاً لقد جاء بكر بنفس اللحظة التي غادرت بها ، لقد كان وجهه متعباً للغاية ، لقد كان واضحاً بأن خطباً ما قد وقع ، فكلامه كان مقتضباً للغاية ومليئاً بالألغاز ، يا إلهي أين سأجد تلك الفتاة الآن

الفصل السادس عشر

الموت كالحب، غريب، غير متوقع، مباغت، وقد تشعر بالخدر ولا يمكنك أن تتحكم بنفسك وبنبضات قلبك ، ومع أنه أمر حتمي لجميعنا على نقيض الحب تماماً ، فربما لا تتعثر بالحب يوماً ، فالكثير والكثير من الناس ممن يعيشون حياة طويلة وقد تكون حافلة أو حتى مملة إلا أنهم لا يوفقون بالوصول إلى الحب ، ولكن الموت فهو يحوم بيننا ومعنا في كل لحظة وفي كل دقيقة ، لكن مع ذلك فنحن ننسى وجوده ودائماً ما ننظر إليه على أنه مفاجأة وفاجعة كبرى ، مع أننا ندرك بأنه في النهاية مصيرنا ومصيرهم ومصير الجميع ، لنتقبله فيما بعد على مضض ، أوليس هو الوجه الآخر لعملة الحياة ، وجه الفقد والشوق والغياب الأبدي .

في الأيام القليلة التالية التي تلت حادثة المطعم عاودت ليلى الدخول إلى قوقعتها المقفرة ، فقد سيطر عليها الاكتئاب والقلق ، وعادت إليها نوبات الوسواس القهري التي كانت بالفعل قد تخلصت منها لفترة طويلة ، إضافة إلى أنها كانت تتناول بشكل مفرط مضادات القلق ومضادات الإحباط والأدوية المهدئة ، و كانت كل تلك الأدوية بصحبة صديق ليلى القديم الكحول ، بعدما كانت في مراحل إقلاعها الأخيرة عنه ، تحولت خلال تلك الأيام إلى شبح بشري ، بهالات سوداء داكنة تحت العينين ، وجفون منتفخة أضناها التعب والأرق ، وجسد يترنح من الثمالة تارة ومن فقدان الطاقة تارة أخرى وهذا أمر طبيعي إذ كان طعامها مؤلف من أدوية وكحول فحسب ، أما عدا عن ذلك فقد كانت تقضي نهارها جالسة في

الأسكودار، أو تمشي لساعات وساعات وهي شاردة ، أما عن المساء فقد كانت تمضي الليل بطوله جالسة في غرفتها المفرطة في العتمة ، ما بين صمت مطبق وتحديق في السماء ونوبات بكاء أقرب ما تكون إلى الهستيرية على حد وصف سيلين ،التي كانت تشرح وضع ليلى باستمرار إلى عمر والسيدة إيمان بعدما لاحظوا انقطاع ليلى المفاجئ عن التواصل معهم وزيارتهم .

وفي إحدى المرات صادف أن كانت ليلى في جلستها المعتادة في الأسكودار، فلم يتغير في وضعها أو في حالتها النفسية شيء يذكر ، كانت بعضاً من نسمات الصيف الحارة تمر بين الحين والآخر ، لتذكر بأن فصل الحر والعطلات قد بات وشيكاً ، وقد انتشر باعة المثلجات باكراً هذا العام ، لم تكن ليلى تراقب البحر هذه المرة ، بل كانت مشغولة بمراقبة عائلة صغيرة كانت قد جلست في المقعد المقابل لمقعدها ، وكأن القدر قد ساقها لها بالذات فلربما تتنبه إلى وضعها التي تأبى الخروج منه ، كانت عائلة جميلة مكونة من ثلاثة أفراد ، أب وأم وفتاة صغيرة ، وقد كانت ليلى بالفعل قد لاحظت أن هذه العائلة تشبه عائلتها تماماً ، كانت الفتاة الصغير تمسك بيد والدها الذي بدا سعيداً جداً بابنته التي على ما يبدو قد أتقنت النطق مؤخراً

-بابا أريد منك أن تشتري لي المثلجات

فتجيبها والدتها :

-نور ألم نشتري لك منذ قليل ، لا للمثلجات الآن ستصابين بالتهاب البلعوم

إلا أن الفتاة الصغيرة لم تلق بالاً لكلام والدتها ، وتوجهت بعيون طفولية نحو أبيها مرة أخرى

-بابا ألن تشتري لي المثلجات

فابتسم والدها مرة أخرة وحملها بين ذراعيه وانطلق بها نحو أقرب بائع مثلجات

كانت ليلى التي اغرورقت عيناها لا إرادياً بدموع حارة تراقب المشهد عن كثب ، شعرت بغصة مريرة في حلقها، فدفنت وجهها في راحتي يدها وبدأت تئن ، كان أنين الألم والتعب، أنين فرط الشوق والحنين ، أنين الحاجة إلى الحنان الذي لن يعوض، إلا أنها فجأة سمعت صوتاً محتجاً نابع من أعماقها، فكان مصدر الصوت المحتج هو قلبها نفسه

-هيه ليلى بالله عليك ألم تتعبي بعد ، أرجوك كفاك حزناً لقد أنهكتني فعلاً ، هل تريدين أن أصاب بنوبة قلبية ، هيه ليلى أرجوك لا زلتُ صغيراً على تلك الأمراض

وهنا تشجعت روحها لتتقدم هي الأخرى بالكلام و إبداء رأيها :

-نعم ليلى أنا أوافق القلب فيما يقول ، لم تعد لدي طاقة كي أستمر على هذا الحال، لي حق عليك ليلى، تعبت من كوني دائماً روح مكسورة، حزينة ومهزومة

أفسحوا لي الطريق حان دوري للكلام الآن ، كان المتحدث هذه المرة عيناها:

-ليلى لقد رأينا أننا نحن العينان بحاجة إلى عطلة ، فقد نضبت ينابيع الدموع لدينا ، إننا بحاجة إلى الراحة والنوم العميق ، نعتذر منك لكن فيما إذا كنت مصرة على البكاء أكثر لم يتبق لدينا دموع نذرفها

لم تدر ليلى هل هذه الأصوات حقيقية ، أم أنها أحلام يقظة ، فعلى الأقل الأعضاء يستحيل أن تنطق ، لكنها مع ذلك فقد فكرت ملياً بتلك الاعتراضات والاحتجاجات ، فلربما كان الجميع متعب فعلاً وخائر القوى كما حالها هي أيضاً ، نظرت إلى وجهها في المرآة، ونظرت إلى حالتها ، لماذا تعاقب نفسها بهذه الطريقة ، وإذ بصوت جماعي واحد صدر مجدداً من داخلها ، هيا انهضي ، هيا قاومي ، هيا تابعي حياتك ، هيا إلى تحقيق حلمك ، هيا إلى تحقيق حلمك ، ليلى حلمك ، ليلى حلمك

فنهضت ليلى وكأنما الصوت هو الذي يقودها آلياً ، عليها أن تعيد ترتيب حياتها الآن شكراً قلبي ، شكراً روحي ، شكراً عيناي، ولكن هناك أمر أخير كان عليها القيام به

إذ بعد أن قام بكر بكي الجزء الخلفي من عنق ليلى ، كان الملقط الحار قد ترك ندبة حمراء اللون قبيحة ، وفي كل مرة كانت تتحسس عنقها ، تسري قشعريرة باردة على طول عمودها الفقري يرتعد لها كيانها ، لذلك فكرت ملياً في كيفية إخفاء هذه الندبة ، كانت تريد أن تمحي أي أثر وأية

علامة تذكرها بالحادثة ، فارتأت بأن الطريقة المثلى لتغطية تلك الندبة، وبما أنها لا تملك الكثير من المال للقيام بجراحة تجميلية قررت أنها تريد الحصول على وشم، ففي نظرها كان الوشم فوق الحرق هو الحل الأفضل، وبناءً على قرارها قصدت مركزاً للأوشام ، تملكها الخوف قليلاً لدى دخولها للمركز ، فقد كانت أنواره خافتةً وباهتةً بعض الشيء، إضافةً إلى آلات الوشم الكهربائية المنتشرة في كل مكان ، إلى جانب الإبر التقليدية والأصباغ الملونة والتي تنوعت ما بين اللون الأسود والأحمر والأزرق والأخضر ، ونماذج للأوشام التي تنوعت ما بين رسومات للفراشات والأزهار والقلوب النازفة ، ورسومات لكائنات أسطورية لم تسمع بهم ليلى من قبل ، أما عن العاملين في المكان فلم يكونوا أقل غرابة من المكان نفسه، شبان وشابات بتسريحات شعر غريبة ناهيك عن الألوان التي صبغت بها تسريحاتهم فقد كانت مجنونة تماماً، ووجوههم مزدانة بإكسسوارات معدنية بشعة، حلقات أنف، أقراط حاجب، زمام تحت الفم، ضافيةً بذلك المزيد من الغرابة إلى مظهرهم .

اقتربت إحدى الشابات العاملات من ليلى ، وقد كانت ترتدي تنورة قصيرة فاضحة بعض الشي ، وشعر قصير بلون أزرق ، وتضع الكحل الأسود بكثرة في عينيها ، حتى يخيل للناظر بأنها أحد عازفي الروك

-آنستي هل لي بمساعدتك

ترددت ليلى لبضع لحظات قبل أن تجيب

-أريد الحصول على وشم

-حسناً، هل ترغبين برؤية نماذج الرسومات أم أن هناك وشم محدد ترغبين بوشمه

في الحقيقة كانت ليلى قد اختارت نوع الوشم الذي تود نقشه على جسدها ، إذ بحثت كثيراً في الشبكة العنكبوتية ، فأردفت قائلة :

-نعم ، لدي وشم محدد

-جيد جداً ، هل لك أن تريني صورته

فمدت ليلى بورقة كانت قد طبعت عليه الرسم ، لكن بدت على العاملة علامات الاستفهام ، فلم يكن الشكل الذي أمامها قد شاهدته قبلاً

-أعتذر منك يا آنسة ، لكن هل لك أن تشرحي ما هذا الطائر ، يبدو طائرً غير عادي

-نعم أنت محقة، هذا طائر الهوما، طائر أسطوري يقال بأنه بلا أقدام، ظننتك تعرفينه بما أنك تركية، ففي الشعر العثماني كان يشار إلى هذا الطائر على أنه طائر الجنة، أما في الأدب الشعبي التركي يرمز طائر الهوما إلى سمو الأمير الذي لا يمكن الوصول إليه

ثم صمتت ليلى صمت المزهو بنفسه، أما العاملة المسكينة فلم تعلق على كلامها، فقد بدت غير مكترثة نوعاً ما لأنها تجهل مثل هذه الأشياء، فانكبت على عملها دون أن تنبس ببنت شفة .

بعد حوالي ساعة من الألم ، كان طائر الهوما موشوماً بمهارة على عنق ليلى، وفيما كانت العاملة تضع اللمسات الأخيرة للرسم، طلبت منها ليلى طلباً أثار دهشة العاملة مرة أخرى

- أيمكن أن تجعلي الطائر يحمل في فمه زهرة توليب

فقد كان ثمة أمراً آخر يدور في خلد ليلى ، في نهاية الأمر بدت سعيدة لدى خروجها من المركز ، فلم تكن لتتحمل وخزة إبرة أخرى ، وفيما كانت تهم بالمغادرة ، فإذ بها تشعر بارتجاج في حقيبتها ، لقد كان هاتفها المحمول الذي نسيته لفترة طويلة، لا بد وأن سيلين غافلتها و أعادت ضبط الهاتف على الوضع العام، فقد أقفلت ليلى هاتفها منذ أن دخلت من جديد في دوامة اضطراباتها، كان عمر المتصل يريد أن يلتقي بها حالاً دون أن يبين السبب .

في مطعم وسط مدينة إسطنبول التقت ليلى بعمر والذي كان برفقة ضيف آخر

-مرحباً عمر اعذرني على التأخير

-أهلاً ليلى ، عجيبة أنت ففي كل مرة أراك فيها تبدين أكثر نحولاً ، على فكرة أمي عاتبة عليك كثيراً ، المهم ليس هذا موضوعنا الآن، ليلى أعرفك بالسيدة نازان

كان عمر على اطلاع للأمور التي حصلت مع ليلى، وذلك بفضل سيلين بالطبع، فمشكلة ليلى قد قربتهما من بعضهما أكثر، ومع ذلك فإن عمر

تصرف مع ليلى وكأنه لا يعرف بكل الذي حصل مراعاة لها، تابعت ليلى كلامها :

-عمر أخبرني لمَ طلبت رؤيتي

-لقد أخبرتني سيلين بأن هوايتك المفضلة هي الكتابة ، وقد فهمت منها بأنك تتمتعين بالموهبة الكافية، لذا رأيت بأن أعرفك على السيدة نازان لعلك تحصلين من خلالها على فرصة جيدة لك تبرزين من خلالها موهبتك، فهي تعمل محررة في صحيفة الشمس

ذهلت ليلى للمفاجأة غير المتوقعة، أخيراً تسنى لها فرصة حقيقية، لكنها تمتمت في سرها، منذ متى سيلين وعمر يلتقيان، يا لها من محتالة لم تخبرني بالأمر بتاتاً، ربما تماديت في حزني وفاتتني الكثير من الأمور، لكن سيلين كعادتها لم تستطع أن تمسك لسانها فيما يخص بحلمي، الثرثرة تجري في عروقها

-إذاً عمر ما الذي يتوجب عليّ فعله

-ستخبرك السيدة نازان بنفسها

أما السيدة التي لم تتفوه بكلمة واحدة طيلة الجلسة والتي بدت معتدة بنفسها أكثر من اللازم، كانت امرأة مكتنزة الجسم في أواخر الثلاثينيات، ترتدي نظارة طبية بإطار لامع أسود اللون، وتبدو على ملامحها الجدية والصرامة، وقد كان الشيب قد بدأ يخط خطواته الأولى نحو شعرها ،الذي

بدى مصبوغاً بالأساس ،والمصفف بطريقة رسمية جداً ليعطيها سنوات عمر إضافية إلى سنها الحقيقي ، وهنا كان قد حان دورها للكلام :

-إذاً ليلى أخبريني هل لك تجارب سابقة في الكتابة، وهل حاولت أن تنشري ما تكتبينه ، شعر ، قصة قصيرة ، خاطرة

تضرج وجه ليلى خجلاً ، وارتبكت على الفور ، فقالت متلعثمة :

-الصراحة لم يسبق لي أن كتبت شيئاً ذا أهمية، أو على الأقل هذا ما أعتقده، كتبت في السابق بعضاً من الخواطر، وقصصاً قصيرة ، لكن لم أطلع عليها أحد، إضافةً فقد تبين لي بأن عملية النشر ليست بالأمر السهل والبسيط ، لا سيما فيما إذا كان الكاتب مبتدئ وليس بحوزته المال الكافي لدار النشر

-مم هذا يصعب الأمر قليلاً، لكن لا بأس أنت حاولي بأن تكتبي خاطرة لأنشرها لك في عمود المواهب الشابة في الصحيفة، لا تقلقي فالموهبة لا تخبئ نفسها، فإذا ما كنت موهوبة بالفعل كما تقولين فلن يطول الأمر كثيراً حتى يتحقق حلمك، أتكلم هذا الكلام عن خبرة صدقيني

انفرجت أسارير ليلى بعد أن كادت تختنق من شدة الإحراج ، شعرت ثانية بأن أبواب السماء قد فتحت لها بعدما طال إغلاقها في وجهها :

-أحقاً تقولين

-نعم فبما أن عمر هو من أخبرني عنك فلابد وأن يكون محقاً ، فعمر شخص يثق به

الحق يقال بأن عمر موضع ثقة ، محترم إلى أبعد الحدود ، ويملك شهامة رجل قل مثيلها هذه الأيام بين الشباب ، إنه يشبه والدته كثيراً ، لكن خطر ببال ليلى أمر آخر ، فإذا كان مجال عمل عمر في الإنشاءات ، من أين له بمعرفة السيدة نازان العاملة في مجال الصحافة ، لكن وقبل أن توجه بسؤالها نحو عمر ، نهضت السيدة نازان :

-ليلى سررت بمقابلتك ، إليك رقمي ، ولدى انتهائك من الكتابة اتصلي بي ، أما الآن فاعذروني لقد تأخرت عن عملي

بعد وداع السيدة نازان التفت عمر نحو ليلى :

-ليلى هل لك أن تخبري سيلين بأني سآتي لاصطحابها من المنزل بحلول الساعة الثامنة

لم تتوقع ليلى ذلك ، لقد ظنت أن يسألها عن أحوالها ، أو لمَ هي مختفية ، لكنها رأت بأن عدم سؤالها هو الصواب ، فإعادة رواية ما حدث معها هو آخر ما تود فعله الآن ، اكتفت بالابتسام وأومأت برأسها بأنها بالطبع ستخبر سيلين .

لدى عودة ليلى إلى المنزل استقبلتها سيلين غاضبة :

-ليلى أين كنت ، أنت غير معقولة ، كدت أموت فزعاً لغيابك الطويل هذا إلا أن ليلى كعادتها لم تكن تصغي إلى سيلين ، بل عمدت إلى كأس ملأته بيرة وأخذت تشربه وهي بكامل برودها ، مما أثار عاصفة غضب عاتية من قبل سيلين :

-ليلى ، ليلى هل يمكنك أن تصغي إلي ، اتركي هذا السم الذي تتجرعينه

فردت عليها ليلى أخيراً بتثاقل :

-ما بك ؟ ماذا يجري

-أحاول الاتصال بالسيد شكري منذ الصباح لكنه لا يرد على اتصالاتي ، هل يمكن أن يكون مغتاظاً مني إلى هذا الحد لتركي العمل بعدما علمت ماذا حصل لك جراء بكر اللعين ، فقد تركت العمل دون أن أخبره أو أشرح له الأسباب

-لا تقلقي لن يكون منزعجاً بعد الآن

-ماذا !! ماذا تقصدين هل تواصلت معه

فتنهدت ليلى وتابعت كلامها :

-لم يعد بالإمكان التواصل معه ، سيلين السيد شكري توفي صباح اليوم

فغرت سيلين ثغرها للنبأ غير المتوقع :

-ماذا ؟؟ السيد شكري توفي !! لكن كيف ؟؟ كيف علمت بذلك

-مات بنوبة قلبية ، هذا ما أخبرني به السيد عزيز صاحب متجر البقالة ، لقد ذهبت صباحاً لأتكلم مع السيد شكري والاطمئنان على صحته ، بالتالي الحادث الذي وقع لم يكن ذنبه

وفيما كانت سيلين في خضم مشاعر متباينة ما بين حزن وذهول وجزع إذ تنبهت إلى وشم ليلى الجديد

-ليلى ما هذا؟؟ هل هذا وشم ؟! متى قمت بوشمه ؟؟ لم أظنك قط مهتمة بمثل هذه الأمور

-أردت الحصول على وشم لأغطي الندبة القبيحة جراء الكي

-لمَ اخترت طائر الهوما ؟؟ لم أكن أعرف بأن الهوما يحمل زهرة توليب في فمه

-الحقيقة أنا طلبت من العاملة زهرة التوليب هذه

-ما المغزى من هذا ؟؟ إلى ماذا ترمين

-طائر الهوما لا يحط على الأرض أبداً، إذ يعيش حياته كلها على ارتفاع عال بخفاء فوق الأرض

-فإذاً ؟؟

-لن يكون اسمي ليلى من بعد اليوم، يمكنك مناداتي بتوليب من الآن فصاعداً

-توليب ؟؟ بدأت تخيفينني ليلى

-توليب هو اسم والدتي ، ليلى لم تعد موجودة ، توليب هي الموجودة الآن ، ليلى الغائبة ستكون حاضرة دائماً وأبداً لكن في الخفاء تحت مسمى توليب، ولن يستطيع أحد الوصول إلى توليب قبل أن ينفذ إلى أعماق ليلى

-يا إلهي لقد أرهقت عقلي بقراراتك اللامنطقية، لماذا ليلى؟؟ لماذا هذا كله؟؟

-تعبت سيلين ، تعبت فحسب

وهنا عادت الملامح السوداوية لتكتسح وجه ليلى التي انكبت إلى كأسها من جديد، نظرت سيلين إليها برمة ساخطة، لم تستطع سيلين كبت غضبها

-تباً لك ليلى ، تباً لك أياً ما تكونين ، هل تظنين بأن التمرد على الواقع يكون بالشراب والأوشام القبيحة ، تريدين أن تنتقمي من الحياة بتصرفاتك الطفولية هذه ، لا أنت مخطئة ، أنت تنتقمين من نفسك فقط هذه هي الحقيقة التي تأبى عيناك أن تراها ، كيف لها أن تراها وأنت التي عوّدتها على أن ترى البؤس والحزن والبكاء فقط ، أنت فتاة مثيرة للشفقة ليلى ، فمنذ اليوم الأول الذي عرفتك فيه وأنت تبكين ، بكاء ، بكاء ، بكاء اليوم ، بكاء البارحة ، بكاء غداً ، بكاء حتى السنة القادمة ، هل تحسبين بأنني لم أر دموعك ، لكنني كنت دائماً ما أتظاهر بعدم رؤية شيء فهذه حياتك في النهاية، إياك أن تكوني مثيرة للشفقة ، الشفقة للضعفاء ، أنت أنانية لدرجة أنك انشغلت بحزنك اللانهائي ولم تنتبهي إلى حزني إلى قلقي، ماذا تعرفين عن همومي، لا شيء لا شيء إطلاقاً ، لقد تركت عملي لأجلك ولأجل صداقتنا، وها أنذا مفلسة، ومع ذلك فأنت لم تقدري ذلك، انتقمي من واقعك بتحقيق حلمك ، أسمعتني ليلى ، آه نعم أقصد توليب

-عمر سيمر لاصطحابك في الثامنة مساءً

تلك كانت الطريقة الوحيدة لكي تسكت بها ليلى سيلين ، لم تشأ أن ترد على كلامها نعم فلقد كانت سيلين على صواب كعادتها ، ومحقة في كل كلمة

تفوهت بها ، عيب ليلى بأنها سريعة التأثر أقرت بهذا في سرها ، كانت بحاجة إلى القليل من الوقت فحسب ، تناولت ليلى بعدها مذكرتها وبدأت تدون عليها :

رسالة إلى نفسي ...

أرجوك كوني أكثر قوة فالدرب أمامنا لايزال طويل ... أرجوك كفى خوفاً ... كفى حزناً ... كفى عزلةً ...

أرجوك عودي ... عودي إلى رشدك وحيويتك ... أرجوك كفى بكاء على أطلال الماضي ولنمض قدماً في الحاضر والمستقبل

أرجوك تحركي لتحقيق أحلامك ... كوني أكثر إصراراً ... أكثر عزيمة ... وأكثر جدية

بهذه الكلمات الأخيرة طوت ليلى صفحة أخرى من حياتها وباتت مستعدة لفتح صفحة جديدة ، والأمل يحذوها بأن تكون صفحة بيضاء رائقة تكون فيها ليلى أو توليب هي الكاتب الذي يسطر كيفما شاء على أوراقه ، لقد قررت أن تكون هي وحدها بطلة حياتها ، بنفس جديدة وروح جديدة واسم جديد ، ففي النهاية لا بد لنا بأن نحتال على الحياة كي نتمكن من مواجهتها .

وكما توقعت ليلى لم تكن الأمسية التي أمضتها سيلين برفقة عمر أمسية عادية، فقد كانت سعادة سيلين لا توصف حينما عرض عمر عليها الزواج، الأمر الذي جعلها تشعر بامتنان كبير إزاء ليلى لأنها كانت السبب في

تعارفهما، ذاك التعارف الذي تحول فيما بعد إلى قصة حب صغيرة والتي ستنتهي نهاية سعيدة كما في قصص الأطفال بزواج الأمير من الفتاة الفقيرة اللطيفة ، أما بالنسبة إلى ليلى فلم تتفاجأ كثيراً بالنبأ فقد كان أمراً متوقعاً، لكن الأمر الذي فاجأها هو السرعة التي سارت في منحاها الأمور، لذلك فقد تناقشت مع سيلين مراراً وتكراراً بشأن الإقدام على مثل هذه الخطوة المصيرية ، سيلين التي كانت تعيش أجمل لحظات عمرها ، والتي رأت بأن حلمها بتكوين عائلة صغيرة سعيدة على وشك بأن يتحقق ، إذ أخبرت ليلى بأنها اتخذت القرار الصائب نظراً إلى أنه ما من أحد قد أغرم بها قبلاً ولا تملك من يسأل عن أحوالها ، فبالنهاية لا تريد أن تقضي شيخوختها في أزقة الشوارع، لأنها ببساطة لن يكون لديها مال تقدمه لدار المسنين لأجل رعايتها، لوهلة شعرت ليلى بالذعر إذ أن وضعها يتطابق مع وضع سيلين، فهي الأخرى ستغدو وحيدة مرة أخرى برحيل سيلين، ولم تثر إعجاب أي شخص كان .

أما الأسابيع القليلة التالية فقد كانت زاخرة بالتغييرات الهامة، فقد تم زفاف كل من عمر وسيلين ضمن حفلة صغيرة اقتصرت فيها الدعوات على الأصدقاء المقربين فقط، تلاها سفر العروسين بصحبة السيدة إيمان إلى أنقرة للاستقرار والعيش هناك بالقرب من مقر عمل عمر ، بالدموع الحارة الممزوجة بدموع الفرح والحزن في آن واحد ودعت ليلى عمر وسيلين والسيدة إيمان، وقد كان لدى السيدة إيمان مفاجأة سارة لليلى ، إذ أشارت

إليها بأن تنتقل للعيش في بيت صغير تملكه كانت قد ورثته عن زوجها ، فبذلك تتخلص ليلى من معضلة دفع الإجار وبنفس الوقت سيكون هناك من يعتني بالمنزل جيداً بغيابها ، بالطبع قابلت ليلى هذا العرض المغري بسعادة غامرة ، و امتنان كبير .

بقدر ما كانت الأحداث سعيدة على صعيد حياة سيلين إلا أنها لم تكن ذلك بالنسبة إلى ليلى ، فمع تفرغها التام لكتابة قصة قصيرة على أمل أن تنال إعجاب السيدة نازان ،إلا أن محاولاتها قد باءت بالفشل جميعها ، لم تكن تدري هل كتاباتها رديئة ركيكة أم أن السيدة نازان شخصية صعبة الإرضاء ، فقد أطلعت السيدة نازان على ثلاث قصص قصيرة مكتوبة بعناية فائقة فهي لم تتوانى على تقديم أفضل ما لديها ، لكن لسوء الحظ قوبلت بالرفض جميعها على الرغم من أن ليلى كانت واثقة تماماً بأن قصتها الأخيرة ستلاقي استحساناً لدى السيدة نازان ، بالطبع فقد كان خيار الفشل والرفض من ضمن الخيارات التي فكرت بها ليلى ، حتى أنها قد أعدت نفسها جيداً لمواجهة تلك الظروف ، لكن يأتي الخيال دائماً بصورة مجمّلة وأفضل من الواقع حتى في الأمور السيئة ، الأمر الذي أثبط من عزيمتها قليلاً ، هي لم تيأس ولم تستسلم ولايزال ذاك اليقين المشوب بالأمل بأنها ستنجح يوماً ما راسخ في عقلها وقلبها ، إلا أنها قررت بأن تأخذ استراحة لفترة وجيزة ، فعملها الجديد في دار رعاية المسنين بانتظارها ، لتصبح فيما بعد الموظفة الجديدة اللطيفة توليب .

الفصل السابع عشر

وصلت سيارة الأجرة أمام مطعم السيد شكري، أو لنقل المكان الذي كان سابقاً مطعماً ، ويديره شخص ما يدعى السيد شكري والذي ذهبت ملكيته لشخص آخر الأن ،فعلى ما يبدو فإن المستثمر الجديد لم يدخر جهداً في قلب المطعم رأساً على عقب، في محاولة يائسة لطمس آثار المعلم القديم، فالمطعم الآن قد تحول إلى حانة حزينة، ترجل كلاً من ليلى ومراد من السيارة بعد لحظات صمت ثقيلة، إذ لم يكلم أياً منهما الآخر طيلة الطريق .

ولم يستطيعا أن يخفيا آثار دهشتهما للتغييرات الجذرية التي حلت بالمكان، رنت ليلى طويلاً إلى المكان الجديد ، وكأنها كانت تعقد مقارنات في ذهنها ، فقد استبدل زجاج النوافذ الكبيرة المشرقة واللامعة بزجاج معتم لا يكاد يميز المرء ما بداخل المبنى ،إضافة إلى واجهة نيون ضخمة تومض حروفها الإنكليزية بلون أحمر ناري تارة وتارة أخرى بلون أزرق ثلجي شاحب ، والناظر إلى المكان الآن لا يستطيع أن يتخيل بأن أصصاً بألوان الباستيل الزاهية العامرة بزهور ياسمين البحر كانت تزين جانبي الباب الذي باتت تغطيه الملصقات الإعلانية، بدوره مراد أخذ يقلب ببصره بحثاً عن صائدات الأحلام ،التي كانت تتدلى بشراباتها المزينة بالأجراس النحاسية الصفراء الصغيرة، والأرياش الزرقاء والأرجوانية من العريشة الخشبية الممتدة على طول الفناء الجانبي للمطعم ،لكن لم يجد أياً منها، لم يعثر سوى على خرزة زرقاء كبيرة تتدلى بأنشوطة من الساتان تتأرجح كيفما

اتفق بحركات دائرية، بدت له بأنها محتارة هل تبقى مخلصة لعملها في درء الحسد ،التي لربما لم تنجح مهمتها هذه المرة لكنها مع ذلك فكرت في المقاومة والاستمرار، أم أنها تدع الرياح تسقطها إذ لم يعد لوجودها أية معنى ، عجيبة هي عجلة الأيام التي لا تقل غرابة عن يد الزمان التي تديرها ، كيف لها أن تسكت أصوات الحياة التي كانت تدوي بصخبها أرجاء مطعم السيد شكري ، تلك الأصوات التي باتت الآن من الماضي وحل محلها السكون والصمت المبين ، جلس مراد على عتبة الباب الرخامية التي كانت في ما مضى بلون أخضر زمردي ، أما الآن فأصبحت بلون الغبار والتراب، انضمت إليه ليلى متوجسة ، وإن كانت قد تبعته على مضض، فنيران غضبها لم تخمد بعد، جلست بقربه ،مستشعراً بدفئها مما أكسبه شجاعة البوح والكلام ،بدأ مراد بالكلام وشريط الذكريات يمر تباعاً أمام ناظريه كأحلام اليقظة تماماً

-من هنا ، من هذا المكان بدأ كل شيء

وهنا تبدأ قصة مراد ...

اسمي مراد ، ولدت في دمشق لعائلة ثرية تملك كل شيء ، حرفياً كل شيء إذ تملك كل ما يحلم المرء بامتلاكه ، نعم فعائلتي غنية جداً لكنها في نظري لطالما كانت ترزح تحت مستوى خط الفقر، نحن أغنياء بالأشياء لكننا فقراء بالمضمون و بالمعنى ، فقراء بالروح والحب والعاطفة وتلك النظرة الدافئة الحنونة التي كنت سأبذل ثروتي كلها في سبيل الحصول على تلك

النظرة من والداي ، لا أعرف إن كان يحق لي بتسميتهما والداي ، ربما جينياً فقط، والداي الذي كان جدول أعمالهما مزدحم دائماً وأبداً وكنت أنا وأختي في ذيل القائمة ، لربما كنا في البند الأخير ، لقد كانا أول شخصين كرهتهما في حياتي ،أمر محزن أن تتواجد في داخلك بذور الكره منذ نعومة أظفارك، والدي كان قاسياً فظ القلب خالياً من عاطفة الأبوة ، والذي لم ينتبه يوماً لنا ، لم نكن من الأطفال المحظوظين الذين يهرعون للقاء والدهم مساءً طمعاً بقطع الحلوى الذي سيقدمها إلينا، أما بالنسبة إلى أمي فلم تكن أفضل حالاً ، بل وأظن بأنها الأسوء ،لأنها أم في النهاية ، ومن المفترض بأن تكون عواطف الأمومة لديها جياشة إزاء أبناءها ، لكن لم يكن الأمر كذلك في حالتي ، لقد أمضت أيامها مع صديقاتها من الطبقة المخملية ، زيارات وعطل وحفلات ، أما ولديها فقد تركت الأمر للمربية، فعلى ما يبدو أصبحت تربية الأم لأولادها موضة قديمة ولم تعد رائجة ، لقد كانت أعمال أبي وصفقاته هي أبناءه ،و كان جرو البولدوغ الفرنسي ولداً لأمي ، صدقاً كانت توليه اهتماماً وعناية تفوق اهتمامها بنا فقد كانت تغسل له فروه وتسرحه وتلبسه كنزات صوفية صنعت خصيصاً له، الأمر الذي كان يثير غيرتي وحنقي أيضاً ، أيعقل أن يصل بي الأمر لأن أغار من كلب ، بإمكانك أن تتخيلي مشاعر الإحباط والتقزز التي كانت تلم بي وأنا لم أكن أبلغ وقتها سوى العاشرة فقط، لكن حزني الأكبر لم يكن على نفسي بل على أختي التي كانت تصغرني بسبع سنوات والتي كانت تعاني من متلازمة

داون، مسكينة أختي سارة ، لم تكن تعي ماذا يحصل من حولها ، كانت تعيش في عالمها الخاص وقد كنت أحسدها في أعماقي ، فعدم المعرفة أحياناً تكون بمثابة رصاصة الرحمة ، لقد كانت جميلة بريئة كانت عزائي وأنسي ، تغدق عليّ بلطفها ولمساتها الخجولة ، لكنها مع وضعها هذا لم يتغير شيء ، عندما ولدت توقعت أن تحظى بمعاملة خاصة ، كنت على أمل بأن تتغير معاملة والديّ، وأن أتقاسم القليل من الحب والاهتمام مع المولودة الجديدة ،لكن أياً من أحلامي الساذجة تلك لم يتحقق ، وكأنها كانت أمنيات مستحيلة خارقة عن الطبيعة ، فرضخت في النهاية للأمر الواقع ، وفقدت أي بصيص أمل في أن يتغيرا، نسيت بأن أخبرك عن منزلي ، منزلنا الذي كان فسيحاً جداً ، إذ كان يحوي على خمسة غرف للنوم ، وحمامان للضيوف ومطبخين أحدهما خصص أيضاً للضيوف، مع ذلك كانت جدرانه جاثمة على صدري تكاد تخنقني ،منزلنا الذي كان يغلي كالمرجل شتاءً لفرط دفئه وحرارته نظراً للتدفئة المركزية الذي كان يتمتع بها ، لكن إلى الآن برودته تحز أضلاعي وقلبي ، أراهن بأنني كنت موضع حسد الكثير من الأطفال ممن كانوا في مثل عمري ، فأي طفل لا يتمنى ذلك النعيم الوهمي الذي كان من المفترض أن أستمتع به ، لكن ما من أحد كان يعلم بأنني في نهاية اليوم أخلد إلى سريري باكياً ، منزلنا الذي كان زاخراً بمقتنياته الثمينة من أكواب كريستالية وخزفيات شرقية ، إضافة إلى تماثيل ومجسمات لا حصر لها برونزية ونحاسية ومرمرية لفيلة وجنود وأحصنة وأقنعة فرعونية

مذهبة، لا أعلم على وجه الدقة كيف كانت علاقة أبي بأمي فأنا نادراً ماكنت أراهما مجتمعين ، فكما أخبرتك كل مشغول بأطفاله، وأنا كنت أخلد للنوم قبل أن يرجع أبي إلى المنزل، أحياناً كانت تمضي عدة أيام دون أن ألتقي بأبي ، وقد كان الأمر سيان لدي .

كنت أتوق لبلوغ سن الثامنة عشرة حتى أتمكن من هجر المنزل وألا أعود إليه مطلقاً، كنت أنتظر أن يشتد عودي قليلاً وأن أبلغ السن القانوني لأتمكن من السفر دون موافقة والداي، لكن كلما كنت أفكر بهذا الخاطر كنت أتذكر أختي، فكيف لي أن أتركها بمفردها، كنت قلقاً وخائفاً من أن تهمل رعايتها بغيابي، لا سيما وأن المربية الجديدة كانت فظة كفظاظة أبي ،ولا تمت لمجالسة الأطفال بأي صلة ، لذلك كنت محتاراً في الطريقة الأفضل للتصرف، لم أكن أعلم بأن الجواب سيأتي من تلقاء نفسه في أقرب فرصة، الجواب الذي بدد كل حيرتي ، فذلك الجواب كان بمثابة الشعرة التي قصمت ظهر البعير والتي أنهت كل شيء بالنسبة إلي .

حدث ذلك اليوم في أواخر شهر سبتمبر، كان الصيف يلملم بقايا أيامه الحارة مستعداً للرحيل، كنت قد أنهيت دراستي الثانوية وباتت الجامعة على الأبواب، كنت سعيداً لأنني سأبدأ بدراسة التخصص الذي كنت أحلم به الصحافة طبعاً كما تعلمين،كنت مرتاحاً لأن أبي لم يجبرني على دراسة إدارة الأعمال كي أكون خلفاً له مستقبلاً، وإن كنت قد لمست في نظراته لي بأنه كان ممتعضاً بعض الشي لاختياري، إذ على حد قوله الصحافة لا تطعم

خبزاً، لكنني تجاهلت كلامه بضمير مرتاح، وشيئاً فشيئاً تجاهلني وعاد إلى لا مبالاته المعهودة، كانت أمسية عادية لا تختلف عن باقي الأمسيات ،إذ كما المعتاد لم يكن في المنزل سوى ثلاثتنا أنا وأختي والمربية ،في حوالي الساعة الحادية عشرة كان أبي عائداً من...، أتدري بأنني لا أعلم من أين كان عائداً، هل من العمل وإن كان يوم عطلة ، هل من إحدى سهراته المشبوهة لا أعلم، لكن الشيء الذي كنت متأكداً منه بأنه كان مخموراً، لقد لاحظت ترنح مشيته وإن كان يحاول إخفاءها،كنت في الدور العلوي أراقب المشهد متنهداً وأقول لنفسي إلى متى سيستمر بنا الحال هكذا، وأنا في لجة أفكاري هرعت أختي لملاقاة أبي تريد احتضانه ومعانقته، مسكينة أختي لم تكن تعلم بأن هذا الوحش القابع أمامها والتي لا تزال الخمرة تدور في رأسه سيكون سبب هلاكها،كان من الواضح بأن أبي كان غاضباً لسبب ما، فعيناه تقدحان بالشرر والغضب، مع الأسف كان توقيتاً خاطئاً لمعانقة هذا الرجل، أمسكت أختي بسترته وهي تطلب منه قبلة قبل النوم، نظر إليها شزراً أمسك بها وقام بإبعادها عنه بقسوة ورعونة، مخاطباً إياها: اغربي عن وجهي أيتها الحمقاء، لكنه لم يكن يعلم بأنه ثمة تمثال من المرمر على مقربة منهما ، لقد كانت قبضته قوية بحيث اصطدمت أختي بذلك التمثال الحجري ،فشج رأس أختي ، لم أكن أعلم مقدار الضرر الذي لحق برأسها إذ كانت الدماء تغطي وجهها الصغير مبللاً معه خصلات من شعرها البني، وهنا صرخت بأعلى صوتي مزمجراً من الأعلى أبي ، هرعت أركض كالمجنون

نازلاً الدرجات الرخامية ثلاث درجات سويةً، وأنا لا زلت أصرخ باسم أختي سارة سارة سارة، وضعت رأسها في حضني وأنا أتوسل إليها أن تجيب، أبعدت الخصلات المدماة كي أتبين وجهها، في هذه الأثناء كانت قد عادت أمي وبالطبع كان كلبها المدلل برفقتها، عندما رأت المشهد بقيت واجمة مكانها مشدوهة، ليلى توقعت من أمي أن تركض نحونا أن تصرخ أن تبكي أن تبدأ بالعويل، لكن أياً من هذا لم يحصل، صدقيني لا أدري ماذا حدث لعائلتي في تلك اللحظة، اكتفت أمي أن أحكمت قبضتها على كلبها، ممسكةً به خائفة من أن يصيبه مكروه هو الآخر، لقد ضمت كلبها نحو صدرها، سمعتها تخبره لا تقلق سأحميك أنا أمك لن أسمح لأحد بأن يلحق الأذى بك، أصاب أمي مس من الجنون، كانت تلك الكلمات من المفترض بأن تكون لابنتها التي أصبحت الآن جثة هامدة باردة كالصقيع، نعم لم تستجب أختي لتوسلاتي بأن تستيقظ بأن تفتح عينيها الجميلتين، لقد تركتني لوحدي لأجابه المخبولان الواقفان أمامي، لقد رحلت أختي ورحل معها آخر خيط يربطني بوالداي ، في تلك اللحظة هممت بالهجوم على أبي، لكن المربية أوقفتني في اللحظة الأخيرة، لقد صرخت في وجهه ، أفرغت ضغينة سنوات وسنوات في دقائق قليلة ، نعته بأقبح الألفاظ نسيت لحظتها بأنه أبي، لا لم يكن أبي بل شخص غريب لا أعرفه، لم يرد عليّ، لم يوجه لي صفعة كما توقعت بل اكتفى بالصمت، لماذا ؟؟ لماذا الصمت ؟؟ لماذا يباغتنا في اللحظات الأكثر مصيرية، لقد كان ذنب أختي بأنها تملك الصبغي

السابع والأربعون و بأنها أرادت قبلة، قبلة فقط، أي ذنوب هذه أرجوك أخبريني، ماذا عن ذنوب أبي، ماذا عن ذنوب أمي، ماذا عن ذنوبي وذنوب العالم بأسره، هل تعد ذنوبها خطيئة تستوجب هلاكها في نهاية المطاف بهذه الطريقة الوحشية ومن قبل من، من قبل والدها، أنا أعلم بأن أبي لم يحب أختي يوماً، بل أنه لم يعترف بها، كان يخبر أصدقاءه بأن لديه ابن وحيد وهو أنا، لم يأتي على ذكر أختي أبداً، كان يكرهها ويتمنى لها الموت كل يوم .

في أعقاب تلك الحادثة أصيبت أمي بحالة هستيرية، إذ لازمت غرفتها برفقة كلبها التي باتت تخشى عليه من أدنى حشرة، لم تعد تفارق المنزل، منهيةً بذلك عهد السهرات الباذخة، كانت تقضي نهارها جالسة على سريرها تمسد وتسرح وتنظف كلبها الذي أصبحت أشفق عليه بحق، أنا متأكد من أنه كان يتمنى الهروب في أقرب فرصة تسنح له، أما أبي فلم يعد يكلم أحد لكنه مع ذلك تابع أعماله وكأن شيئاً لم يكن، لم يعتذر، لم يشرح، لم يندم، و لم يوضح لنا شيئاً مطلقاً، أما عنيّ أنا فقد سافرت إلى إسطنبول لأتابع دراستي هناك، لم أعد قادراً على البقاء في المنزل، كان صدى ضحكات أختي ووقع أقدامها لا يزال يدوي في رأسي، كنت أتقن اللغة التركية إذ كنا نمضي جل عطلاتنا هناك، لم أعد على تواصل مع أبي وأمي منذ أن غادرت المنزل، أنهيت دراستي بنجاح، وتحقق حلمي بأن أصبحت صحفياً، ظننت بأنني انتهيت من الماضي، لكن للأسف ما من شيء انتهى، فقد عاد الماضي ليطاردني من جديد، أذكر يومها بأنني كنت في عملي، فإذ أفاجأ برنين

هاتفي، فهو نادراً ما يرن، كان رقماً مجهولاً، فتحت الخط وإذ بصوت أبي على الطرف الآخر ، كانت أول كلمة نطقها : بني

هنا حشرجت الغصة في حنجرتي، وأصبح كياني كله يرتجف، وعادت الحادثة وعادت الذكريات وكأنها البارحة ، أجبته ببرود : نعم ماذا تريد

أظن بأنه كان يتوقع مني رداً جافاً فتابع قائلاً :

-أعلم بأنك لا زلت غاضب مني، وأعلم بأنك لن تسامحني، لكنني أتوسل إليك بأن تأتي إليّ .

لم أصدق ما سمعته، أبي يتوسل، يا إلهي جبروت أبي الآن يتوسل، أنشأت أفكر ما الذ حصل يا ترى، ولمَ يريد مقابلتي، لقد استطعت أن أشعر بأنه صوته كان منهكاً وبأنه يتكلم بصعوبة، أخبرته بأن ينتظر لنهاية الأسبوع لأتمكن من السفر إلى دمشق، لكنني فوجئت بأنه كان في إحدى مستشفيات إسطنبول، الأمر الذي جعلني في حيرة أكبر، منذ متى كان أبي مريضاً، ومنذ متى وهو هنا في إسطنبول، لقد كان لدى أبي شركة أخرى في إسطنبول، وقد كان يديرها من دمشق ، فهو يكره السفر كثيراً .

لم أذهب إليه، كنت ببساطة أستطيع أن أطلب إجازة من العمل، لكنني لم أذهب، شعرت بقبضة تضغط على يدي تمنعني من الذهاب، تلك القبضة نفسها شعرت بها تضغط على رأسي لتنتج عصارات الذكريات المعتقة، ومعها تابعت عملي بشكل طبيعي وكأن شيئاً لم يكن، على الرغم من أنني لم أستطع النوم في تلك الليلة كنت أفكر في قراري، هل أصبت أم أخطأت،

وبما أنني كنت معتاداً على تلقي الأجوبة التي تحسم قراراتي، فإذ بهاتفي يشق سكون الليل والهدوء اللذان كانا يغلفان شقتي، لقد كان السيد ناظم نفسه المتصل، ألم أخبرك بأنه صديق والدي، فهرعت من فوري إلى المشفى، كان أبي قد فارق الحياة قبل وصولي بدقائق، لقد طلب رؤيتي مرة أخرى، لكنني على ما يبدو تأخرت كثيراً، فعلمت حينها بأنني كنت مخطئاً بشأن تلكؤي في الذهاب إليه، أخبرني السيد ناظم بعدها بأن أبي كان يعاني من سرطان الكبد، وقد كان في مراحله الأخيرة، وجاء إلى إسطنبول مؤخراً ليس بغرض تلقي العلاج، فهو يعلم مسبقاً بأنه على حفير الموت وبأنه ما من ثمة أمل في الشفاء، إنما جاء لرؤية ابنه، أعترف بأنني شعرت بتأنيب الضمير لقد لمت نفسي كثيراً، لكنني كنت أفكر في قرارة نفسي في أنني لو قررت الذهاب إليه، لم أستطع تخيل المشهد آنذاك، لكنني كنت متأكداً بأنني لم أكن لأسامحه.

بعد مضي أسبوع على وفاته جاء السيد ناظم إلى منزلي، كان أبي قد ترك رسالة لي، كان قد أوصاه بعدم تسليمي الرسالة حتى مضي الوقت المحدد، خاب أملي عند قراءتي لمحتويات الرسالة، فلم يكن خطاباً حاراً مليئاً بالاعتذارات والدموع، بل جاء بارداً على نحو مثير للشفقة، كان يخبرني بأن جميع ممتلكاته قد أصبحت تحت تصرفي، وبأنه يرجو حقاً أن أتابع إدارة شؤون العمل، وألا أبيع أياً من الشركات وأخيراً اختتم رسالته بقوله:

والدتك غدت الآن في مصح عقلي في دمشق، فبعد وفاة الكلب الذي كانت ترعاه، قد فقدت آخر جزء من إدراكها، أي أن أمك أصبحت مجنونة .

لقد بكيت كثيراً لدى انتهائي من قراءة الخطاب، ليس حزناً على النهاية التي آلت إليها أمي، بل لامتلاكي لنقل امتلاكي سابقاً لوالد كهذا، لقد كان على فراش الموت، ومع ذلك لم يكتب إلي أية كلمات دافئة، أنا كنت سأقبل حتى بكلمات دافئة كاذبة، كنت سأقبل بخداعي بتلك الجمل الرنانة، لكنه مع ذلك لم يسع للحصول على حب ابنه أو أن يحظى بمسامحته، بل على النقيض تماماً كان وسيكون أنانياً جداً في نظري، لذلك وانتقاماً منه قمت ببيع شركاتنا في دمشق، وأبقيت على أملاك إسطنبول، شركة المنسوجات التي حدثتك عنها سابقاً، إضافة إلى شركة المقاولات التي أوكلت مهمة إدارتها إلى صديقي العزيز عمر، نعم عمر زوج صديقتك سيلين، وهنا صمت مراد قليلاً فها هي حقيقة أخرى يكشفها لليلى، التي باتت الآن كغصن شجرة عجوز اعتاد على تلاعب الرياح العاتية به في أي وقت من السنة، هو يدري بأن تلك الرياح ستجرده من أوراقه، وربما ستكسر خشبه الصدئ، لكنه مع ذلك يعلم بأنه سيبقى بأمان مادامت الشجرة التي تحمله لا تزال موجودة، فكذلك ليلى التي أسندت رأسها على كتف مراد، قد باتت تدرك الآن في أنه ما دام مراد في حياتها وإلى جانبها فستكون بخير دوماً وكانت قد استسلمت للكلام، والذي كان بحاجة ماسة للبوح منذ زمن بعيد .

لقد استهلكتنا الأيام حتى أصبحنا كالجذاذ، منهكين متعبين ،امتصت منا روح الحياة حتى الرمق الأخير، كنت أسير في شوارع إسطنبول أبحث على الأرصفة وبين الأزقة على بقايا فتات من الأمل، أقتات منه لأستطيع المضي في أيامي المقبلة، لكن مع ذلك كنت أستطيع أن أستشعر ببارقة أمل في أعماقي، بل كان يقين شبه تام بأن تعبي هذا سيزول وبأن هذه الأيام العصيبة ستنتهي لتحل محلها الأيام المشرقة لا محالة والتي ستغمرني سعادةً ورضا، وإن سألتني عن مصدر تلك البارقة سأخبرك بأنني لا أدري، حقاً لا أدري، لربما كان القدر يمدني بخيوط الأمل كل يوم دون أن أشعر.

أسماني أبي ليلى، أرادني أن أكون إنسانة حالمة، إنسانة قوية لا تهاب أي شيء، وبالفعل كنت كذلك، على الرغم من أنني عاطفية قليلاً، وأنخدش بسهولة بالكلمات القاسية، بعد وفاة والداي جربت شعور اليتم والوحدة معاً، أسوء شعورين يمكن أن يعيشهما الإنسان، بنيت جدراناً حول نفسي لأتجنب شر العالم أجمع ، لم أعد أثق بأي شخص كان، فقدت الثقة بالناس والحياة على حد سواء، أن تكون وحيداً منعزلاً أفضل بألف مرة من الاختلاط مع أناس لا يحترمون فيها مشاعرك، ولا يفهمون بأنك في نهاية المطاف إنساناً لا تختلف عنهم بشيء، أردت الهروب من كل شيء، حتى من نفسي، أردت أن أكون في أمان، أن أكون بعيدة فلم أعد أحتمل خيبات أخرى، أنا أعلم بأنني قد تماديت قليلاً في تمردي، وبتجاوزي العديد والعديد من الخطوط الحمراء، لجأت إلى الكحول للتخفيف من آثار

الوسواس القهري بدلاً من ذهابي إلى طبيب نفسي، وتخليت عن ذاتي عندما حصلت على وشمي وتقمصت شخصية أخرى، لكن صدقني كانت كلها محاولات فاشلة للتعبير عن غضبي وسخطي، لكن في نهاية المطاف كانت معاناتي تتصاعد بدلاً من أن تخمد رويداً رويداً، إضافة إلى ذلك كنت محرومة من لذة الاستمتاع بكوني فتاة، فأنا في نهاية الأمر أنثى، ولا توجد أنثى على وجه الخليقة لا تحب الأشياء اللامعة والبراقة، الملابس الجميلة والعطور الفواحة، فهذا أمر فطري في تكويننا، غريزتنا هي من تتحكم بنا، كنت ألتصق بواجهات المحال التجارية، أمتع نظري بكل قطعة معروضة لا أفوت على نفسي أي تفصيل صغير، وأتخيل نفسي مرة بعد مرة وأنا أرتدي تلك الملابس، أتنهد بحسرة وأقول لنفسي كم كنت سأبدو جميلة، ثق بي لا توجد أنثى لا تحب الاعتناء بمظهرها لكن ظروف الحياة الحقيرة اللعينة هي من تجعلنا ننسى ذواتنا، وحتى القراءة لم أكن أملك المال لأشبع شغفي في اقتناء الكتب ومطالعتها، كنت أشعر بنفسي بأنني لا أختلف كثيراً عن أي متسول في الشارع، تبقى عيوننا معلقة إلى أولئك الأناس الذين تسمع أصوات ضحكاتهم العالية في المقاهي والأماكن العامة، لربما كانت ضحكات واهية ليست إلا، ولربما كان أصحابها تعساء أيضاً، لكن بالنسبة إلينا نحن المحرومون من كل شيء، أصحاب النظرة المنكسرة المتحسرة المشبعة بالألم والحرمان الفاقدة الأمل بأن وضعها سيتغير يوماً ما، هم في نظرنا سعداء جداً ونحسدهم دوماً على غبطتهم تلك، لأنه

ببساطة حالهم ليست كحالنا قطعاً، لأجل تلك النظرة آثرت البقاء في المنزل لأوفر على نفسي عذابات أخرى، فلم أعد أخرج سوى إلى عملي، لكنني لم أكن مدركة بأن مشكلتي ستتفاقم إذ ما فتئت أراقب الفتيات اللاتي كنت ألبي طلباتهن، كن في مثل عمري أو أكبر بقليل، ففي حين كانت بشرتهن تضج بالإشراق والحيوية فضلاً عن تسريحات الشعر المصبوغة والتي كانت تواكب آخر صيحات الموضة،كانت بشرتي باهتة متعبة فضلاً عن الهالات السوداء حول عينيّ وشعري التالف الذي يتوسل إليّ بأن أوليه شيئاً من عنايتي، كنت أبدو بأنني أكبرهن بعشر سنوات جراء تعب العمل وأرق الليل وإرهاق التفكير في مستقبلي، المستقبل الذي لا يزال ضبابياً بالنسبة إلي، لا أعلم ما الذي يخبئه لي القدر بعد، فكرت أحياناً بأنني ساذجة حقاً كما كانت جدتي تنعتني، لذلك اعتقدت لربما كان حلمي ساذجاً أيضاً، لم أكن أعلم بأن نشر كتاب بهذا الكم من التعقيد، طبعاً عندما تكون مفلساً كحالي، لهذا أنا الآن خائفة أكثر، بأنه ما من مستقبل ينتظرني، ربما ينتظرني السراب فحسب، لم يتجاوز عمري الرابعة والعشرون بعد، ومع هذا كنت أتمنى الموت منذ زمن بعيد، أليس من المؤلم حقاً أن تتمنى الموت بعمر العشرينات، حياةٌ عاهرة أليس كذلك، و الأسوء من هذا كله بأنني أشفق على نفسي كثيراً، ليس هناك أسوأ من أن يشفق الإنسان على نفسه، نعم مراد أشفق على نفسي وحياتي، لم أكن أتوقع بأن هذا هو المستقبل الذي ينتظرني، لطالما انتظرت المستقبل بفارغ الصبر عندما كنت

لا أزال في المدرسة، والآن انظر إلى حالي هذه، تائهة، ضائعة، أتخبط في لجة من الشتات وانعدام التوازن، أتعلم لست حزينة لأنك أخفيت الكثير من الحقائق عنيّ، ولست آبهةً بأن قصتي قد سرقت، المهم لديّ بأنها نالت إعجاب أحدهم، فما دمت أحتفظ بخيالي فقصصي لن تموت ولن تنتهي، آسفة لسماع ما حدث مع أختك، والآن هل لك أن تقلني إلى منزلي، أرغب في الجلوس مع نفسي قليلاً .

الفصل الثامن عشر

كان جو الحمام عابقاً بالبخار الساخن وعبير الخزامى، فضلاً عن نغمات موسيقية هادئة مصدرها المذياع الصغير الذي حشر بصعوبة على أحد رفوف الحمام الضيقة والذي كان يبث أغنية تركية قديمة، كانت ليلى مستلقية في حوض الاستحمام تحاول أن تفكر بروية، ولما كانت الأفكار كالنحل الطنان يدوي بصخبه زوايا عقلها، فإنها كانت تلجأ إلى دفن رأسها بالماء علّها تسكت تلك الأصوات المزعجة، لمَ لا تطرق السكينة باب قلبها، أم أنها قد تاهت عن الطريق و أنشأت تطرق قلوباً أخرى، قلبها الذي بات ممتلئاً بمراد إلى حد الثمالة، فاعترفت مستسلمة في نهاية الأمر

-أعتقد بأنني بحاجة إلى مساعدة، لكن إلى من سأتحدث

وفيما هي على هذا الحال من الحيرة إذ يخطر ببالها اسم سيلين، لاسيما وأنها قد مضى وقت طويل على آخر اتصال جرى بينهما، إذ كانت سيلين مغتبطة وهي تزف نبأ حملها إليها، وقد كانت ليلى تطلق ضحكة مكبوتة كلما تذكرت بأن صديقتها المجنونة ستغدو أماً

-يا إلهي كيف لي أن أنسى سيلين، بالطبع فسيلين هي التي ستساعدني

فخرجت مسرعة من حوض الاستحمام ورمت بالمنشفة على جسدها، وقد كان الحماس قد زودها بطاقة فجائية بعد حالة الاسترخاء والكسل بداخل الماء الساخن ، أمسكت هاتفها المحمول وأنشأت تنتظر سيلين بفارغ الصبر للرد على مكالمتها

-هيه سيلين ها أنت أخيراً، أرجوك هل تستطيعين القدوم إلى إسطنبول بأسرع وقت، أحتاج مساعدتك

-لا أصدق بأن ليلى صديقتي تتصل بي، هل أصابتك حمى يا فتاة، لا تتذكرين سيلين إلا عند حاجتك للمساعدة، عليك أن تشكريني سلفاً لقدومي، سأتكبد أنا وطفلي مشقة السفر لأجلك

-لا أصدق سيلين ستغدين أماً ولا زلت كما أنت، تستطيعين السخرية مني قدر ما تشائين وسأحاسبك حساباً عسيراً عندما ألتقيك، الآن هل لك أن تخبريني متى تستطيعين القدوم

-ما علاقة الأمومة بذلك، نعم أنا الآن أستمتع حقاً بالسخرية منك، حسناً إذاً على الرغم من أننا لم نسمع أنا وطفلي كلمة شكراً منك ومع ذلك هل لك أن تفتحي لنا الباب

-ماذا ؟؟!! أي باب ، باب منزلي

وما هي إلا ثواني قليلة حتى قرع جرس الباب، فنظرت ليلى ناحية الباب وهي لا تكاد تصدق ما الذي يجري، كانت سيلين ببطنها المنتفخة وأوداجها المكتنزة تقف قبالتها الآن، كانت قد ازدادت وزناً ولكنها باتت أكثر جمالاً الآن

-يا إلهي ليلى هل تفتحين الباب لضيوفك وأنت نصف عارية، ما هذه الحالة المزرية يا صديقتي

وقبل أن تتمكن ليلى من استيعاب ما يجري، دلفت سيلين التي لا تزال على عهدها مشاكسة ومرحة وألفاظها لاذعة، توجهت إلى صديقتها القديمة مخاطبة إياها كما تخاطب الأم ابنتها المراهقة، كما لو أنها تتدرب على مخاطبة أبناءها المستقبليين

-هيا اذهبي وارتدي شيئاً لائقاً، وأنا سأحضر القهوة، ألا تزالين تشربينها بمكعبات السكر

فأجابتها ليلى وهي تبتعد إلى الغرفة المجاورة

-نعم فقهوتي مثل صديقتي لم تتغير أبداً

فردت عليها سيلين بصوتها المتهكم المعتاد :

-أشفق على مراد، ما ذنب هذا المسكين ليشرب قهوتك الحلوة مدى الحياة، لا تتفاجئي يا عزيزتي ، ففي جعبتي الكثير من الكلام لك

فوثبت ليلى لدى سماعها لسيلين تتفوه باسم مراد، وهي تدعو الله في سرها أن تتوقف المفاجآت لأيام قليلة فقط

-سيلين هل تعرفين مراد ؟ هل لك أن تخبريني ماذا يجري، أشعر نفسي كالبلهاء حقاً

-كيف لي ألا أعرفه، أوليس مراد وعمر صديقان، فضلاً عن أنني على دراية بكل الأمور بينكما، هذه أنت لم ولن تتغيري قط، لازلت انطوائية متكتمة على كل شيء، على الأقل لم أكن متفاجئة من ذلك، لقد اتصل بي مراد اليوم قبل أن تتصلي أنت بي ، وطلب مني القدوم أيضاً إلى إسطنبول ،

وقد أعطاني هذا الظرف لأقدمه لك، لكن قبل الظرف أخبريني لمَ أنت خائفة

-خائفة ؟؟ خائفة مم لا أفهمك سيلين

-لا بل أنت تتصنعين عدم الفهم ، لمَ أنت خائفة من مشاعرك إزاء مراد

-لا أدري، أنا حقاً كما تقولين خائفة، بل وخائفة جداً، أنت تعرفين بأنني أخاف الوثوق في أي أحد، وأنا مترددة بخصوص مراد، دائماً ما كان غامضاً، لغزاً محيراً بالنسبة إلي، حضوره يشعرني بالراحة والأمان، لكن هناك بجعبته دائماً مفاجآت يفاجئني بها، لمَ يعمد إلى إخفاء الكثير من التفاصيل

-فإذاً عليك أن تسأليه، والآن هل لك أن تقرأي رسالته، وبعدها سنرى ماذا سنفعل ، بالمناسبة هل لا زلت تحتفظين بالفستان الذي أهداك إياه

-ألن تنتهي تلك الرسائل ، لكن لماذا تسألين عن الفستان

إلا أن سيلين لم تكن لتسمعها ، فقد كانت أمام خزانة الثياب الآن .

فضت ليلى الظرف لتقرأ كما المعتاد رسالة مراد، فعلى الأقل باتت تعرف مصدر الرسائل الآن.

توليب ...ليلى ...أو أياً ما تكونين، فلا تعنيني الأسماء بقدر ما تهمينني أنت، ربما تكون هذه رسالتي الأخيرة لك، أعلم بأنني أدخلتك بلعبة الرسائل السخيفة تلك، لكن اعذريني فلم يكن لدي خيار آخر، ألم تلاحظي يا عزيزتي بأن كلانا قلبان معذبان، روحان أنهكتهما الحياة وإن كان بزاويتين متناقضتين، كلانا خسر عائلته، عائلتك لم يكن لديها الخيار فهذا هو أمر

القدر، لكن عائلتي هي التي قررت مصيرها بنفسها، أنت كان لديك كل الحب وإن كان مع القليل من المال، وأنا كان لدي كل المال وكل شيء لكن بدون أدنى قطرة من الحب، وها نحن ذا في نهاية المطاف مهزومان ، متخمان بالوحدة، نسير ونسير لكن إلى أين، أنا لا أعلم يا عزيزتي وأراهن بأن حالك أيضاً كحالي، أخبريني؟ إذا كنا نسير فعلاً فلماذا ومن أجل من ومرة أخرى إلى أين ، أرجوك امنحيني وامنحي نفسك فرصة أخرى للحياة، للفرح الغائب عنا منذ زمن طويل، للنور، فما عاد قلبينا يحتملان ظلمةً وعتمة أكثر، إذا كنت موافقة سأنتظرك اليوم في مطعم السيفن هيل، المطعم الذي سنرى من شرفته إسطنبول للمرة الأولى، وصدقيني سأشرح لك كل شيء، حرفياً كل شيء .

كانت عينا ليلى تلتهم الكلمات حرفاً حرفاً، عندما عادت إليها سيلين لتربت على كتفها

-ليلى اذهبي إليه، فلقاءكما سيبدد كل تساؤلاتك ومخاوفك، أنا واثقة بأنك وقعت في حبه كما وقع هو في حبك ، فلولا ذلك ما كنت ستكونين مترددة بهذه الطريقة ، لو لم يكن أمره يعنيك لم تكوني لتلفتي خلفك حتى ، هيا فلدينا الكثير من العمل لننجزه

في مطعم السيفن هيلز وقفت ليلى حابسةً أنفاسها، مشدوهةً للإطلالة الخلابة التي يتميز بها المطعم، لم تكن لتتخيل يوماً بأنها ستزور مكاناً بهذه الروعة في إسطنبول، لاسيما وأنه بالتأكيد يقدم وجبات يفوق مرتبها

أضعافاً مضاعفة ولا يشبه مطعم السيد شكري بشيء مطلقاً، وقد كان تراس المطعم يطل على قصر توب كابي وآيا صوفيا والمسجد الأزرق، إضافةً إلى المشهد البانورامي الذي يقدمه بحر مرمرة والذي يبعد مسافة ثلاثمئة متر عن موقع المطعم كان المطعم خالياً من زبائنه الليلة ،

فخمنت ليلى بأن يكون مراد قد حجز المطعم كاملاً ليكون لكليهما فقط ، والتي اعتبرت بأن في تصرفه هذا الكثير من المغالاة ، لكنه في النهاية يبقى مراد إذ لا وجود للحلول البسيطة في قاموسه ، فالمبالغة وتعقيد الأمور هي من أهم سمات مراد. كانت سيلين قد نجحت في إقناعها أخيراً بارتداء الفستان الذي قدمه لها مراد وقد كان فستاناً جميلاً من الساتان الأبيض اللامع، ذو تطريزات بخيوط ذهبية امتدت على طول الفستان، وقد أكسب مظهر ليلى الكثير من الجمال والجاذبية، وقد كان وشمها واضحاً وضوحاً تاماً بعدما عمدت إلى تسريحة شعر الكعكة، فلم يكن هناك من داع لإخفائه بعد اليوم ،أما مراد بدور فلم يكن أقل أناقة من ليلى ببذلته السوداء الفاخرة ،الحقيقة بأنه أبهرها بطلّته الجديدة ، إذ كانت المرة الأولى التي تراه مرتدياً لهذا النوع من الملابس ، اقترب مراد من ضيفته مرحّباً بها -يسرني كثيراً بأنك قبلت المجيء

فجذب يدها مقبلاً إياها كما تقتضي قواعد المعاملة الراقية ، وبعدها دعاها للاقتراب من الدرابزين الزجاجي الذي كان يحيط بكامل المطعم

-ليلى انظري حولك، إسطنبول كلها أمامنا شاهدة على لقائنا هذا، وستكون مصغيةً لكل الكلام الذي سنتحدثه الليلة

حاولت ليلى كثيراً ألا تستسلم لإغراءات كلماته ، لذلك فقد كانت إلى هذه اللحظة صامتة لم تنبس ببنت شفة ، واكتفت بكلمة واحدة للرد على مراد

-لماذا ؟؟ هل لك أن تخبرني لماذا ، لماذا أنا ، أتعلم كنت أسأل الله دوماً لماذا أنا، لماذا أنا التي أعاني وليس فتاة أخرى، لماذا كل الذي حدث قد حدث معي، لطالما أتعبني هذا السؤال، والآن أتوجه إليك بذات السؤال لماذا، قبلت القدوم الليلة لأستمع فقط، أريد تفسيراً واضحاً ، أنا بحاجة إلى الكثير من الشرح، لذلك سننهي كل شيء هنا وفي هذه الأمسية، وفي حال استمر الغموض فهذه ستكون المرة الأخيرة التي سترى توليب وليلى معاً.

كانت ليلى تعتذر في أعماقها إلى مراد، تحدث نفسها أنا آسفة مراد، آسفة على فظاظتي وكلامي القاسي، أعلم بأنك لا تستحق ذلك، لكن أرجوك اعذرني فقد سئمت من لعبة المتاهات هذه .

لم يفاجأ مراد برد ليلى، فهذا هو الاحتمال الوحيد الذي فكر فيه أصلاً، بل على النقيض تماماً فلو كانت قد ردت برد مختلف، فستكون المفاجأة له، لذلك وبكل هدوء واتزان رد عليها

-أنا هنا أساساً لأقدم لك كل الشروحات المناسبة، سأتكلم وأنت ستمسكين بالممحاة لتمسحي كل إشارة استفهام مرسومة في دماغك ، لكن هل لنا أن نجلس على الطاولة أولاً

سرت ليلى كثيراً لهذا الاقتراح، وقد كانت ممنونة له لاسيما وأن سيلين كانت قد أخطأت بمقاس حذائها، فقد كان الحذاء صغيراً على مقاس قدمها، الأمر الذي كان يؤلم قدمها ، والتي كانت مكابرة على هذا الألم على مضض

-في البداية دعيني أقدم لك وردة التوليب هذه، انظري إنها بيضاء، كلون أول زهرة توليب قدمتها إليك، وكلون هذا الفستان الذي ترتدينه، انظري إلي كلاكما كم أنتما متشابهتين، ليلى أنت زهرة توليب بيضاء، فاتنة، رقيقة ونقية، سحرها لا يقاوم، وكما التوليب الأبيض يعني أنا آسف في لقاءنا الأول، فهو يشير أيضاً إلى الحب المثالي، نعم ليلى سأكون جريئاً وصريحاً معك للمرة الأولى، أنا متأكد على أن حبنا سيغدو مثالياً، ليس بالضرورة أن يكون في الوقت الحاضر، لكن الأيام حاضرة بيننا ، لدينا كل الوقت لنقرر هذا، أما عن اسم الاستفهام لماذا، فجوابي ببساطة لا أدري، هي الأسئلة البديهية دوماً هكذا ،يكون الجواب عليها أعقد بكثير مما نظن، فتلك الحروف القليلة التي تشكلها تحمل في طياتها الكثير من المضامين اللانهائية، لكن ولأنني وعدتك بأنها ستكون ليلة خالية من لماذا، فسأجيبك بأقرب جواب رأيته مطابق للحقيقة، لماذا أنت، لأنني ربما تذكرت أختي، عندما رأيتك للمرة الأولى في مطعم السيد شكري، كنت أرى عيوناً تنطق بالرجاء ، تتوسل كي يتنبه أحد إلى معاناتها ، تلك النظرات الحائرة، القلقة التي تنتظر المجهول لتتبين مستقبلها، أما في المرة الثانية التي أتيت بها إلى المطعم، رأيتك من خلف الزجاج تكتبين في مفكرتك ،

لم يكن ثمة زبائن، كنت أنا الزبون الوحيد يومها ، وعندما دخلت نهضت مذعورة لتلبية طلبي إذ كنت منغمسة في الكتابة فلم تتنبهي إلى وجودي، وقد نسيت على إثرها مذكرتك على الطاولة، وهنا أثرت فضول الصحفي الذي بداخلي ، فلم أستطع من أن أمنع نفسي من تقليب صفحات المفكرة ، أتعلمين بأن الكلمة الأولى التي وقعت عيني عليها، هي لماذا ، هنا زاد فضولي أكثر، فأنشأت أقرأ بعضاً من كتابتك، على الرغم من أنها كتابة مبتدئة إلا أنها كانت تنم عن موهبة كبيرة ، فآثرت على الاحتفاظ بالمذكرة ، لا لشيء سوى لأنني قررت بأن آخذها معي كي أتمكن من متابعة قراءتها، على أن أعيدها لاحقاً، لم أكن لأعلم بأن الإلهام الذي قادني على الاحتفاظ بالمذكرة سيكون الوسيلة الوحيدة فيما بعد كي أتمكن من إقناع السيدة نازان بموهبتك، من بعدما أخبرتني سيلين عن حلمك الخاص بالكتابة، إنه القدر مرة أخرى يا عزيزتي، خيوط القدر رائعة، معقدة متشابكة، لانهائية، محكمة جداً وعبقرية، نحن مدينون بالشكر الكثير إلى الله تعالى، لأن بحكمته العظيمة يدير لنا حياتنا بسلاسة وانسيابية .

لقد كنت أرتاد المطعم كلما سنحت لي الفرصة، لكنك لا تذكريني فهذا أمر طبيعي، كيف لك أن تتذكري وجه كل شخص يدخل إلى المطعم، واعذريني لأنني لم أتمكن من إعادة مذكرتك، بالمناسبة لازلت أحتفظ بها إلى هذه الساعة، كان السيد شكري رجلاً ودوداً، أصبحنا بمرور الزمن أصدقاء، كنت بحاجة إلى نصائح أبوية من وقت إلى آخر، في الليلة التي قام بها بكر

بمحاولة اغتصابك، وأعتقد بأنه حصل بعدما قفل بكر عائداً إلى منزله، عندها علم السيد شكري بما حدث، فتلقيت اتصالاً منه، يطلب مني المجيء إلى منزله، لا زلت أذكر ما قاله لي :

-بني مراد، أنت تعرف ليلى صحيح، الفتاة التي تعمل في المطعم، أرجوك أريدك أن تعتني بها هذه الفترة ، إنها قطعة من الروح، أوصيك بها فكلاكما قادمان من نفس البيئة ، تعال غداً إلى المطعم وسأعلمك بالتفاصيل

فهمت بأنه كان يقصد جدتك، لكن وبينما كنت أغادر بسيارتي، رأيت شجاراً يدور بينه وبين ابنه بكر، إلا أنني لم أشأ التدخل، فالمشكلة حساسة بعض الشيء، لأعلم في اليوم التالي ماذا جرى ،لكن كانت المشكلة تكمن هي كيف لي أن أجدك بعدما توفي السيد شكري، أو لماذا أوصاني بك، بت مرتبكاً لا أعرف كيف لي أن أتصرف، أتعلمين لم أكن أؤمن بالصدف إلا حينما التقيتك، وبفضل صديقيّ العزيزين عمر وسيلين علمت القصة الكاملة ،وأصبحت على تواصل دائم معهما، فمنذ أن وقع عمر في حب سيلين، وهو يتكلم عنها ، أخبرني بقصة صديقتها التي تعرضت لمحاولة اعتداء، عندها أدركت بأنني وجدتك أخيراً، وقد كنت ستباشرين العمل في دار المسنين، لتراودني الحيرة مرة أخرى متمثلةً بالصفة التي سأقدم بها نفسي إليك، فلم يكن من الوارد أن أظهر أمامك بشكل مباغت وأخبرك بأنني الملاك الحارس الذي أوكلت إليه مهمة رعايتك، فلم أر أمامي سوى طريقتين اثنتين، تتمثل الأولى بالسيد ناظم الذي كان بحاجة حقاً إلى

من يرعاه، فبقيت أسابيع وأنا أقنعه بالمكوث في دار المسنين التي تعملين فيها ، والطريقة الثانية هي من خلال الرسائل ذات المصدر المجهول، أعرف بأنني تصرفت كالمراهقين في أمر الرسائل تلك، لكنني كنت أود سبر أغوار شخصيتك، فشخصية المرء لا تدرك سوى من خلال انفعالاته ، لذلك كنت أراقب ردود أفعالك عندما كنت الصحفي المتعجرف الذي يستفزك باستمرار، ومن ناحية أخرى كنت العاشق الذي يمطر محبوبته بسيل من كلام الغزل المعسول، أكرر اعتذاري لك ليلى إن فهمت بأنني أتلاعب بمشاعرك ، لكن تلك كانت الطريقة الوحيدة لأتقرب إليك، أنا أعرف بأنك لا تحتملين الشفقة ولا تقبلين تلقي المساعدة من أحد، لذلك لجأت إلى تلك الطريقة لنقل الملتوية قليلاً، فأنا في نهاية المطاف لست خبيراً بأمور النساء، هذه هي قصتي وهذه هي الحقيقة الكاملة التي لا تشوبها غموض أو نقص، بقي شيء واحد وهو أنني من خلال تلك الرسائل ، كنت أضع اسمي دوماً لكن بطريقة مشفرة قليلاً، الرقم (**12** (هو رقم ترتيب حرف **M** من اللغة الإنكليزية، الرقم (**20**) للحرف **U**،و (**17**) لحرف ال **R**، إضافة للرقم (**0**) للحرف **A**، وأخيراً الرقم (**3**) للحرف **D**، فتصبح تلك الأرقام **MURAD** إلى هنا أنهي كلامي ، فقد أفرغت كل ما في جعبتي من كلام

لدى انتهاء مراد من سرد الحقائق، تنهدت ليلى بعمق، فجميع عقد الحبل المتشابكة قد أفضت إلى خيط وحيد وهو مراد، كانت نفسها مثقلة بالمشاعر المتأججة، لكن في العموم كانت سعيدة و راضية، فالنتائج كانت جيدة أكثر من المتوقع ، فبادرت بالكلام :

-إذاً كنت أنت اليد التي سحبتني من أعلى الجرف في أحلامي، أخبرتني سيلين ذات مرة بأن أكتب قصة، اسرد فيها وقائع حياتي ، لكن على ما يبدو فإن حياتي ستحمل لي الكثير من المفاجآت مستقبلاً، لقد وصلني الجواب على سؤالي، فجواب لماذا كان أنت، لربما وقعت كل تلك الأحداث ليتقاطع طريقينا معاً، لقد قالت لي إحدى زبونات المطعم يوماً بأنني أبدو دائماً كئيبة، نظرت إليها وأنا أتظاهر بالدهشة، لقد كنت أدرك في قرارة نفسي بأنها محقة، لكن ماذا كان عساي أن أرد عليها، هل أقول لها بأن ليلى القديمة قد طحنتها الأيام فلم يبق منها سوى الغبار، فأخبرتها بكل برود اعذريني على كآبتي فالأمر قد خرج من يدي، عندما بعثت إليّ بالفستان فرحت فرحاً شديداً، لكنك أبكيتني أيضاً ، شعرت بأنك جرحت كبريائي وعزة نفسي، وبأن كرامتي ليس لها أي معنى، أنا مع كل الذي أخبرتني إياه ،لست غاضبة منك، بل على العكس جعلتني أحترمك أكثر، أشكرك ، أشكرك من أعماق قلبي لكل الذي فعلته لأجلي

وقبل أن تكمل ليلى ، قاطعها مراد قائلاً :

-لا ليلى، لا، ليس عليك شكري أبداً، لم أكن على قيد الحياة قبل ألتقيك، لقد عدت إلى الحياة بفضلك ، والآن اسمحي لي أن أقدم لك هذا الخاتم ، إنه نسخة معدلة من خاتم الحب ، لقد طلبت صنعه خصيصاً لك مع بعض التعديلات التي طلبتها

توردت وجنتا ليلى، وكادت أن تذوب خجلاً، كان خاتماً مصنوعاً من الذهب، وقد نقشت عليه ثلاثة زهور توليب، وقد كانت كل زهرة بلون مختلف، كتلك الأزهار التي تبادلاها، طلب منها مراد أن تدير سطح الخاتم، فتحركت الطبقة الأولى ليظهر تحت كل زهرة توليب، رسالة منقوشة كانت نفسها الرسائل التي كان قد بعثها لها سابقاً.

-هل هو عرض للزواج

-نعم بالتأكيد هو أيضاً عرض للحب ، للحياة ، للسعادة الأبدية

-وهل تقبل بفتاة مجنونة مليئة بالعقد النفسية

-بكل تأكيد

وهنا صمتت ليلى من جديد، فهي تعتقد أيضاً بأن حبهما سيكون مثالياً أيضاً ، سكوتها هذه المرة هو السكوت الذي يدل على الرضى .

كانا قلبان ضائعان، وجد كل منهما ضالته في الآخر ، كان كلاً منهما مرهم لتشققات روح الآخر.

بعد تلك الأمسية السرمدية، قامت ليلى بتناول مذكرتها الجديدة، وخطت عليها أولى جمل روايتها الأولى

هناك في مطعم السيد شكري، وحيث تختلط روائح الأطعمة مع أفكار الزبائن، كان ثمة شخصان في ركنين بعيدين من المطعم، سيجمع القدر بينهما، ظاهرياً هو خيط واهٍ لا يكاد يرى، لكنه سيتحول إلى خيط متين يستحيل قطعه، أحدهما انتقم من والديه، والآخر ينتقم لوالديه، هي الحياة قهوة حلوة، متناقضة غريبة، لذيذة للبعض، وغير مستساغة للبعض الآخر، وفي النهاية تبقى لغزاً للجميع.

خاتمة

نحن لا نعلم فيما إذا كانت توليب أو ليلى قد نجحت في الوصول إلى حلمها، نحن لا نعلم فيما إذا كانت قد طبعت روايتها الأولى، فلربما قد أصبحت كاتبة الآن، ولربما فشلت في تحقيق ما كانت تصبو إليه ، لكن تبقى النقطة الأهم بأنها حاولت، وبأنها قد خطت خطواتها الأولى وإن كانت خطوات خجولة متعثرة، أوليس رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة .

إليك صديقتي، إن كان لديك حلم فقاتلي لأجله بكل بسالة، تشبثي به بكل ما أوتيت من قوة، سواء أكانت أظفارك مطلية أو متكسرة، المهم أن تتمسكي به جيداً، كوني قوية، كوني استثنائية،كحرف الضاد في اللغة العربية، فريدة من بين اللغات، لا تقلقي إن شعرت يوماً بأنك في المكان الخطأ، فلربما كان هذا المكان دليلك لاكتشاف طريقك و مكانك الصحيح الذي لربما لم تكوني يوماً قد فكرت به ...

مع خالص حبي

سلام

تمت بحمد الله

تواليب

رواية

سلام المجالي

الطبعة الأولى
1442 هـ 2020 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد
جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com